

في ظلال الأنبياء

قصصهم في القرآن والأحاديث الصحيحة





محمد حمد عبد الله الصوياني

العبيكان
Obeikan



محمد حمد عبد الله الصوياني

العبيكان
Obeikan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني؛ محمد حمد عبدالله

في ظلال الأنبياء./ محمد حمد عبدالله الصوياني، ط١؛ -الرياض، ١٤٤٢هـ

٢٨٤ص ؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٧-٣٩٢-٥٠٩-٦٠٣-٩٧٨

١- قصص الأنبياء أ. العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٤٢/٦٦٥٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

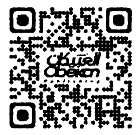
المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧







الإهداء

إلى أخوي وصديقي العزيزين

أبي عبدالله محمد الفريح،

وأبي معاذ فواز المحرج

في الملأ الأعلى.. فوق السماوات.. في مكان لا يمكن وصفه، ولا لغة تبوح بجلاله وهيبته.. في مكان تجوبه الأنوار والأجنحة والملائكة والمشاعر، ويزينه التسبيح والتقديس لله تعالى.. تترقب الملائكة حدثًا عظيمًا، بعد أن تلقت أمرًا من الجبار سبحانه بالسجود لمخلوق جديد.. مخلوق ينتمي إلى تربة تلك اللؤلؤة السابحة في الكون، التي تسمى الأرض.. مخلوق ينتمي إلى تربة ذلك الكوكب الملون الصغير. وذلك بعد أن قال لهم الجبار سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

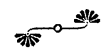
لم تعترض الملائكة على السجود والخضوع، لكنها دخلت في حوار مؤدب مع ربها سبحانه، حين أخبرهم بالمهمة العظيمة، التي كلف بها هذا المخلوق الجديد، وهي عمارة الأرض، والإبداع فيها بأمرين اثنين: (توحيد الله)، (والعدل)، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾. حينها قالت الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. فهل عاشت يا ترى في الأرض مخلوقات سفكت الدماء، ثم انقرضت قبل خلق آدم؟ أم أن الملائكة تتحدث عن الصراع الدموي من أجل البقاء، الذي تمارسه الحيوانات على الأرض؟ وإذ بالجبار الحكيم سبحانه يقول: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.



أدرك الملائكة أن وظيفة الإنسان سامية، فآدم نبي، والله يقول عن أول رسائله لأنبيائه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. أما الرسالة الثانية فهي إقامة النظام، حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

حدث الأمر، وخلق الله آدم، وصوره في أحسن صورة.. صورة معجزة مذهلة، ثم تركه ساكنًا، كتمثال وسط عالم من الجمال المبهر، والمساحات

الملونـة، وسـط الجنـة.. ظـل آدم دون روح.. دون حـراك.. بين الثمـار اللذيذة، والأنهـار والأشـجار والطيور والزهـور، والمناظـر الخلابة، والروائح المنعشـة، وفـي إحـدى سـاعات سـكون آدم.. دب بيـن أشـجار الجنـة مخلـوق ينتمي إلى عالـم الجـن.. عالم مختلف عـن عالـم الملائكـة، فالملائكة خلقهـم الله من نور، أمـا الجـن فخلقهم الله ﴿مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾. انسـاب الجني الذي يحمل اسـم (إبليـس) فـي فضـول بيـن الأغصان.. يريـد اكتشـاف هـذا المخلوق، الـذي أُمر بالسـجود لـه قبـل خلقـه.. اقتـرب مـن هـذا التمثال بـارع الجمـال، الـذي ينتظر الحيـاة، ويشـتاق للروح.. بـدأ يطوف حولـه.. يتأمله، وفجأة اجتاحـه الفرح، فقد رأى شـيئًا فـي آدم، أصابـه بالزهـو والخيلاء، بـل أعلن تفوقـه عليه.



لحظات السجود والتمرد

ظـل إبليـس يحـدق بتكويـن آدم الجميـل، وبقامتـه الممشـوقة.. تأمـل عينيه الشـاخصتين، وثغـره الصامـت، وشـعره الجميل، وجسـده الغض، وفجأة شـعر بالتفـوق علـى هـذا الصامت، فقـد اكتشـف شـيئًا، جعله يعتقـد أنه أفضـل منه.. اكتشـف أن هـذا البشـر الطينـي يحتـوي فراغًـا داخـل جسـده، وأنـه (أجـوف لا يتمالـك) عندهـا أعلـن ازدراءه لـه.. أعلـن حربًـا ضـد شـخص لم يتحـرك.. لم يتكلـم بعـد، بـل وليـس بـه روح، ثـم قـال فـي نفسـه: (ظفـرت بـه خلـق لا يتمالـك)[1].

بـدأت نـار الحسـد تتأجـج داخلـه، حتـى جـاءت اللحظـة الحاسـمة، حيـن نفـخ الله الـروح فـي آدم، فـإذ بالملائكـة تضـع أجنحتهـا خضوعًـا لأمـره.. كان المشـهد مهيبًـا، يأخـذ بالمشـاعر، لم يشـوهه سـوى غطرسـة إبليـس، الـذي

(١) رواه مسلم (٢٦١١) وابن حبان (٦١٦٣) واللفظ له.

رفض السجود. انتهت لحظات السجود، واشتد غضب الجبار على عبده إبليس، الذي حوله الحسد من مخلوق جميل إلى شيطان رجيم.. لم يسحق الجبار سبحانه عبده الحقود.. لم يقذفه في جهنم، بل منحه حرية مسؤولة، وأعطاه فرصة ليرد، بعد أن سأله عن سبب تمرده، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وإذ بالحسود المتكبر يقول: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

لقد منحه الله سبحانه فرصة ليتراجع ويتوب، لكن إبليس كابر، وقال لربه معاندًا: (﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أصبح إبليس أول متكبر مفاخر بأصله.. احتقر آدم لأنه من طين، مع أنه لا ذنب لآدم، ولا فخر لإبليس في ذلك، فالأصل ليس إنجازًا.. هو هبة من الله، واختبار لشكر المخلوق أو صبره، لكن الكبر أعماه، فلم ير في آدم سوى الطين.. الصلصال، لم يدرك دقة خلقه.. عشرات المليارات من الخلايا، وعشرات الأميال من الشرايين والأوردة، تذهل العالم قبل الجاهل. أعماه الكبر حتى عن نعم الله عليه، فانشغل بالتنقيب عن عيوب غيره.. تناسى أن الله أكرمه، وجعله في الملأ الأعلى، لكنه الحسد.. يهوي بصاحبه من التحليق في السماء، إلى اللهاث خلف أحذية المحسود.

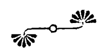
انتهت مرافعة إبليس، ثم سكت بانتظار الحكم، أما آدم فأنعم الله عليه بأنيس يشاطره الحب والحياة.. حواء: الفتاة الجميلة، التي ملأت قلبه، وآنست وحدته، ثم عرض عليهما شيئًا عظيمًا، هو الإرادة أو الأمانة. أمر اعتذرت السماوات والأرض والجبال عن حمله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾. قبل آدم وحواء تحمل الأمانة والإرادة، لذا جعل الله سكنهما الجنة دائمًا، لكنه مشروط بشيء يتعلق بإرادتهما، فما هو ذلك الشرط؟ أمام بوابة الخلود أو الوهم.

سكن الحبيبان الجنة، وبدأ اختبار إرادتهما، حين أباح الكريم سبحانه لهما كل شيء فيها.. كل شيء في الجنة لكما، عدا ثمار هذه الشجرة التي أمامكما. كان اختبارًا سهلًا للوهلة الأولى، بل إن الحق سبحانه زاد من وعي الحبيبين، حين حذرهما الخروج من الجنة، ولن يكون ذلك إلا بالإنصات لوسوسة عدو لا يعرفانه، لكنه يعرفهما.. حذرهما من إغراء وإغواء (إبليس)، فقال: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

كسا الله آدم وحواء من ملابس الجنة الفاخرة، وظلا ينعمان في أجوائها الحالمة.. يتهاديان عبر المساحات الساحرة وبين أنهارها وشلالاتها.. تتضوع الأماكن بالعطور، وأنغام الطيور، والسعادة الغامرة.. لا يعكرها سوى وسوسة أو رؤية إبليس بين الفينة والأخرى، فتحذير ربهما منه جعلهما يتوجسان، لذا ظل إبليس يدرس سلوكهما، حتى أدرك نقطة قوة وضعف فيهما، وهي الشغف.. الطموح، لذا توصل إلى فكرة قد تنجح في طردهما من هذا النعيم.. فكّر وفكّر، وأخيرًا وجدها، حين وجد شغفهما يوقفهما أمام تلك الشجرة، وكأنهما يقفان أمام لغز مثير. اقترب منهما، ليقذفهما بأول أكاذيبه ووسوساته.. كذبة قال فيها: إن في ثمار تلك الشجرة سر الخلود، وأنهما سيصبحان ملكين خالدين، بمجرد تناولها، بل أقسم لهما: أنه ناصح، يريد الخير بهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾.

تأجج الشغف داخلهما.. أنساهما نصيحة خالقهما، فالطمع يعمي الإنسان عن الكثير الذي بين يديه، ليجعله يحدق بالقليل الذي عند غيره.. ظل فضول آدم وحواء يطوف حول تلك الشجرة، وكأنها الوحيدة في الجنة.. يتغافلان عنها لكن سرعان ما تعيدهما كلمات الشيطان. ظلا يترددان عليها، يتأملانها، ويتأملان الجنة الساحرة من حولهما.. لا يريدان مغادرتها، ولا يريدان للموت

أن يأخذهما عنها، وفي إحدى المرات تهاديا نحوها.. اقتربا حتى وقفا أمامها، وكأنهما يقفان أمام بوابة الخلود.. ازدادت خفقات قلبيهما، وهما يمتلئان بالأحلام الزائفة، وفي لحظة ضعف بشرية عجزا عن المقاومة.. مدا أيديهما نحو ثمارها، وكأنهما يستلمان مفاتيح الخلود، وبعد تردد قبضا على ثمرها وقطفا، بينما كان الشيطان يراقبهما، وحقده يفرك يديه حماسًا.. يتحرق لرؤيتهما مطرودين.. قرب آدم وفتاته الثمرة الحلم من أفواههما ثم تذوقا منها.



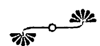
رحلة الهبوط المريرة

أكل آدم وفتاته من الشجرة.. لم تكن حواء هي السبب.. كانا شريكين في الأمر.. ظل طعم الثمرة يجول في رأسيهما، وهما ينتظران سريان الخلود في جسديهما، وفجأة حدث شيء أذهلهما عن الثمار والخلود وعن كل أحلامهما.. لم تظهر لهما أجنحة، ولم تتحور أجسادهما، ولكن سقطت عنهما ملابس الجنة.. أصبحا عاريين.. أدركا أنهما لم يعودا ينتميان للجنة.. أدركا أنهما وقعا ضحية مكيدة شيطانية خبيثة.. مكيدة أنستهما ثمار الجنة، التي لا تعد ولا تحصى، وأشغلتهما بشجرة واحدة.. شجرة لن يضيرهما تركها.. مكيدة انتزعتهما من مساحات الحلال، التي لا حدود لها، ورمتهما في مستنقع صغير هو الحرام.

ذهل أبونا الشاب، وأمنا الشابة عن تلك الشجرة المحرمة.. انطلقا يركضان نحو الشجر الحلال، عله يسترهما بعد أن عراهما الحرام.. توجها نحو الأوراق الكبيرة منها.. بدأا ينتزعانها، ويلفانها حول جسديهما، بعد أن لفتهما الفاجعة، ثم توقفا وبقيا في حالة وجوم وخوف وندم قاتل، وانتظار لما بعد المعصية، وإذ بالجبار الكريم الذي منحهما الجنة، من أقصاها إلى أقصاها دون مقابل، يناديهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

لم يكابرا كما كابر إبليس.. اعترفا بخطئهما، وتحملا مسؤولية الحرية التي منحت لهما، و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، لكن إغواء آدم جعله يندم ويستغفر ربه، فـ﴿ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، لكن هناك مقدمة، وهناك نتيجة.. هناك قدر لا مفر منه، فالأكل من الشجرة المحرمة معصية، لكنه لا يعني دخول النار، بل يعني الخروج من الجنة، فإلى أين؟ غادر آدم وزوجته النعيم والبذخ والثراء والساحات الغناء، والقصور الفارهة، والعوالم المدهشة، التي لا تعرف الكد ولا الشقاء، ولا الحر أو العراء.. تهاديا عبر أحد أبوابها، وهما يحملان حقائب الندم الثقيلة، ولكن إلى أين؟ إنهما الآن خارج بوابة الجنة، ينتظران وجهة السفر الآتية، والمحطة المقبلة.

خرجا من الجنة؛ لتبدأ رحلة الهبوط المريرة إلى الأرض، عبر مسافات هائلة، وسرعة اختفى فيها الزمن.. نزل آدم وحواء، ونزل معهما إبليس، ليستأنف ضدهما حرب الكراهية على الأرض.. حرب الحقد، التي بدأها في السماء، فأي مشاعر اجتاحت أبوينا، حين هبطا في العراء.. ما مشاعر أول يوم لهما على الأرض.

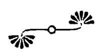


من مشاعر أول يوم على الأرض

قبل نزول آدم أراد الحكيم سبحانه أن يري الملائكة قدرات هذا المخلوق الجديد، فعرض عليهم أشياء يجهلونها.. ربما كانت من اختراع الإنسان المستقبلية، فسألهم عنها، فلم يعرفوا أسماءها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ثم قال سبحانه لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أدرك الملائكة مهمة آدم وحواء وذريتهما العظيمة، ثم نزل آدم وحبيبته إلى الأرض.. لامست أقدامهما الحافية وجهها.. سارا على تربتها.. على صخورها.. صعدا جبالها، وهبطا عبر أوديتها.. آه كم يفتقدان إلى نعومة طرقات الجنة وجمالها.. استنشقا هواء الأرض النقي، فلم يجدا عبير تلك العطور.. فارق مهول بين جنة رصفت بالأحجار الكريمة.. حصباؤها اللؤلؤ، وترابها الزعفران، وبين أرض يكسوها التراب والحجارة.. فارق بين أنهار وبحار وبحيرات صافية، قاعها منقوش باللؤلؤ، وبين أنهار قيعانها الطين والطمي.. ارتفع ذلك القرص المتوهج في السماء من جهة الشرق، فبدأت الحرارة بالارتفاع.. ما هذه القطرات التي يراها آدم، تنساب من جبهة حواء، وعلى صدره وذراعيه.. إنه العرق.. لأول مرة يعرقان.. ثم يشعران بالظمأ، بعد أن كانا في جنة، لا يظمأ ساكنها ولا يضحى. شربا من الماء، وشعرا بالارتواء والانتعاش، ثم مرت الساعات، فقرصهما الجوع.. دبا في أرجاء المكان، يبحثان عن تلك الثمار الدانية، والفواكه الملونة، التي لا حصر لها.

إنها أرض ابتلاء، لا تنال ملذاتها إلا بالكد والتعب.. حصلا على بعض الطعام، فأكلا وحمدا الله، ثم بدأ القرص المنير يميل نحو الجهة الأخرى نحو الغروب، ثم بدأ شيئًا فشيئًا ينغمس في الأفق الأحمر، حتى غاب، وشيئًا فشيئًا خيم ظلام موحش.. لم يعودا يريان شيئًا.. حتى إبليس اختفى، لا يستطيعان رؤيته، لكنهما يتذكرانه جيدًا، ويتذكران تهديده.. شعرا بالوحشة.. رفعا أعينهما للسماء، فإذا نجوم تتلألأ.. ظل قلباهما معلق بالله، ولساناهما يلهج بذكره، فلا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه.. شعرا بالتعب والخمول، بدأت أجفانهما تثقل، ثم لم يعودا يقدران على فتحها، ثم استلقيا وغرقا في أول نومة لهما على الأرض.

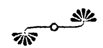


أشرق الفجر، فنهض آدم وزوجته نشيطين.. ذهب ذلك التعب والنعاس، وشعرا بالحياة تسري من جديد في جسديهما وعلى الأرض.. طيور هنا، وطيور هناك، وحيوانات تمر، وأخرى تُطارِد أو تُطارَد.. بدأا يمارسان مهامًّا لم تكن في الجنة، فقد تغيرت الأحوال والظروف، ولم يعودا كما كانا.. أصبحا خاضعين لقوانين الأرض.. أجسام تتعب، تفرز، تعرق، تتسخ.. تحتاج لصيانة دائمة.. أمور لم يكونا بحاجة إليها في الجنة. إنه النظام الذي وضعه الله للأرض، والسنة التي سنها لساكنيها.. بدأا الإبداع البشري وعمارة الأرض فيها.. صنعا بيتًا يقيهما حرارة الشمس، والمطر، وبرد الشتاء.. صنعا ملابسهما.. تعلما تربية المواشي المستأنسة، وركوب بعضها.. تعلما الصيد والادخار، وإشعال النار، والشي عليها، والاستدفاء بها.. تأقلم الحبيبان مع الأرض.. يحدوهما الوحي والتوحيد والصلاة لله والشوق للجنة، وبعد مدة لاحظت حواء أن بطنها يستدير.. يكبر، وبعد أشهر، بدأت تشعر بآلام كالموت.. رزقت بعدها بمولود، ينسيها آلامها.. تلاعبه، ويؤنس وحشة الأرض من حولها، ثم ترزق بآخر، وأخرى وأخرى... كانوا ذكورًا وإناثًا.. بدأ الأنس البشري يزين الأرض، وغدت الأرض أجمل، ببراءة الأطفال وضحكاتهم وبكائهم، وابتساماتهم العذبة، وأجسامهم الغضة.. كبر الأولاد، وكبرت المسؤوليات، ونشأهم أبواهم على التوحيد، لكن خلافًا بين الأخوين حدث ذات يوم، حول أمر من الأمور، فبدأ آدم يمارس ثاني مهمات الأنبياء وهي العدل.. طلب منهما أن يقربا لله قربانًا.

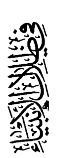
أحضر كل واحد قربانًا مما يملك، وأوحى الله لآدم ﷺ أن الله تقبل قربان (هابيل)، ولم يتقبل قربان أخيه (قابيل). كابر قابيل وغضب، وتفاقم غضبه، وحرضته الأنانية على التخلص من أخيه، فهدده قائلًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾،

فـرد بهدوء وخوّفـه بـالله قائـلًا: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فرقت الدنيا بين الأخوين.. أصبحت المسافة بينهما بعيدة، وفي أحد الأيام كان هابيل في مكان بعيد عن والديه وأخواته، وإذ بقابيل يتسلل نحوه، والشر في عينيه، ثم يضربه ضربة أسقطته أرضًا وهو ينزف. يتلبط في دمه.. يهتز جسده، ثم يسكن شيئًا فشيئًا، حتى صعدت روحه، وفارق الحياة. وقف القاتل يتأمل جثة أخيه.. تأمل نفسه، وقد أصبح بلا أخ.. تلفت ندمه، فوجد أرضًا فسيحة، تتسع لكليهما، بل لمليارات البشر.



القاتل الأول

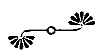


وقف قابيل أمام جثة أخيه.. يتأمل الأرض، فإذا هي فسيحة، تتسع لكليهما، بل تتسع للمليارات من البشر. أصبح أتعس من على الأرض.. لم يكن الأمر يستحق كل هذا العنف.. أثقله الندم حتى عجز عن مغادرة المكان.. شعر بالشوق لأخيه الطيب، فحمله وسار به يشخب دمه.. دار به حتى تعب.. ضاقت به الحيل.. لا يدري أين يضعه، ولا إلى أين يتجه.. لم تعد الأرض فسيحة كما كانت.. لم تعد جميلة.. شوهتها الجريمة. جلس ابن آدم يقطر حزنًا وندمًا: هل يذهب به إلى والديه فيفجعهما، أم يتركه طعامًا للوحوش، أم ماذا يفعل؟ وفجأة شعر بحركة قريبة منه.

التفت فرأى مشهدًا أخذ منه كل حواسه.. رأى غرابًا ينبش تراب الأرض، وبجواره جسد غراب ميت.. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ﴾، انتهى الغراب من النبش، بعد أن حفر تجويفًا في الأرض، ثم بدأ يزحزح جسد الغراب الميت بمنقاره، حتى وضعه فيه، ثم دفنه. حينها

أفاق قابيل على إحدى كوارث الجريمة، فقال لنفسه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، ثم نهض، وبدأ بحفر شق في الأرض، يتسع لجسد أخيه المظلوم، ثم عاد وانحنى عليه، وحمله ووضعه داخل التجويف، وأهال عليه التراب، ثم أفاق مرة أخرى على عالم آخر.. عالم بلا أخ.. غاب ذلك الطفل، الذي كان يعدو ويلعب معه، ويسابقه نحو أحضان حواء الحبيبة، أو ذراعي آدم اللطيف.. رحل الصديق، الذي كان يؤنس وحشته، والفتى الذي كان يرافقه للصيد.. رحل من أجل ماذا؟ إنه الطمع.. الحسد، الذي جعل العالم أسود في عينيه.. نهض من عند قبر أخيه، ينفض يديه من ترابه؛ لتبدأ خطواته الثقيلة سيرها للمجهول.. هائمًا على وجهه، تطوف به الأسئلة الباكية: ماذا ستقول لحواء الحبيبة، حين تسألك عنه؟ أي حزن سيحرق كبدها، حين تكتشف أنك قد حرمتها منه؟ من سيجيب آدم إن خيم الليل، وخرج عبر الأودية، ينادي حبيب القلب: أين أنت يا هابيل؟ ماذا ستقول لأخيك يوم البعث، حين يسألك: لم قتلتني يا أخي؟

وقبل ذلك، ماذا ستقول للجبار سبحانه، حين يسألك: لم قتلت عبدي؟ أدخلته الجريمة عالمًا معتمًا، وسن سنة القتل، فـ «لا تقتل نفس ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»[1].. سار قابيل هائمًا حزينًا حتى التقت عيناه بعيون أمنا وأبينا.



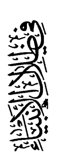
بداية الوثنية والشرك

سار قابيل هائمًا على وجهه من شدة الحزن والندم.. شُل تفكيره، حتى عجز عن التصرف بجثة أخيه هابيل، فكيف سيخبر والديه بجريمته.. الأمر

(١) صحيح البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

فوق طاقته.. التقت عيناه بعيني أمنا حواء وأبينا آدم بعد مدة.. تنهدت حواء وأنَّت.. بكت، وارتفع نحيبها، وطال حزنها، وسافرت خناجر الحزن في قلب آدم، الذي فجعه الخروج من الجنة، وفجعه ابنه بابنه. وبكت الأخوات بكاء مرًّا.

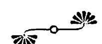
أي حزن أدخلته يا قابيل على أسرتك الصغيرة والوحيدة؟ أهكذا يكون البر بأبوين، أسعداك ورعياك، أم هكذا يكون التعامل مع أخ لم تر منه سوءًا.. لم يأخذ مالك، ولم يمد يده لك بسوء، بل آثرك على نفسه، وحقن دمك؟ طال الحزن على هذه العائلة، وطال، ثم مر مع الأيام والأعوام، وكثرت ذرية أولاد آدم وحواء، وواصلت الأعوام مرورها، وكبر أبونا وأمنا عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وكساهما الشيب، وأنهكتهما الشيخوخة، ثم حانت ساعات الفراق للدنيا بأسرها.. بحلوها ومرها.. بذكريات الجنة، ومعاناة الأرض. رحلا فبكاهما الأولاد والأحفاد والأسباط، ثم مات الأبناء، ومات قابيل ورحل، وظل بعده أحفاد آدم وحواء وأسباطهما، يعمرون الأرض بالتوحيد، والبناء والتشييد والابتكار.. برعوا في الزراعة والصناعة الخفيفة، التي تجعل الحياة أيسر وأسهل.. ظلوا على التوحيد، لا يعبدون إلا الله وحده، لا شريك له. جيلًا بعد جيل، طوال عشرة قرون.. لم تعرف الأرض شركًا بالله خلالها.. لا عبادة لأحجار، ولا لأشجار، ولا لحيوان، رغم محاولة الشيطان المتكررة، التي أكسبته خبرة في فهم السلوك البشري.. بعدها لاحت له فكرة شريرة، وكأنه قد انتشلها من الجحيم.. فكرة سيغوي بها ذرية آدم؛ ليبعدهم عن التوحيد، دون أن يشعروا، فكرة غلفها بشعارات تحمل حب الله.



وسوس لهم الشيطان: أن يكرموا بعض الأموات من الأولياء الصالحين، من أمثال: (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر)، اصنعوا لهم تماثيل، تذكركم بعباداتهم وصلاحهم.. تماثيل إذا رأيتموها نشطتكم للعبادة، وبعد تردد. نفذ أحد الأجيال تلك الفكرة الشيطانية، فصنعوا تماثيل لإحياء الذكرى، وتنشيط

الذاكرة فقط، ثم جاء جيل آخر، فشاهد تكريم تلك التماثيل، فظن أن أرواحًا تسكنها، وتؤثر فيمن يخاطبها، ثم جاء جيل تعلق بالحجارة نفسها، وأغفل الخالق سبحانه.

هنا بدأت الوثنية لأول مرة، وكثرت الأصنام، حتى ولد وسط هذا العالم الوثني طفل سماه أهله (نوحًا).

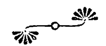


نوح وعالم الوثنية الأول

بعد أكثر من ألف عام من التوحيد النقي لله سبحانه على الأرض.. بدأت الوثنية تحت شعار تكريم الصالحين، وتخليد ذكراهم، ثم انتشرت انتشارًا مخيفًا، حتى طغت على سكان الأرض قليلي العدد، وفي وسط ذلك الجو الوثني، ولد طفل سماه والداه بـ (نوح).. كبر نوح ونضج.. كان ذكيًّا حر التفكير.. تأمل أصنام قومه، فأدرك أن من البلاهة والحمق: أن يعبد الإنسان العاقل حجرًا أصم، صنعه بيده، بل صنعه بالأساس، لتخليد ذكرى بشر مثله، فاصطفاه الله سبحانه، وأنزل عليه الملاك جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليكلفه بتلقي الرسالتين، اللتين بشر بهما جده الأول آدم (التوحيد والعدل).

انطلق نوح يبشر بهما قومه، كلما أتيحت له فرصة.. في معابدهم.. في مجالسهم.. في أنديتهم، وبأي وسيلة ممكنة. بدأ الناس يتهامسون حوله، يشيرون إليه حتى اشتهر، فأثار غيرة الوجهاء، وسدنة الأصنام، لكنه لم يتراجع، فبدأ نجمه يعلو ويرتفع.. وهو يردد في كل مسمع كلماته الرحيمة الحانية العاقلة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، كلمات أثارت حفيظة سدنة الأصنام والتقاليد المنتفعين من بلاهة عابديها السذج.

أدركـوا أن هذا الرجـل يصرف الناس عنهـم، ويصرف الأموال عـن جيوبهم، وأن التوحيد سيكشـف دجلهم واسـتغلالهم للبسـطاء، فبدؤوا بتسـفيه رأيه، حتى ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، لكن جدية نوح أفشـلتهم.. خاطب عقولهـم برقـي، فقـال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، لكنهـم لم يأبهوا، بـل انتقلوا لتلفيق التهـم له، والتحريض عليـه، كـي يسـهل التخلـص منـه، بـل واغتيالـه، لكن نوحًـا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تجاهـل تلك العقول الخشـبية لكبار القوم، واتجه للبسـطاء والفقراء، الذيـن وجدوا فيه إنصافًا وعدالة وإنسـانية، فثارت ثائرة الوجهاء مـرة أخرى.. هاجوا وماجوا، ليحولوا بينه وبيـن العامة من النـاس.. توجهوا للبسـطاء يحذرونهم منه ومـن التوحيد، بحجة غبية، ويقولون: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، لكـن نوحًـا ظل مقنعًا يدعو بلا يـأس.. هنا عقد كبـار قومه اجتماعًا حاسـمًا، وبعـد المداولات قـرروا أن ينصبوا لـه فخًّا.. قرروا القيام بخدعة يكسـبون من خلالها كل شـيء، ويخسـر نوح معها كل شـيء.





خدعة قوم نوح

قـرر قادة الوثنيين تحطيم مصداقية نبـي الله نوح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام أتباعه بخدعة، هـي أن يطالبوه بطرد أتباعه المسـاكين، كشـرط أول لإسـلامهم، لأنـه إن طردهم فسيكتشـف النـاس أنـه حامل شـعارات لا أكثـر، ولا تهمه سـوى مصلحتـه وهنا سيتركونه.. بعدها سيوجهون له ضربة قاضية برفض التوحيد، فيخسر الطرفين معًا.

وافـق المجتمعـون على تلك الخطـة، ثم توجهوا نحو نـوح ليقدموا عرضهم، واثقيـن أنه سـيفضلهم، ويفضـل وجاهتهم ودعمهـم على أولئك الفقـراء. قابلوه وصارحـوه، ثـم سـكتوا بانتظار الـرد، وإذ بنـوح يصدمهـم.. يبين لهم أنـه مجرد حامـل رسـالة أميـن، وأن كنوزهم لا تسـاوي عنده إسـلام فقير واحد.

قـال ثقـة بربـه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

جن جنـون الصناديـد.. أصيبوا بالذهـول، وهم يرون الإسـلام لا يفاضل بين النـاس حسـب موروثهـم ولا أموالهـم، بـل حسـب إنجازهـم وقربهم مـن الله.. تهـوروا، فأعلنـوا القطيعة مع أي مجلس يتحدث فيه، لكـن نوحًا واصل دعوتهم، فلـم يزدهم إلا فـرارًا، حتى بلغ السـخف ببعضهم أنهم كانوا إذا سـمعوه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، ومنهـم مـن يقـوم بحركـة بالغـة الوقاحـة.. كانـوا إذا سـمعوه شوشـوا عليـه ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾، وغطوا بها رؤوسـهم لإشـعاره بالإهانة، لكنه ظل صابرًا محتسـبًا متحمـلًا تفاهاتهم.

طـال عمر نـوح، وطالـت معاناتـه، ويبـدو أن معجزتـه كانت في طـول عمره المديـد.. تمر السـنوات وهـو صامد لا يتزحزح.. مسـجلًا نفسـه أول أولي العزم مـن الرسـل.. ينوع أسـلوب دعوته حسـب الظـروف والأشـخاص، حتى وصف معاناتـه معهـم قائـلًا: ﴿إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾، أغراهـم بمستقبل جميـل قائـلًا: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾، لكـن صلفهـم وعنادهـم جعلهـم يتحدونه أن يأتي بالعـذاب بل هددوه بالقتـل.. هنا نزل الوحي يأمـره بأمر مخيـف، فإذ به يتوجـه إلى المؤمنين ويحولهم إلى شـعلة من النشـاط والحركـة، وذلـك حين طلـب منهم أن يقومـوا بتحويـل أحد الأمكنة إلى ورشـة ضخمـة.. التـف حولهـا الوثنيـون جاعليـن منهـا مسـرحًا للضحـك والسـخرية والتندر.

لم يؤمن مع نوح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سوى القليل، حتى تحدته الأكثرية قائلة: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، فضاق به قومه، وهددوه بالقتل قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، بل إن إحدى زوجاته وأحد أبنائه خذلاه. ضاقت الأرض بهذا النبي الصابر، بعد هذا العمر المديد، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

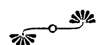
هنا نادى نوح ربه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، دعا الجبار سبحانه دعاء مظلوم، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، ولا يلام، فعشرات السنين من العناد تخلق اليأس، فكيف بقرون، وفجأة نزل الوحي، يأمره بأمر أثار استغراب المؤمنين، بل فجر سخرية الوثنيين.

نزل الوحي يأمره بصنع سفينة ضخمة، لكن نوحًا لا يسكن أرضًا على البحر، ولا يعرف كيف تصنع السفن الضخمة، التي تسمى الفلك، لكن الجبار سبحانه أمره بصنعها بتوجيه من الوحي، الذي سيخبره بتصميمها، وقال له: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾. بدأ نوح بتنفيذ الأمر.. انطلق هو والقلة المؤمنة معه نحو الغابة.. بدؤوا بقطع الأشجار العملاقة، وتشذيبها، وإعداد الدسر، وهي المسامير الكبيرة.. حدد نوح مكان الورشة، فحملت تلك الأشياء إليها.



بدأت المناشير والمطارق عملها، حتى بدأ شكل الألواح الخشبية يتجسد شيئًا فشيئًا.. كان الوثنيون يمرون بنوح وفريق عمله.. يتأملون جباههم اللامعة، وسواعدهم التي تتصبب عرقًا، فيرفعون حواجبهم وكأنهم يقولون: لقد جن نوح، بل قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، تحولت الورشة إلى مسرح كبير مفتوح في الهواء الطلق.. يتحلق حوله الوثنيون..

يتهامسون.. يفرغون ما بأنفسهم من حقد وبذاءة.. تردد الغابة قهقهات السخرية التي يطلقونها، بينما كان البيت الخشبي العملاق يرتفع شيئًا فشيئًا، وأصوات الاستهزاء ترتفع كلما ارتفع، وفي أحد الأيام توقف العمل. اكتمل البناء، وعيون الوثنيين المتلصصة تكاد تخترق جدرانه بنظراتها، ووجوههم المتطفلة تتلفت داخل غرفه، منذهلة من دقة الصنع وروعة التصميم، وفجأة بدأ أتباع نوح يقومون بعمل أثار جنون الوثنيين.



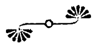
واهتزت الفلك

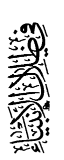
اكتمل بناء سفينة نوح ﷺ، وسط قهقهات الوثنيين، التي آلمت نوحًا ومن معه، فلم يطق صبرًا ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، ظل نوح ينتظر بقية الأوامر، وفجأة رأى العلامة.. تلبدت السماء بالغيوم حتى حجبت السماء، وبدأ الماء يفور من باطن الأرض.. اقتربت ساعة الصفر، فجمع نوح أتباعه وأخبرهم بأن موعد الرحلة المخيفة قد حان، فانطلقوا إلى من آمن من أهلهم وأصدقائهم على الفور وأخبروهم.. تداعت آلاف الخطوات نحو السفينة، بينما كان نوح وبعض أصحابه يجمعون من كل حيوان من الحيوانات التي حولهم زوجين اثنين، لتتناسل في تلك الأرض البكر.

ربما لأنها سترسو على أرض ليس فيها حيوانات مستأنسة، يؤكل لحمها ويشرب لبنها، وتحمل الإنسان في تنقلاته وأسفاره، فقد أوحى الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه، فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، سيقت البهائم المنتقاة، وأدخلت حظيرة أعدت لها داخل السفينة، وهنا أطلق نوح النداء الأخير للمسافرين: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

اكتملت أعداد المسافرين وسط اتساع أعين المشركين، الذين ابتلعوا ألسنتهم، وتلاشت سخريتهم، ولم يبق سوى زوجة نوح وابنه المعاند. بدا المشهد مخيفًا ومرعبًا، حين بدأ فوران الماء يزيد، والوجوم يكسو وجوه الوثنيين.. ارتفع الماء شيئًا فشيئًا.. ارتفع إلى مستويات غير مسبوقة.

وفجأة اهتزت الفلك.. ثارت حولها براكين الماء المخيفة.. دب الهلع في المكان، وتفرق المتفرجون الوثنيون.. فروا يبحثون عن ملاذات.. عن مرتفعات لا يصلها الماء.. يركضون هنا.. يهربون هناك.. ينطلقون هلعًا في كل اتجاه، والنوافير العملاقة تتفجر تحت أرجلهم.. تطوح ببعضهم كالبراكين.. لم تكن الأرض وحدها غاضبة.. السماء بدأت تقصف.. انشق الغمام الأسود شلالات عملاقة وهائلة.. اختفت الأرض.. الأرض ماء، والسماء ماء، والأمام ماء، والخلف ماء، وكأن الكون ماء.. طفت السفينة العملاقة، والوثنيون صراخ.. بعضهم يتسلق شجرة، والبعض يتشبث بخشبة، وآخرون يركضون نحو الجبال، واليائس يحاول ملامسة السفينة، التي كان يسخر منها بالأمس، لكن الطوفان حوت يبتلع كل شيء، وفجأة صاح نوح من الألم.





نوح يصيح من شدة الألم

مخرت السفينة عباب السيل.. تشق أمواجًا كالجبال، بعد أن نزل الوحي على نوح ﷺ يقول له: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، امتثل النبي الشكور، وامتلأت السفينة بحمد الركاب وتسبيحهم للجبار، وخلال اصطفاق الموج التفت نوح التفاتة خطفت قلبه.. فتى منعزل يصعد بصعوبة سفح جبل.. حدق به فإذا هو فلذة كبده، فاجتاحته عاطفة كالأمواج وصاح به: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، التفت الفتى ونظر لأبيه، وقد أخذته العزة بالإثم، و﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى

مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، فصاح نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، وقبل أن يجيب الابن المغرور ارتفع سد هائل بينهما.. جدار هائل من الأمواج ابتلع الابن ومضى بينما كان الربان على حافة السفينة يحدق.. ينتظر رد ابنه التعيس، لكن كل شيء قد اختفى.. اختفى الجبل والابن والكلمات، ولم يبق سوى الحسرات تمزق قلب الابن الحنون ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، موج هائل ابتلع الابن ومضى، فلم يعد نوح يرى ابنه.

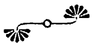
نزف قلب النبي الحنون، الذي استنفد كل طاقته في إقناع هذا الابن العاق، الذي هوى مع بقية الوثنيين للقاع، بينما كانت السفينة ترتفع.. تعلو بالمؤمنين ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾، وهم يتمسكون بمقاعدها.. بسواريها.. بحوافها، وقبل ذلك بوعد ربهم، وهي تمضي بهم، متجاوزة أرض العناد، والأصنام التي غرقت، وغرقت معها صناديدها.

ذابت الوثنية في مياه الطوفان.. لم يعد فوق الماء سوى التوحيد وأهل التوحيد، وبعد مدة من السفر لا يعلمها سوى الله نزل أمر الجبار سبحانه: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾.

بدأ السحاب المحارب يغادر سماء المعركة، وتوقفت براكين الماء، وبدأ غضب الأمواج يهدأ، وقلوب الركاب تهدأ، وبعد مدة علت الابتسامات، وابتهجت النفوس، وفاضت دموع السعادة أمام مشهد ساحر.. ماء وسماء وسحابات متفرقة، تتخللها أشعة الشمس، وتصبغ الأفق بألوان الطيف.. بدأ منسوب الماء ينخفض، والسفينة تنخفض وتنخفض، حتى اقتربت من مكان يسمى الجودي، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾، ورست عليه، فارتفعت أصوات الشكر، وفاضت العيون، امتنانًا لله سبحانه.

توقفت السفينة، لكن مشاعر الأبوة لم تتوقف، ولهب الفقد لم تطفئه مياه الطوفان، فقلب نوح لا يزال يحترق على ابنه، فالله أمره بإركاب أهله في

الفلك، وابنه من أقرب أهله، لذا توجه لربه حزينًا مناشدًا متسائلًا، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.



ماذا بعد نوح؟

احترق قلب النبي نوح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ابنه، وهو يتذكر وعد الله، لذا توجه لربه حزينًا مناشدًا متسائلًا، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، وإذ بالجبار سبحانه يصحح له معلومة خاطئة.. قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

أفاق نوح.. وفتح الوحي عينيه على مسؤولياته، فإرغام الناس على الإيمان ليست مهمة الأنبياء.. مهمتهم هي التعليم، ونشر الوعي، والقيادة. والقيادة لا تدار بالعواطف، ومتى ما حركتها العواطف أو الغرائز أوردتها المهالك، وبعد هذا العتاب الرباني، أدرك نوح أن الوثنيين ليسوا من أهله، وعلى ابنه تحمل ضريبة الحرية، التي أعطاها الله إياه، ودفع ثمن عناده.

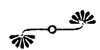


هدأ نوح، وأدرك المسافة الشاسعة بينه وبين ابنه، فاستغفر ربه، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، ثم أفاق على كلمات ربه، تبشره بالنصر المبين، وتفتح عينيه على المستقبل، حين أمره الله بالنزول، وقال: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

هبط نوح، ولامست قدماه أرض التوحيد الجديدة، وهو يقول: ﴿رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، ظل نوح كثير الشكر والامتنان لربه، حتى امتدحه الله سبحانه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾، نزل الرجال والنساء والأطفال

مـن السـفينة آمنيـن مؤمنيـن، يرددون عبـارات الشـكر للكريـم سـبحانه، وتوجه البعـض نحـو تلـك الحظيـرة، وأخرجـوا الحيوانات منها، ثـم أنزلوهـا بطريقتهم من السـفينة.. انتشـر المؤمنون كالحب على تلك الأرض البكر، واسـتقروا فيها، وعمروهـا بالتوحيد، ورعـوا فيها، وزرعـوا، وصنعوا، وكثروا وكثـرت بهائمهم، ومـرت الأعـوام تلو الأعـوام توحيدًا وعدلًا، ثم شـاخ نـوح ﷺ، وضعف ضعف المـوت وآن الرحيل.

كان أحد أبنائه المؤمنين عند رأسـه، فنظر إليـه ﷺ بعينه وقلبه، وأوصاه قائـلًا: **إنـي قاص عليـك الوصية، آمـرك باثنتين، وأنهـاك عن اثنتين: آمـرك بلا إله إلا الله، فـإن السـماوات السـبع والأرضيـن السـبع، لو وضعن في كفـة، ووضعت لا إلـه إلا الله فـي كفة لرجحـت بهن،** ثم أوصاه **بسـبحان الله وبحمـده،** قائلًا: **إنها صـلاة كل شـيء، وبها يرزق كل شـيء**[1]. ثم نهاه ﷺ عـن أمرين خطيرين ومهلكين.



عودة الشرك بعد نوح

أوصـى نـوح ابنه وهو علـى فراش الموت، فقـال: «آمرك باثنتيـن، وأنهاك عن اثنتيـن: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السـماوات السـبع والأرضين السـبع، لو وضعن فـي كفة ووضعت لا إلـه إلا الله في كفة لرجحت بهن، ولو أن السـماوات السـبع والأرضين السـبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شـيء، وبها يرزق كل شـيء، وأنهاك عن الشـرك والكبر»[2].

(١) سنده صحيح، رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٥٤٨)، وغيره من طرق عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن عمرو قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ وعطاء وزيد عالمان ثقتان، والصقعب ثقة أيضًا.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

لم يكـن نوح يقصـد بالكبر لبـس فاخر الثيـاب والأحذية، وسكن الفخم من المنـازل، واقتناء أفخر المراكب، ولا أن يحف بالمرء خدم أو حشـم أو أصحاب يجلسـون إليـه.. الكبـر الذي حـذر منه نوح هـو باختصار: (سـفه الحق، وغمص النـاس)[1]، أي رفض الحـق، واحتقار الناس.

بعـد تلـك الوصية البليغة بمـدة فارق نوح الحيـاة، بعد عمـره المديد بالنضال والدعـوة ونشـر الوعي، فبـكاه أهله وأبنـاؤه وأحفاده، وبكته أمتـه، وظلت تحمل رسـالته مـن بعـده، جيلًا بعـد جيـل.. رسـالة التوحيد والعـدل، وكثـر أحفادهم، حتـى أصبحـوا شـعوبًا وقبائل، ثم تفرقـوا في قـارات الأرض.. يـروون للأجيال قصـة التوحيـد والطوفـان، الـذي اجتـاح أرض الأجـداد.. تفرقـوا فتشـققت من لغتهـم التـي لا يعلمهـا إلا الله لهجـات، ثم تطـورت تلـك اللهجات إلـى لغات، ونشـأت مـن بين تلـك اللغـات اللغـة العربية، وقـد انتشـرت القبائـل الناطقة بها فـي منطقة على شـكل شـبه جزيرة، سـميت فيما بعد شـبه الجزيـرة العربية، ومن بيـن تلـك القبائـل قبيلة اسـتقرت فـي جنوبها.. قبيلـة يقـال لها (عاد).. سـكنت مناطـق تتوافـر فيها الواحات الشـاعرية والعيـون العذبة.. في مسـاحات تمتد من حضرموت إلـى عمان.

منطقـة جميلـة، يقال لها (الأحقاف)، والأحقاف كثبـان رملية، أقل من الجبال ارتفاعًا.. كثبان تتشـكل بطريقـة طولية ومائلة جميلة، ويمكـن اليوم رؤية خطوط تلـك الأحقـاف الرمليـة البديعة عن طريـق صور الأقمـار الصناعيـة، وكان أهلها قـد برعـوا في بعض الحرف، حتـى أصبحت بلادهم مضرب المثـل في الإتقان.. اشـتهروا بفـن البناء، كما برعـوا بصنع الخيـام الضخمـة، ذات العمـاد الطويلة.. يتفننـون في صنع تلـك الخيام وجاهة وترفًا.. إنهـا ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾، مـرت سـنوات طويلـة، وإرم علـى التوحيد، تزداد قـوة ونهضة،

(١) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق.

لكـنَّ وبـاءً خطيرًا بدأ ينتشـر فـي تلك البـلاد الجميلة، وبيـن تلك الأمـة القوية.. وبـاء متـى ما حـل بأمـة قوَّضهـا وجعلهـا آيلة للسـقوط، حتـى لو كانـت عملاقة ومهابـة بين الأمم.

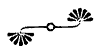
هود بن إرم

تغيـرت قبيلـة (إرم) الموحدة، التي حكمـت جنوب الجزيرة العربية.. تسـلل الغـرور إليها.. أصبحت مزهوة بقوتها.. خاصة عندما انتشـر بيـن قادتها وأفرادها شـيء يهدد وجودها.. الشـرك بالله، والظلم.. مصيبتان تعلنـان بداية النهاية للأمم القويـة. أصبحـت (إرم عاد) باطشـة ظالمـة، وتفاقـم الظلم والزهو حتـى تجاوز الحـد، وفـي أجواء الغـرور والوثنية تلـك ولد طفل سـماه أهله (هود).

نشـأ هـود على توحيـد الله، ليكبـر فيزيده الإسـلام وعيًا وإدراكًا بتفاهة عقول تعبـد خشـبًا، تنجرهـا بأيديهـا، أو حجـارة تقدهـا من جبـل.. ظل هود بعيـدًا عن أصنـام قومـه.. مناجيًا خالقه، وفـي أحد الأيام هبط عليـه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي، وأخبره أن الله سـبحانه قد اصطفاه رسـولًا، وأمره بالدعـوة للتوحيد والعدل، فالله هـو وحـده الخالق والـرازق ومالك الملـك، وأعظم ذنب عنده هو الشـرك.

امتثـل هـود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبدأ يدعـو قومه، فإذ بمأسـاة نوح تتكـرر.. رماه قومه بالسـفه، واتهمـوه بالكـذب، فقـال لهـم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، لكـن إرم ركبـوا رؤوسـهم.. رفضـوا أن ينصتـوا لنبـي نشـأ بينهم. حـاول عَلَيْهِ السَّلَامُ إنعـاش ذاكرتهم بمـا حـدث لأسـلافهم قـوم نـوح، وقـال: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

ظل يطوف بين سكان تلك العيون والواحات الساحرة والخيام المميزة.. يناشدهم التعقل، لكن صلفهم زاد، فلم يُسلم إلا قلة منهم، لكن هودًا لم ييأس.. ظل يحذرهم من الاغترار بما وصلوا إليه من قوة اقتصادية وعسكرية، ومظاهر عمرانية مبهرة، وأن عليهم شكر الله، فهو من أمدهم بأسباب القوة، وهو قادر على سلبها منهم في أي وقت، قائلًا: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وإذ بالحجة البليدة تتكرر: الأصنام تراثنا وميراثنا الثقافي، ولن نتخلى عنه مهما قلت، و﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾.. مرت سنوات لكن عناد إرم لم يمر، بل ازداد وتفاقم، حتى ارتكبوا شيئًا محا إرم، وطوَّح بخيامها تلك الأحقاف.



حين تمطر السماء عذابًا



أصيبت إرم بالغرور.. استخفوا بكل شيء، حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، تجاهلوا مناشدة ابنهم البار (هود ﷺ) بالتعقل.. تجاهلوا تذكيره بعذاب الله للمتجبرين، الذي أصاب قوم نوح، لكن صناديدهم كرروا تهور صناديد قوم نوح، حين طالبوه أن يأتيهم بالعذاب قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

حينها اشتد غضب هود لهذا الصلف والاستخفاف بقوة الجبار سبحانه، ومن أجل ماذا؟ من أجل أخشاب وصخور يستطيع حتى الأطفال صنعها، لذا دعا عليهم، وقال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾، لم يكترث أولئك المتغطرسون، بل كابروا وقالوا:

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وفجأة نزل الوحي يخبره أن الوقت قد حان، وأن على المؤمنين المغادرة.

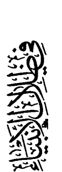
توجه هود لأتباعه فأمرهم بالاستعداد للرحيل المر، لينطلقوا بعدها نحو بيوتهم.. يجمعون أمتعتهم وما يحتاجونه، ثم شدوها على ظهور جمالهم، وودعت قلوبهم مراتع الصبا والذكريات، وعيونهم تفيض حزنًا على تلك العيون والواحات والذكريات، وما أقسا الرحيل عن الأوطان. أخذوا أزمَّة مطاياهم عبر الواحات.. بين الخيام العملاقة والنخيل الباسقة، ثم بدأت أقدامهم تنقش خطوات الوداع على الرمال.. غابت قافلتهم.. ترفعها أحقاف، وتخفضها أحقاف، فتنفس الطواغيت الصعداء، فلن ينغص الدعاة عليهم بعد اليوم عبادة أصنامهم ولا عبثهم، بل شعروا أن رحيلهم فأل حسن، فها هي السماء تحتفل معهم بسحاب، يحمل مطرًا، تتلمظ لقطراته الصحراء.. ابتهجوا، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

اقبل السحاب، ولما اقترب تغير.. أصبح داكنًا جدًّا.. أظلمت الأرض، وكأن الليل قد هبط قبل أوانه.. اقترب فإذا هو ليس بسحاب، بل إعصار يطاول السماء، يلتف حول نفسه.. يتلوى كقمع هائل، يكبر ويتضخم حتى سد الأفق.. خيم الليل في رابعة النهار، وتلاشى الحلم بالمطر.. بدأت حواف القمع تصل.. تملأ الأفواه والعيون والبيوت بالرمال.. فإذا هي ريح عقيم.. صرصر عاتية، تقتلع من في طريقها.. تقتلع الأعمدة الضخمة، وتجتث الخيام، تقل أطنانًا من الرمال، وكأنها تطوح بالأحقاف على إرم. كل شيء فوق الأرض يطير: الكثبان.. الجرائد.. الآلهة.. العسبان.. النخيل. وحتى الإنسان.

إرم يبتلعها الإعصار.. أجساد الأحياء وجثث الأموات، تتطاير طوال اليوم.. طوال الليل. دخل اليوم الثاني في الظلام، وكأن الإعصار قد طوح بالشمس.. أقبل اليوم الثالث والرابع والخامس وكذلك السابع بلا شمس بلا طعام أو شراب، من لم يمت بالريح مات جوعًا أو عطشًا أو تحت الرمال.. لا الليل ليل ولا النهار نهار.. رعب لا يتوقف، ولا يستثني أحدًا، وفي اليوم الثامن بدأت الريح تخف شيئًا فشيئًا حتى توقفت، وكأنها لا تريد التوقف غضبًا للجبار سبحانه.

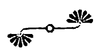
هبطت حبات الرمال الغاضبة على الأرض، وانقشع الظلام، وظهرت الشمس لأول مرة منذ أسبوع، فإذا الأرض غير الأرض.. لا عيون ولا آبار ولا واحات ولا نخيل ولا خيام ولا أصنام.. انطمرت تحت ملايين الأطنان من الرمال. أشرقت الشمس فإذا مدينة إرم بقايا مساكن.. امحت أمة أنساها الغرور قوة خالقها.. أصبحت كثيب رمل وقصصًا تروى، بينما أصبح هود وأصحابه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على أرض أخرى آمنة برحمة الله.. يعمرونها ويعيدون الاستفادة من خبرتهم التقنية في التشييد والإبداع بالتوحيد والعدل، لتمضي السنون، وتمضي سنة الله، فيكبر هود ويشيخ، ثم يموت ويموت صحابته، فتتلوهم أجيال من بعدهم أجيال وقبائل على التوحيد.. انتشرت في الأرض، وقد رحل بعضهم ليسكنوا بلادًا في جهة الشمال.. راقت لهم تضاريسها، فتفننوا في التعامل معها، حتى حولوها إلى أغرب بلاد الأرض.. يدخلها المسافر فيحتار: أبيوت هي على شكل جبال، أم جبال على شكل بيوت، أم معارض فنية في الهواء الطلق؟

تلك كانت المدائن أو ما يسمى بـ(الحجر): جمال ورمال ونخيل وبساتين ومنحوتات أبدعتها. قبيلة عربية أخرى تدعى ثمود توحد الله، وتبرع في فن



النحـت.. تتفنـن في تحويـل الجبل إلى قصر.. إلى بيت إلى نسـر إلى سـبع.. يمر بها المسـافرون، فتدهشـهم وتبهرهم، حتى تسـلل العجب إلى نفوس أهلها، بعد أن امتـلأت رؤوسـهم بالمديح، فظنـوا أن لا أحد مثلهم.

زهو أنسـاهم فضـل خالقهم عليهم. هنـا بدأ الانحراف، فبدلًا من أن يشـكروا الله، ويسـتمروا فـي الإبـداع.. انصرفـوا للابتـداع فـي الديـن.. لم يعـد النحـت فنًّـا فقـط.. تعلقـت الأجيـال الجديـدة منهـم بالمنحوتات، فكسـوها بالأسـاطير والخرافـات، حتـى غـدت أصنامًـا وآلهة يعبدونهـا، لتقربهـم إلى الله، ثـم تعلقوا بهـا ونسـوا خالقهم سـبحانه، وفي وسـط هـذه الثقافة بالغـة التخلـف، ولد طفل اسـمه (صالح).



الآية المخيفة

كبـر صالـح علـى التوحيـد.. مـدركًا أن هـذه المنحوتـات مهما بلـغ جمالها، تظـل صمـاء، لا تنفـع ولا تضـر، فاصطفـاه الله، وأنزل عليـه الوحـي؛ ليعيد قومه للتوحيـد. حـاول ﷺ تفعيـل عقولهـم، قائـلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾.

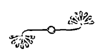
كان يذكرهـم بنعـم خالقهم سـبحانه، والناس تحب من يحسـن إليها بالقليل، فكيـف تتنكـر لخالقهـا ومانحهـا النعم، التـي لا تقدر بثمن. اسـتبد الغـرور بقوم صالـح، فلـم يؤمن معه إلا قلـة، أما الأكثريـة فأعمت العـادات والتقاليـد عقولها وقلوبهـا.. تكـرر الأقوال السـائدة والنمطية، التي كررها قوم نـوح وهود، وتقول: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، لكـن صالحًـا بيـن لهـم أن دعوتـه ليسـت اختراعًـا منـه قائـلًا: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ

﴿ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾، ظل يدعو وهم يكذبون، حتى أشرق ذلك اليوم المخيف.

يوم صمت فيه الجميع.. الشوارع والمارة.. اتسعت الأعين، وقطع المتحدثون أحاديثهم، وترك النحاتون تماثيلهم، والباعة بضائعهم ودكاكينهم.. تحولوا إلى تماثيل.. شلت المدائن.. شل كل شيء فيها أمام مشهد أخاذ.. نبي الله صالح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخل المدينة، يتهادى في شوارعها، ومعه مخلوق مخيف، وكأنه يقتاد ديناصورًا ضخمًا.

ناقة عملاقة لا مثيل لضخامتها وطول رقبتها، ولا لارتفاع سنامها. من أين أحضرها؟ هل سيمزقهم بها، أم ستطحنهم بأخفافها، التي تهز الأرض.. نظرات السكان خائفة زائغة، لكن صالحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طمأنهم، وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ثم ذكرهم بالنعم التي أغدقها خالقهم سبحانه عليهم، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

سكنت مخاوفهم من الناقة، لكنهم لم يستفيدوا من ظهورها، فظهورها آية على صدق نبوة صالح، لكن الجشع والوسوسة والمناكفة بدأت تقلقهم تسألهم: ما الذي سيكفي هذا المخلوق العملاق من طعام وشراب؟ وقبل أن يفصحوا عما بأنفسهم، بين لهم صالح طريقة التعامل مع الناقة.. طريقة أثارت تسعة مجرمين منهم.



قدم النبي صالح ﷺ لقومه الناقة آية من عند الله.. كانت ناقة وحيدة، وليس صحيحًا أن لها ولدًا (فصيلًا)، لكن منظرها الهائل جعل المشاعر حولها، تتحول إلى حكايات وقصص، تتزين بها مجالسهم، أما صالح ﷺ فأرشد قومه أهل الحجر إلى طريقة التعاطي معها، وهي أن يتناوبوا على ورود العين، بحيث يشربون يومًا، ثم يتركوا لها العين، لتشرب هي في اليوم الذي بعده.

ثم كرر ﷺ تحذيره من المساس بها، قائلًا: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فهي آية على صدق نبوته، وهم من طلب آية تدل على صدق نبوته، لكن كل من يختلف معك قد يتفق يومًا، إلا المعاند والحاقد، وهؤلاء المعاندون شعروا أنهم تورطوا بهذه الآية، ووجودها بينهم يحرج بقاءهم على الوثنية.. وجودها يثبت صحة نبوة صالح، وهو أمر يثير جنونهم، لا سيما وهم لا يعلمون مدة بقائها، فكلما طالت مدة بقائها طال إحراجهم، لذا انقسم أهل الحجر حول الناقة، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

قسم مع الحق مع التوحيد والعدل.

وقسم آخر مع الفوضى والوثنية وتقديس العادات والتقاليد.

أما الناقة فظلت تجوب الحجر، وتدهش المدائن.. يتمايل سنامها الضخم في الطرقات، وهي تدب دون قائد في اليوم المحدد لشربها، ثم تتوقف أمام العين، فتخفض رأسها، وتحني رقبتها العملاقة، لتعب من الماء حتى ترتوي، ثم يحلبونها بكميات هائلة، تزيد يقين المؤمنين، وشكر الشاكرين، وتثير حقد الوثنيين، وتُشعرهم بالهزيمة فيزدادون صلفًا.

مـرت الأيام والحقد يتورم، كسرطان في نفوس الوثنيين، وكان من أشرسـهم ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، تسـعة أشـقياء يعرفـون الحق، ويصـرون علـى حربـه، فالحقـد ينغـص عليهـم طعامهـم وشـرابهم، ويقـض مضاجعهـم.. لهم وشوشـة فـي الطرقات، كلمـا رأوا صالحًا وما جاء بـه.. بدؤوا يعقـدون الاجتماعـات علهـم يصلون إلى طريقـة، يتخلصون بها منـه، فلن يطيب لهـم عيش، إلا بالتخلـص منه، ولـن يطيقـوا الحجـر، وهو يمشـي على ثـراه.. طفـح كيلهم، فعقـدوا اجتماعًا أخيـرًا.. تداولوا الأفكار الشـريرة، وبعـد التداول والتشـاور انتهـى الاجتماع، وتفرق الأشـرار التسـعة بعـد أن اتفقوا علـى أمرين: أحدهما أسـوأ مـن الآخر.

أمران أقسموا على عدم التراجع عنهما مهما كانت الأسباب.



من هو قدار بن سالف؟



عقـد الوثنيون الأشـرار التسـعة اجتماعًا حاسـمًا، اتخذوا فيـه قرارين: الأول: القضـاء علـى صالـح ﷺ وأسـرته، ثم القسـم علـى إنـكار أن لهم يـدًا في المجـزرة، وقـد حكـى القـرآن ذلك فـي قـول الله تعالـى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

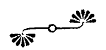
أمـا الأمـر الآخر، فهو القضـاء على آية صالـح، ودليل صدقه، وهـي (الناقة)، لأن بقاءهـا وترددها بينهم يعنـي المزيد من الإحراج، وقد تطـوع للقيام بالجريمة الثانيـة شـقي يميـل لونـه للحمـرة، اسـمه (قـدار بـن سـالف). انفـض الاجتماع بحمـاس شـديد، بينما كان الشـر يفرك يديـه فرحًا.

مـرت الأيـام وجاء موعـد الغدر بصالِـح وعائلته، لكـن العملية أجلـت، ربما لصعوبـة المهمـة وكثرة المسـتهدفين، لذا تـم الانتقـال للخطة الثانيـة، وهي عقر الناقـة، لأنها هـدف واحد، وهدف سـهل.

حـدد الأشـقياء موعـد التنفيذ، وتصـدى الأحيمر (قـدار بن سـالف) للمهمة، وفي اليوم المحدد تسـلل المجرمون الثمانية: كالحيـات لرصد الطرقات المؤدية إلـى مـكان الناقة.. يتلفتـون، يرصدون، ويتهامسـون، حتى خلت لهـم الطرقات، وصفـت الأجواء، وأصبحت الناقـة لوحدها، وإذ بقدار يتعاطى رمحه أو سـهمه، ويقبـل كالشـيطان نحوهـا.. وضـع سـهمه القاتل فـي كبد القـوس، ثم شـد الوتر إلـى منتهـاه، ثـم أطلق السـهم قذيفة، شـق أزيزهـا الهـواء، حتـى اخترقت جوف الناقة.

دوى فـي الحجـر صـوت رغاء هائـل.. رغـاء رددت الجبـال صداه، فانقشـع الجنـاة من الطرقات، وفروا مـن مكان الجريمة كالفئران، لكنهـم تركوا بصماتهم عنـد عـلام الغيـوب. انفجـر جـرح الناقـة العملاقـة شـلالًا مـن الدمـاء، وبدأت تترنـح، ورقبتهـا تتمايـل، ورغاؤهـا الحزين يذيـب القلوب.

فتحـت الأبـواب، وخـرج أهـل الحجـر مـن البيـوت فزعيـن.. نزفـت الناقـة ونزفـت، ثـم هـوى جسـدها الضخم بـالأرض، وارتطـم ببحيـرة الدمـاء، فتطاير الـدم حولهـا، وكأنـه يسـتنجد.. ظلـت رقبتهـا تتلـوى، تتلـون بالـدم مـن الألم، ورغاؤها يخفت شـيئًا فشـيئًا حتى اختفى، وسـكنت الناقة سـكون الموت، وكأن قلـب المدائـن قد توقـف.. صعـق المارة ببركـة الـدم، وركض البعـض يصيح.. يخبـر صالحًـا بما جـرى.. صُـدم ﷺ بالخبـر، فأقبـل مفجوعًا، ثـم توقف أمـام السـاحل الأحمر.. يتأمل الناقـة الغارقة، يتأمـل آية الله بعينيـن غارقتين، وإذ بـه يأمـر أتباعه بأمـر مخيف.



تمتعوا ثلاثة أيام فقط

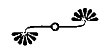
أقبل النبي صالح ﷺ نحو الناقة مفجوعًا، ولما توقف أمام بحيرة الدم، تأمل آية الله بعينين تفيضان.. أوجعه صلف الوثنية، وغطرسة طواغيتها.. انتهت المدائن بالنسبة له، ولم يعد في الحجر الحبيبة متسع، لذا توجه نحو عيون أصحابه الدامعة حزنًا، وطلب منهم التأهب للرحيل، فانطلقوا على الفور نحو بيوتهم وبساتينهم، يجمعون أمتعتهم وطعامًا يبلغهم في سفرهم، ثم التفت صالح بحزن إلى قومه المتكبرين، الذين أمضى معهم عشرات السنوات من التنوير والدعوة للتوحيد.

حدق بوجوههم الصفيقة المبتهجة بقتل حيوان، كل ذنبه أنه دليل على صدق التوحيد، وصدق نبيهم، وأنه يمدهم بالغذاء، لكن صالحًا ليس هو من سيغادر رغم رحيله.. هم من سيغادر رغم بقائهم. تأمل عيونهم، التي يتطاير منها الشرر، وتصفح تقاسيمهم المتشفية، ثم نطق بأحرف كالموت: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٍ﴾.

سارت قافلة المؤمنين خلف نبيهم، الذي اعتصر قلبه حزنًا، وهو يودع دياره.. ساروا بين الجبال المنحوتة، وقلوبهم تعصف بها لوعة فراقها.. تركوا المدائن للوثنيين، الذين اختلطت مشاعرهم: منهم الفرح بمغادرة المؤمنين، حتى تخلو لهم أجواء الفساد والوثنية، وهناك الإمعات التي تقاد.. لا تعرف معروفًا، ولاتنكر منكرًا.. إمعات تتساءل: لماذا ثلاثة أيام. ها قد غابت شمس اليوم الأول، ثم طلعت شمس اليوم الثاني ثم غابت، ثم طلعت شمس اليوم الثالث وارتفعت، فارتفعت معها مشاعر الترقب والقلق، ثم غابت، وفي صبيحة اليوم الرابع صحا الوثنيون من نومهم المضطرب.

وفجأة فتحوا عيونهم لكنهم لم يغلقوها.. دوت صيحة هائلة في سماء المدائن.. صيحة صدعت الجبال، وارتجفت منها الأرض، وخلعت القلوب، وانتزعت الأرواح ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أصبحت ثمود متحفًا مهجورًا للتماثيل والجثث.. اكتسحتها غزوة بلا غزاة، فإذا هم قتلى بلا سيوف بلا رماح، فالدم المسفوح كان دم الناقة فقط.. جثث هنا وجثث هناك.. جثث في الغرف والممرات والأبواب وعلى الأسطح وفي البساتين والطرقات والساحات، وغربان هنا ونسور هناك.. تنقر الجماجم والعيون، وتبقر البطون، وتلتهم الأحشاء.. لم تعد المدائن جميلة.. لم يعد أحد يريد النزول بها، ولا الشرب من مائها.. كل الذي يفعله العابرون هو تغطية الأنوف، فرائحة المدائن تزكم الأنوف عفنًا.



إبراهيم في العراق

لم تعد مدائن صالح جميلة.. لم تعد نظيفة.. تناثرت على أرضها الجثث.. تنهشها الحيوانات الرامة والنابشة، وازدحمت السماء بالغربان والنسور.. كان ساكنوها يتطيرون، ويتشاءمون بصالح وصحابته المؤمنين، ويقولون له: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، فحولتهم الغطرسة إلى مدينة مشؤومة.

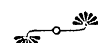
المدائن الفاتنة أصبحت مدينة أشباح، تجوبها الغربان والرعب، أما صالح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلم بما جرى، وأن قومه ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، صاعقة دمدمت عليهم حتى أفنتهم، فخاطبهم من بعيد بعد أن تولى ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، حل المؤمنون في أرض جديدة، فعمروها بالتوحيد والإبداع

والعدل، ومرت القرون تلو القرون، والحجر مهجورة تبكي التوحيد.. تبكي صالحًا وأصحابه الطيبين، ويبث صمتها شوقًا للأحبة لا يطاق.. عاد التوحيد للانتشار، لكن الشيطان ظل يوسوس للبشر.. يغريهم بالشرك.. بعبادة الحجر والشجر وحتى البقر.. بعبادة أي شيء.

المهم عند الشيطان أن لا يعبدوا الله وحده، ومن العبادات التي انتشرت.. عبادة الكواكب خاصة في العراق والشام، وكان في العراق رجل وثني اسمه آزر، وقد رزق بعدة أبناء، من بينهم طفل سماه إبراهيم.. نشأ الطفل في تلك البيئة، لكن عقله كان أكبر من أن يكون وعاء للتقاليد البالية.. تزوج من فتاة عاقلة، بارعة الجمال تدعى سارة.. كان كثير التأمل لهذا الكون وكواكبه، فأدرك أن له خالقًا ليس كمثله شيء، لذا فهو وحده سبحانه يستحق العبادة، أما تلك الأصنام فليست سوى حجارة، لا تصلح حتى للزينة، فاصطفاه الله لرسالته، وأنزل عليه الوحي، وأمره بإيقاظ قومه.

بدأ إبراهيم ﷺ بالأقربين.. بدأ بأبويه. خاطب والده بأسلوب عذب ولطيف، فقد كان إبراهيم متعلقًا بأبيه.. يحبه ويجله، ويتمزق قلبه وهو يراه على الوثنية لذا خاطبه، قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾، العقل يقول ذلك، والوحي يؤكده، وأن ما سوى التوحيد هراء وتخاريف، فلا الأصنام تنطق أو تتحرك أو تمنح أو تمنع.. كان إبراهيم متعلقًا بأبيه.. يحبه ويجله، ويتمزق قلبه وهو يراه على الوثنية. قال إبراهيم ﷺ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾، لكن يبدو أن قلب الوالد قد قسا، كتلك الحجارة التي يعبدها.. انفجر في وجه ابنه البار، وهدده برجمه بالحجارة إن لم يكف عن دعوته للتوحيد.





لـم يتراجـع النبـي إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عـن دعوة والـده، وكيف يتراجـع ورؤية والـده عاكفًـا علـى الأصنـام كالخنجـر فـي قلبـه، وهـل هناك أقسـى علـى قلب ولـد بـار من رؤيـة والد مشـرك يعبد غير خالقه سـبحانه، لـذا توجه إلـى أبيه آزر، وأخبـره عـن الشـيطان، الذي لـن يقنع مـن ذريـة آدم إلا بالركوب معـه للجحيم، وقـال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾.

انتفـض آزر.. فقـد صوابه.. أخذتـه العزة بالإثم: كيف لطفـل الأمس أن يوجه أبـاه الذي وخطه الشـيب.. غلا تعصبه للموروث على العقل، وقـدم التقليد على التفكيـر، فطلب مـن ابنه إبراهيم عدم التحـدث معه في هذا الموضـوع، بل هدده قائلًا: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾، شعر إبراهيـم بحزن شـديد على أحب الناس إليه.. والده الـذي يريده أن يكون من أهل التوحيـد والجنـة.. نظـر إليه بعينيـن تفيضان رحمـة، وخاطبه بكلمـات تقطر برًّا، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾.

خـرج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند والـده مجروحًا، لكن النبوة أمانة، والتوحيد رسـالة، ولا بـد أن يوصلهـا لكل فـرد من قومه، وخسـارته لوالـده لا تعني إهمـال غيره.. توجه لقومه في أنديتهم وأسـواقهم وشـوارعهم وبسـاتينهم، وحتـى في بيوتهم.. لم يتـرك وسـيلة ناجعـة إلا اسـتخدمها، ولا حجـة إلا أفحمهـم بهـا.. يخاطـب عقولهـم: كيـف يقارنـون خالقهـم العظيم بجـذع نخـر أو صخرة صمـاء، ﴿قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، نبههـم إلـى أنهم عائـدون إلى الله، فبم سـيجيبونه غـدًا؟ وقال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

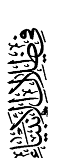
انتفض الوثنيون انتفاضة والده آزر.. طلبوا أن يكف، ففي تراثهم الوثني ما يكفي، قائلين: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ثم أخبرهم أنه حامل رسالة، ولا طموح له بمنصب أو جاه أو مال، حتى يتهموه.

ذكرهم بشيء مفزع.. ذكرهم بمصير الأمم الطاغية قبلهم، قائلًا: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، كانت غربة إبراهيم مرة.. لم يؤمن به سوى زوجته وابن أخيه (لوط)، ولا يسليه سوى ذكر ربه، حتى إنه طلب منه سبحانه يومًا طلبًا غريبًا.



إبراهيم والطيور الأربعة

كان الرسول إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيش بين قومه في غربة، لا يذهبها سوى مناجاة ربه وحبيبه سبحانه، حتى إنه طلب من ربه طلبًا غريبًا، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فقال له الجبار: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ فقال: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، فأوحى إليه: أن يأخذ أربعة طيور، ثم يقطعها كيفما شاء، وقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.



أخذ إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطيور الأربعة، ثم ذبحها وقطعها قطعًا، ثم خرج حتى أصبح بين مجموعة من الجبال. انطلق نحو جبل، فصعده ووضع قطعة على قمته أو سفحه، ثم اتجه نحو ذاك الجبل، وكرر فعله.

ظل إبراهيم يصعد هذا الجبل، وينحدر من ذاك، حتى انتهت القطع، ثم مشى حتى أصبح في نقطة تحيط بها كل تلك الجبال، ثم توقف، وقلبه يخفق بانتظار معجزة خالق السماء والأرض، وما بينهما من مجرات ومخلوقات..

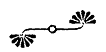
الجبار الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، ثم رفع ﷺ عقيرته، وصاح بالأوصال.. هتف بمزع اللحم يناديها.

وفجأة اقشعر بدنه، وزاد خفقان قلبه، وسبح ربه، وهو يشاهدها تلتئم، ترفرف في السماء، ثم تقبل عليه؛ لتستقر بين يديه اللتين قطعتها قبل قليل.. آية شحنته يقينًا ومعنويات، لا حدود لها، فتناسى عناد قومه، وعاد لدعوته بطاقة لا حدود لها.. ظل يدعو باللطف بالحسنى، فلم يجد إجابة، لا من بقية عائلته، ولا من قومه، بل تفاقم عنادهم، وتعاظم تعصبهم، فالتقاليد والموروثات أمست كالجرح المتعفن، وتطهيرها سيثير ألمًا لا يطاق، ويحتاج إلى عزم، وإبراهيم من أولي العزم، لذا قرر ﷺ القيام بصدمة، قد توقظهم من هذه البلادة والغباء، فاختار للقيام بذلك وقتًا ملائمًا، وهو ليلة احتفالهم بمناسبة وثنية، يقدمون فيها طقوسًا أو طعامًا وقربات لأصنامهم.

نظر إبراهيم للسماء، وحدق بالنجوم.. إنه الموعد، وها هم في طريقهم لاحتفالاتهم وبعض قومه ينادونه للمشاركة. اعتذر إبراهيم، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فانصرفوا وتركوه، وفي أثناء انصرافهم همس ﷺ قائلًا: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾.

سمعه بعضهم، لكنهم لم يأبهوا، بل توجهوا لمعبدهم، وقاموا بطقوسهم، وقدموا قرابينهم لأخشابهم وحجارتهم، التي يسمونها آلهة، بينما كان ﷺ يراقب من بعيد.

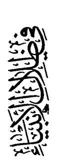
انتهت الطقوس، وبدأ الكهنة والزوار بالمغادرة، حتى خلا المعبد، وساد فيه الصمت، ولما خلت الطرقات تسلل إبراهيم نحو المعبد يحمل فأسًا.



القبض على إبراهيم

دخـل النبـي إبراهيـم ﷺ المعبد بعـد انصـراف الوثنيين.. يحمـل بيده اليمنى فأسًـا، أو أداة معدنيـة، تسـتخدم لتحطيـم الصخور أو الاحتطـاب. وقف الخليـل أمـام مدخـل المعبـد.. جـال بصره بداخلـه، فلم يجـد فيه حركة، سـوى انتفـاض ألسـنة لهـب المشـاعل.. تهادى بيـن الأصنـام البليدة، ثم وضـع الفأس علـى الأرض، ثم مـد يده والتقط طبق طعـام تركه قومه بعـد احتفالهم، ثم تهادى بـه حتـى وقف أمـام أحد الأصنـام، ومده نحـو فمه.

حـدق بوجهـه، الـذي تلونه أضـواء المشـاعل، ثـم خاطبه وخاطـب غيره من الأصنام، قائلًا: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟، لم تتحرك تلك الشفاه الصخرية، وساد الصمت، فصـاح في وجوههـا: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟، ولـو رآه أحد عابديها لقـال: لقد جن إبراهيم، كيف يخاطب حجارة؟ لكن الوثني لن يسـأل نفسه: كيف أعبدها؟ طاف إبراهيـم بينها، فلم يجد إجابـة، فوضع الطبق على الأرض، فاليوم ليس يوم طعام، ثـم انحنى نحو فأسـه، والتقطه بيمينه، ثم عـاد لإكمال حواره.



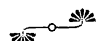
وإذ بالفـأس ترتفع فـي الهواء، ثم تهوي كالقذيفة علـى هاماتها البليدة، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، ضربـة بعد أخـرى.. تتوالى الضربات، والجـدران تردد صدى الضـرب، وارتطـام الحطام بين بقايا الطعـام، والأصنام تترنـح.. تتشـقق.. تتحول إلـى شـظايا ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ثـم وقف أمام أكبـر الأصنـام فلـم يحطمـه.. تركـه شـاهد عيان، ثـم ألقى الفـأس عنـده، وغادر المعبـد بعـد أن حول الآلهـة إلى نفايـات.. منتظرًا نتيجـة الصدمة، التي سـتدوي غدًا؟

ارتفعت الشـمس، واسـتيقظ كهنة الدجل، ثم توجهوا نحـو معبدهم، ومصدر رزقهـم.. دخلـوا ببطء، لكنهم خرجوا بسـرعة، للشـوارع، للميادين، يصرخون، يولولـون. لم يسـتغيثوا بآلهتهم. كانوا يسـتغيثون لآلهتهم.. لشـظايا آلهتهم.

علا الصراخ واللطم والعويل في الطرقات، ففتحت الأبواب والنوافذ، وأطلت الرؤوس تتلفت.. تبحث عن مصدر الصوت.. انطلقت عشرات الأسئلة، فانتشر خبر التحطيم، فخرج الوثنيون مذهولين.. أطلقوا سيقانهم نحو المعبد، ولما دخلوا اتسعت أعينهم، وتعالى الصياح: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، امتلأ المعبد بالضجيج.

وفجأة صاح الذين سمعوا إبراهيم، وهو يهدد الأصنام، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾، أجل.. إبراهيم، ومن غيره؟

صدر أمر الكهنة بالقبض عليه، و﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾.



اتركوا إبراهيم فالجاني أمامكم

انطلقت مجموعة من الوثنيين تبحث عن رسول الله إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يجدوا صعوبة في العثور عليه، فتم اقتياده مخفورًا نحو مكان النفايات، وهو في غاية السكينة، كان يتهادى بهدوء، عبر سرادق من الوجوه المكفهرة.. تكاد تحرقه بنظراتها وشتائمها، حتى أوقفوه أمام كبار الكهنة المتاجرين بعقول البسطاء، ليبدؤوا استجوابه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟.

تأملهم، فقرر كشف حجم عقولهم.. رفع يده، ومدها نحو أكبر الأصنام، فالفأس تحته، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

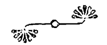
اضطرب المعبد، ونظر الوثنيون إلى بعضهم، وتعالى الضجيج واللغط، بل هناك من اعترف، وأيد إبراهيم قائلًا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، نجح إبراهيم في تفعيل تلك العقول الخشبية، فتساءلت: كيف نلومه، والفأس بين يدي صنمنا الأكبر؟ ألا يمكن أن يكون هو الفاعل؟ أو ليس هو إلهنا؟

لكن، ألسنا نحن من قطعه من الغابة، أو قده من الصخر؟

شعروا بالخجل.. بالغباء، لأنهم لا يستطيعون طرح سؤال قصير ومباشر على الصنم، مع أنهم يدعونه، ويستغيثون به ليل نهار، ويقدمون له القرابين؟ سؤال من عشرة أحرف (أأنت فعلتها؟) لن يكلفهم طرحه شيئًا، لكنهم سينكشفون إن هم فعلوا.. يا لها من ورطة! وضعهم فيها الخليل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فكروا وفكروا، فقرروا الفرار إلى الأمام.. إلى العناد: أجل إنهم سيعبدونها، حتى وإن كانت بكماء صماء. هنا وصف الله انتكاسهم وصفًا مذهلًا، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ نكسوا، وكأن عقولهم تحولت إلى أحذية ليست للتفكير، بل للتبرير.. تبرير العادات، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

تأفف إبراهيم من تفاهة العقول، وأدرك أن قومه أعداء للتفكير، قائلًا: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثم أعلن المفاصلة ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾، ثم كشف لهم الفارق بين الانحطاط والسمو.. وبين أخشابهم وبين خالق الكون سبحانه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، كلمات أصابتهم بالجنون، فتشاوروا، وقرروا القيام بعمل أسوأ من الجنون.



محاكمة بلا قضاة

زلزلت كلمات إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعبد والأصنام والوثنيين.. كلمات تفيض تمجيدًا وعرفانًا للخالق سبحانه.. كلمات تقول: لو أنكم عرفتم الله



حقًّا لما عبدتم حجرًا أو خشبة من خلقه. عجزوا عن الرد، فلجؤوا لحيلة الفاشل.. قرروا محو ملف إبراهيم تمامًا، فهو إن استمر في طرح أدلته العقلية، ووحي ربه المقنع، فسيكسب أتباعًا، ويسقط دينهم المزيف، لذا حبسوه، ريثما يقررون طريقة للتخلص منه، ثم عقدوا اجتماعًا تداولوا فيه كيفية ذلك، وبعد المداولات قرروا ما يلي:

أولًا: حرق إبراهيم حيًّا.

ثانيًا: تكون عملية الحرق مؤلمة لإبراهيم ورادعة لغيره، وذلك ببناء برج مرتفع، يوضع إبراهيم على قمته، ثم يرمى وسط نار عظيمة تحت البرج، ليشهد الجميع مصيره. قالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾، تم إصدار الأمر بالبناء، فانطلقت سواعد العمال والبنائين تقد الصخر وتبني، وكلما وضعوا حجرًا دنا الموت من إبراهيم، وبعد أيام ارتفع البناء ارتفاعًا، يمكن الجماهير من رؤيته، وهو يهوي في النار.

تم تحديد يوم الإعدام، فانطلقت مجموعة من الحطابين، تحمل الفؤوس تجتث الأشجار اليابسة، ثم تحملها نحو البرج، حتى توافرت أمام مقدمته أكوام هائلة من الحطب. مرت الأيام وإبراهيم محتسب في زنزانته، ثم طلعت شمس يوم الإعدام على المدينة.

فتحت أبواب المنازل، فلم تنطلق الخطوات نحو الدكاكين والأسواق، ولا نحو المزارع.. خرج الرجال والنساء نحو البرج، مكان الإعدام. منهم من يمشي، ومنهم من يركض.. تسكنهم مشاعر مختلفة.. منهم الفرح كالكهنة وبقية الوثنيين، ومنهم من تختلط داخله مشاعر الحزن بالغضب كوالد إبراهيم، ومنهم ينفطر قلبه مثل والدته وسارة ولوط، اللذين أمضوا ليلة حزينة، وفارقهم فيها النوم، فلن يروا حبيب القلب بعد اليوم.. احتشدت المدينة خلف أكوام

الحطـب الهائلـة، وقـام بينهم وبيـن الحطب جـلادون يحملون مشـاعل اللهب، وسـط صيحات الرعاع وحماسـهم.

حضـر كهنـة المعبـد، وقـادة المدينـة، وكبـار القـوم، ومـن بينهـم آزر والـد إبراهيـم، يسـحب خطـاه.. مـد الجـلادون المشـاعل الملتهبـة، نحـو أكـداس الحطـب، فامتـدت ألسـنتها حريقًـا هائـلًا، واللهب يعلـو، يلفح وجوه الحشـود، ويتطايـر منـه الشـرر، فيتراجعـون اتقـاء شـره.

وفجـأة دبـت حركة لـوت أعنـاق المتفرجيـن، وأدارت رؤوسـهم.. خليل الله ﷺ يسـوقه الزبانيـة نحو البرج، وهو يرسـف في قيوده، ثم بـدأ يصعد نحو القمـة، وهو في قمـة الهدوء.



دعوة مظلوم على منصة الإعدام

جلبـة وأصـوات وحركة، لوت أعنـاق المتفرجيـن، أمام البرج وحـول أمواج الجحيـم.. وأدارت رؤوسـهم.. حدقـوا، فـإذ بخليـل الله ﷺ يحيـط بـه الجـلادون.. يسـوقونه نحـو منصـة الإعـدام. أوقفـوه وراء البـرج، الـذي تتأجج النيـران أمامـه، ثم بـدؤوا يصعدون بـه، وإذ بمشـاعره ترفرف قبلهم نحو السـماء نحـو الله.. غيـر آبـه بمـن حوله مـن همـج، يهتفـون للأصنـام والظلـم، ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾.

كان إبراهيـم ﷺ يلهـج بذكـر الجبار.. يلوذ بـه ويحتمي.. يسـتغيث به سـبحانه، فاختفت أمامه قوى الأرض، فلم يعد يرى سـوى قوة خالق السـماوات والأرض، وفجـأة أطبقـت عليه قبضات الجلاوزة.. رفعتـه في الهواء، ثم طوحت بـه نحو ألسـنة اللهب، وهو يـردد الكلمة المـلاذ.. الكلمة المعجـزة، حين تخرج

من القلب: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فإذ بالكلمة الخالقة تقول للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

تعالى الضجيج وإبراهيم يطير في الهواء، ثم ينغمس بين أمواج النار، فيتطاير شررها وجمرها، ويزداد حسيسها. اختفى إبراهيم تمامًا خلف أسوار اللهب، وسط حماس الغوغاء، لكن حماسهم خفت شيئًا فشيئًا حتى اختفى. كانوا ينتظرون صراخه، أو استغاثته، أو حتى أنينه، لكنهم لم يسمعوا، ولم يروا له تخبطًا أو تلبطًا، ولم يشموا رائحة شواء.. انحبست أنفاسهم، وشلت ألسنتهم، لا يدرون ما الذي يجري داخل قلعة النار، ولا يستطيعون الاقتراب منها للتحقق.

وفجأة اتسعت أعينهم، وفغروا أفواههم، وتحنطوا أمام مشهد مخيف. ما هذا؟

إبراهيم يتهادى فوق الجمر وبين الشرر.. يخرج سليمًا بين أقواس اللهب، التي تقله وتظله، وكأنه يتنزه بين أغصان حديقة باردة الأنسام. لا حروق، ولا جروح، ولا حتى شعور بالحرارة.. ارتفعت التأوهات، وفاضت عينا سارة، وتهلل وجه لوط، وهما يريان قدرة الجبار، وضعف الطغاة، الذين شعروا بالجمر، ينتقل من قلب اللهب إلى صدورهم.

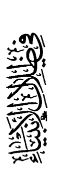
حدق إبراهيم في وجوه القوم، وكأنه يقول لهم: هل تريدون دليلًا أقوى من هذا على صدق نبوتي، وتوحيد ربي سبحانه، ثم غادر المكان تاركًا الجموع حطامًا كأصنامهم بالأمس.

توجه نحو ربه، الذي اصطفاه وابتلاه ونصره، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وإذ به وهو في أوج الانتصار يتلقى عتابًا من الله.

كان حب إبراهيم ﷺ لأبيه حب الابن البار، الذي يحدب على شيخ عنيد قاس القلب، لكن الله كان أرحم بهذا القلب الطيب من أن يذهب من أجل عدو لله، لا يريد أن يرحم نفسه، لذا أمره أن يكف عن الاستغفار له، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، فهذا الشيخ المعاند لا يريد رحمة الله، ولا يأبه بها، ولا يقيم وزنًا لمن خلقه، وأعطاه السمع والبصر.

امتثل إبراهيم، ثم طلب من سارة ولوط الاستعداد للرحيل، فلا مكان لهم بين الوثنيين، فقال لوط لوالديه وأهله: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

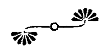
هاجر الثلاثة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مثقلين بوجع الفراق، فالأهل قساة، والأقربون تحولوا إلى أعداء.. امتطوا رواحلهم نحو الديار المقدسة في الشام.. يقطعون الفيافي والقفار.. بين الأودية والجبال، حتى مروا ببلاد يعبد أهلها الكواكب. ربما كانوا متأثرين بفلسفة ما، فبعض الفلاسفة يرون أن الكواكب والنجوم أطياف خالدة، أرقى من الإنسان، ولها تأثير على روحه، بل ليست ترابًا وصخورًا، كما اكتشف العلم الحديث.



حط المؤمنون بتلك البلاد،، فرآها الخليل فرصة للتنوير، ونشر الوعي. وكعادته اختار التوقيت المناسب، لتعرية التخلف. الليل، حيث تنتثر الكواكب، فتلهب المشاعر، وحين تلتهب مشاعر ضعاف العقول، يصبحون كتلة من العواطف المندفعة، التي تتأثر بأشياء، فتتخيلها على غير حقيقتها، لذا أراد تفعيل عقولهم وإيقاظها، فتقمص شخصية من يتأثر بالشيء فيعبده. اجتمع بهم بعد الغروب ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

نظر الوثنيون إلى بعضهم.. صدمهم إبراهيم بكلماته الواعية، وهو يريهم كيف أن الوثني بلا عقل، حين يعبد جمادات مسيرة، لاتستطيع حتى تغيير مسارها.. كان كلامه واضحًا، فعلى أي أساس عقلي يُعبد كوكب دون كوكب، أو حجر أو حتى بقرة؟ بقي الدعاة الثلاثة مدة، ثم واصلوا نحو الديار المقدسة. مروا ببلدة يحكمها أحمق، يدعي أنه رب، فلم يترك إبراهيم الفرصة؛ لإثبات دجله أمام شعبه.. وقف بين يديه، فسأله الطاغية: من هو ربك؟ فقال ﷺ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾. فهون الطاغية إجابة إبراهيم، وقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾. فصعقه إبراهيم بطلب سهل إن كان ربًّا حقًّا.



القبض على سارة

أجاب الطاغية إجابة ملتوية، فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، ويعني بذلك: أن أحكم بالإعدام، أو أعفو عن محكوم بالإعدام.

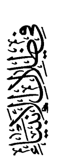
هنا صدمه إبراهيم حين قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

كان الحكام الظلمة منتشرين في ذلك الزمان، وقد دعا إبراهيم الكثير منهم أو حاورهم، فبعد مغادرته ديار ذلك الطاغوت مر ببلدة يحكمها وثني، سيطرت عليه غرائزه، فأصبح بلا أخلاق، وكان له أعوان على درجة متدنية من الانحطاط.. يفتشون له عن أي فاتنة، حتى لو كانت متزوجة، وما إن لمح بعضهم سارة، حتى سال لعابهم لأعطية في مستوى جمالها، فسألوا عنها،

فعرفوا من تكون. ومن زوجها، ثم انطلقوا نحو ملكهم؛ ليبشروه بالصيد الثمين، ولما وصلوا استأذنوا للدخول، والفرحة تلون وجوههم، فلما أصبحوا أمامه سألهم: هل من جديد؟ في مهمتهم النبيلة، فقالوا: «دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء»[1].

تضعضع الحاكم الغرائزي أمام الوصف.. تناسى حرمة الضيف، ولم يرحم غربة الغريب، ليفاجأ إبراهيم وسارة بالحرس يدخلون عليهما النزل، ويقبضون عليه.. كانت تهمته هي أن زوجته جميلة. اقتادوه نحو القصر، فاستأذنوا، فأذن لهم، وما إن رآه الملك حتى سأله: «يا إبراهيم من هذه التي معك؟» تحير إبراهيم ما يقول؟ خاف على حبيبته، وفي النهاية «قال: أختي»[2] لعل وعسى، لكن الطاغية قرر الظفر بسارة، حتى وإن كانت أخته، فأمر بإحضارها، فشعر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحزن، وعاد بصحبة الحرس، الذين سينتزعون سارة منه.

دخل إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حبيبته سارة،، وما إن رآها حتى قرأ الخوف في عينيها، والتساؤل عما جرى له؟ سألته وقلبها يرتجف عن سبب استدعائه، فأخبرها أنها السبب، فالجمال تهمة في هذه البلاد، وحاكمها يريدها حالًا، وحرسه في الخارج سيأخذونها، لذا رجاها أن لا توقعه في حرج، حتى لا تتعقد الأمور، قائلًا: «لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي»[3]. «إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام»[4].



ارتبكت عَلَيْهَا السَّلَامُ.. ارتجف قلبها رعبًا.. شعرت بمشاعر العفيفات بين الذئاب المتسلطين.. قلت حيلتها، فلا تدري ما تفعل، ولا إلى أين تفر،

(١) صحيح البخاري (٢٢١٧).

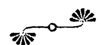
(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٧١).

والبيت محاصر؟ أغلقت الأبواب في عينيها، إلا باب الجبار، فرأت من خلاله زوجها، وهو يخرج بالأمس من النار بسلام، فعادت إليها طمأنينتها، فروح هذا الطاغية وجسده وكل حواسه بيد الجبار سبحانه.

صغر الظالم في عينيها، فتوجهت لمكان في البيت، فأخذت بعض الماء، وتوضأت وصلت لربها، واستودعته عفافها.. فاضت عيناها، تناجي الملاذ حين يعز الملاذ.. تناجي ملك الملوك وخالق الملوك.



سارة في معية الله

فاضت عينا سارة الخائفة تناجي ملاذها وحاميها، ثم أخذت بعض الماء وتوضأت وصلت لربها واستودعته عفافها.. ناجت الملاذ حين يعز الملاذ.. ناجت الجبار وقاصم الجبابرة وملك الملوك وخالقهم قائلة: «اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، فلا تسلط عليَّ الكافر»[1].

ثم ودعت حبيبها بقلب واثق وعينين لامعتين، وخرجت من مكان إقامتها، وسلمت نفسها لشرطة الطاغية الوثني، فاقتادوها وعينا زوجها وقلبه تلاحقها، حتى غابت عن ناظريه، ثم توجه لربه يصلي.. يدعوه أن يحمي حبيبته ويعيدها إليه.

تهادت سارة مع الحرس حتى وصلت القصر، وما إن وصلته حتى سُمح لها بالدخول.. أدخلوها مجللة بالوقار والحياء، ثم أوقفوها بين يدي الظالم، الذي فقد صوابه حين رآها، فأنساه جمالها وقار الملوك.. نهض من كرسيه، ودب نحوها كالذئب، ولما اقترب منها مد يده نحوها، وفجأة صعق يده ألم شديد شلها.

---

(١) صحيح البخاري ٢٢١٧.

أدرك الطاغية أن في هذه الفاتنة الطاهرة سرًّا.. نظر إليها فزعًا، وناشدها قائلًا: «ادعي الله أن يطلق يدي، ولا أضرك». فشعرت سارة بمعية الله.. بعظمته تحيط بها.. تحميها، وأدركت ضعف من يقبض على يدها، فدعت ربها أن يطلق يده، وما إن دعت حتى استعاد الرجل يده، وبدأ يحرك أصابعه بارتياح، وينظر إليها وسط دهشة حاشيته وهلعهم، لكن نزوته الشيطانية عاودته، فمدها مرة أخرى، فإذ بألم يشل يده أشد من الألم الأول.

شعر بضعفه وهو ينظر لحاشيته، لكنه اضطر صاغرا لتكرار طلبه أن تدعو الله، فدعته فتحررت يده، لكن العزة أخذته بالإثم، وكأنه يقول لحاشيته: إنه ما زال يسيطر على الأمر، فمد يده، فإذ بألم لا يطاق، يحرق يده، حتى جعله يصيح مستنجدًا: «ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أن لا أضرك»، ففعلت، وأطلقت يده، وما أن تحررت يده، حتى صاح بالموظف المسؤول عن تلك المهام الهابطة، ولما جاء صاح به غاضبًا: «إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي».

خفق قلب سارة شكرًا لله، لكن قبل أن تغادر القصر شعر الطاغية بالخوف، فطلب من أحد موظفيه أن يمنحها إحدى خادماته المميزات، وهي فتاة مصرية مؤدبة. اسمها هاجر، فقال: (أعطها هاجر).

ذهب الحرسي، وأحضر الفتاة، وطلب منها الالتحاق بهذه المرأة الصالحة، خادمة لها. خرجت سارة من القصر، وكلها ثناء لله، ولما أقبلت على النزل، كان إبراهيم يصلي، يناشد ربه ويناجيه. فلما رآها إبراهيم انصرف، فقال لها: «مهيم؟ قالت: خيرًا، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادمًا»[1].

اطمأنت العائلة الصغيرة، لكن ذلك لم يدم طويلًا فقد عاد الحرس مجددًا، فأبلغوه أن الملك يأمره بمغادرة البلاد هو ومن معه فورًا. حمل الزوجان

(١) صحيح مسلم (٢٣٧١).

متاعهمـا، وركبـا وغادرا البـلاد، ومعهما لوط وهاجـر.. فيا لخليل الله، ما أقسـى حياتـه وحيـاة زوجته، لكـن إلى أين هـذه المرة؟

هاجر لم تعد خادمة؟

سـافر إبراهيـم ورفقتـه الطيبـة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومعهـم الفتـاة هاجـر، التـي دعاهـا الخليـل للتوحيد، فرأت نقاء العقيدة، ورقي السـلوك النبوي، فأسـلمت. تمايلت رواحلهـم نحو الأرض المقدسـة، ولمـا وصلوها اتخـذوا بيتًا، واسـتقروا هناك، يدعـون للتوحيد والإسـلام. ومرت سـنوات فكبر لـوط، فأنـزل الله عليه الوحي، وأمـره بالتوجـه نحو قرية وثنية سـيئة السـمعة، يسـكنها قطاع الطـرق واللصوص الشـاذون، يقال: إن اسـمها (سـدوم)، فانطلـق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، وبدأ يدعو أسـوأ قـوم على وجـه الأرض.

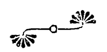
مرت الأيام والسنوات، وكبر إبراهيم، وبلغت سارة سن اليأس دون أن تنجب، فجلست يومًا تفكر في حال زوجها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحلمه بطفل، يبهج حياته، وتتأمل جمالها الأخاذ، الذي بدأ يذبل، وخصلات شعرها، التي بدأ الشيب يلون بعضها: الشباب ولى يا سارة، والعمر يمضي، والزوج لا يزال يحلم.

خفـق قلبها لإسـعاد زوجها بفكرة مريرة على النسـاء، فتحاملت على نفسـها، وتفوقـت علـى غيرتهـا وطبيعتهـا الأنثويـة، فتنازلت عـن ملكية هاجـر، ووهبتها لإبراهيـم عـلَّ الله يرزقـه بذرية منها. وافق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد تسـعة أشـهر، انطلقت صرخـة بريئـة، بين جـدران ذلـك البيـت الجميل. ابتهـج إبراهيـم ابتهـاج الكبير بالمولـود، وملأت السـعادة قلب هاجر.. حتى سـارة كانت سـعيدة بهـذا الصغير العـذب، الـذي طالما تمنـت أن يكون منها. فحمله وشـمه وضمه وقبله، وشـكر الله الـذي لا تحصـى نعمـه، وسـماه (إسـماعيل). كان من فـرط حبه، يعيـذه بربه

كل يـوم، ويقـول: «أعيـذك بكلمـات الله التامة، من كل شـيطان وهامـة، ومن كل عيـن لامة»[1].

لكن سـعادته بطفله لم تـدم طويلًا. سـرعان ما ابتلاه الله بفراقه، فهذه الأسـرة لم تعـرف طعـم الرفاهيـة والاسـتقرار. حيث دخـل إبراهيـم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم علـى هاجـر، فأمرهـا بالاسـتعداد للرحيـل، فنهضـت عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وجمعـت ثيابهـا ومتاعهـا، ووضعتهـا علـى راحلتهـا، وحملـت رضيعهـا، وودعـت سـارة التـي ودعـت ذلـك الرضيـع بالدموع.

انطلـق إبراهيـم وهاجـر مغادريـن الأرض المقدسـة نحـو الجنـوب، وعبروا الفيافـي والقفـار.. ارتفعـوا وهبطـوا، وبعد أسـابيع احتضنهـم واد صامت، تحفه الجبـال. توقفـت راحلـة الخليـل تحت دوحـة عند جبليـن صغيرين، همـا الصفا والمـروة، فنـزل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومـدت لـه هاجـر رضيعهـا، فأخـذه منهـا فنزلـت. لم يكـن فـي ذلـك الـوادي شـيء.. لا بئـر ولا زرع ولا حيـاة.. لا شـيء، سـوى الجبـال وبعض الأشـجار والانتظـار. أنزل المسـافران ما معهما مـن ماء وجراب تمـر، ثـم ارتاحـا مـن عنـاء السـفر، ثـم أخبرهـا الخليـل: أنها فـي مكان يقـال له بكـة، وأن تلـك الرابيـة المرتفعـة التـي أمامها، سـتكون مـكان بيـت الله المحرم، وبعـد يوم أو يوميـن تلفتت هاجر فلم تجـد حبيبها إبراهيـم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فانطلقت مذهولـة تركض علها تسترده.



لماذا تتركني يا إبراهيم؟

نـزل رسـول الله إبراهيـم وهاجـر وابنهما إسـماعيل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فـي واد، يقال له بكـة.. خـال من السـكان والزرع والحيـاة.. بين جبليـن صغيرين، سـميا فيما بعد

(١) صحيح البخاري (٣٣٧١).

(الصفا والمروة). مر اليوم الأول، وهما يأنسان بذكر الله، وقرب بيته الذي كان مجرد رابية مرتفعة.

غابت الشمس فانتثرت النجوم، تحدق بالغرباء، وشمخت الجبال كالحرس حولهما، وفي الغد أو بعده حدث شيء أذهل هاجر: إبراهيم يقبل طفله ويودع حبيبته، ويتركهما عائدًا للأرض المقدسة الأولى بالشام! كيف يحدث هذا؟ ما مصيرها وسط هذا الوادي القاحل؟ ما مصير رضيعها المسكين؟ أهذه هي الفرحة بالوليد بعد هذا العمر الطويل؟

أسئلة خائفة، لا تدرك معاناة الأنبياء، وثقل أمانتهم. انطلق الخليل الحزين، فشعرت هاجر بالخوف من سباع الوادي وضواريه.. من الجوع والعطش فيه.. من الوحدة، فلم تستطع البقاء إلى جانب صغيرها الذي يحبو. وضعته على الأرض وانطلقت تركض خلف حبيبها، علها تثنيه عن رحلته.. تستعطفه: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي؟! الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟»[1] تناشد أبوته وهو لا يرد.. تلتف حوله تريد رده، أو حتى صده، وهو ماض كالخنجر في قلبها. لم يلتفت إبراهيم، وكأن الحزن يمنعه من الالتفات، وهي تتوسل تريد إجابة مقنعة لتركها: «أين تذهب؟» ترى هل اشتاق لسارة، أم يريد التخلص منها؟

وفجأة أفاقت هاجر.. أدركت أنها رفيقة نبي، فقالت لنبيها: «آلله الذي أمرك بهذا؟»[2] هنا فقط نطق إبراهيم، وهو صابر محتسب، فقال: «نعم»، وهنا توقفت هاجر. لم تعد بحاجة إلى أحد مع الرحمن الرحيم.. أدركت أن رحلتها وحي، وأن رحيله وحي، وأنها بمعية الجبار ورعايته سبحانه، فودعته بكلمات أرسى من الجبال، التي تحيط بها، وقالت: «إذن لا يضيعنا»[3].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفًا على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

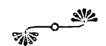
(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفًا على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفًا على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

اخترقـت كلماتهـا قلـب إبراهيم فنزف رحمـة بطفله الرضيع وأمه. سـار حتى تـوارى عنهمـا، وكأن عينيه لا تطيقـان النظر إليهما ثم توقـف، والتفت نحو البيت واسـتقبله، ودعا بقلـب منفطـر: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

أمـا هاجـر فانثنت، وألم الفـراق يعصف بقلبهـا.. عادت لطفلهـا، عادت لهذا الجميـل، الـذي يحبو لهفـة عليهـا، فانحنت عليـه، وأخذته وضمتـه، وأغمضت عينيهـا عليـه، فسـالت الدمـوع رحمة بـه وشـوقًا لأبيه، واسـترحامًا لمـن أودعها هـذه الأرض القاحلـة.. لم تـدر أنهـا سـتكون أمًّا لشـعوب وقبائل عظيمـة تتدفق مـن هذا الوادي، وتسـيح فـي أرجـاء الجزيرة، وتتـردد عليه.

لم تنتـه أحزان هاجر.. فجأة استبد بها رعب أشـد من رعـب الأمس، وركض أشـد من ركض الأمس.





الموت يجول في الوادي

ظلـت هاجـر مـع رضيعهـا إسـماعيل يومًـا أو اثنين.. تلاعبـه مـرة، وتهدهده مـرة، وترضعـه أخرى.. عاشـت سـاعات مـن الخلوة مـع الله عند بيتـه المحرم.. لحظـات من لذة المناجـاة، وصفاء الروح، طالما بحث عنهـا الأولياء في أجواف الليالـي.. فـي البـراري.. في الخلـوات بعيـدًا عن أعيـن الخلق، حيث يشـعرون بصفـاء يغمـر القلب، وأنـوار تعرج بالروح. إذا اشـتد عطشـها أخـذت جرعة من قربتهـا، وإن جاعت مدت يدها لجراب التمـر، فتناولت تمرة أو تمرتين، تمضغها ثـم تضع شـيئًا منها في فم الرضيـع، الذي يتلمظ لسـانه الصغير فرحًـا بحلاوتها، وتهتـز أطرافه حماسًـا، فيزيـن واديها بمناغاتـه ونظراته البريئة العذبـة، لكن التمر

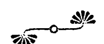
بـدأ يقـل، والماء بـدأ ينفد، وقد يجف صدرهـا إن نفد الماء والتمـر.. ظلت قلقة، ثم تحـول قلقهـا إلى هلع.

جفـت شـنة المـاء، فـكادت تفقـد صوابهـا.. ناولـت رضيعها صدرهـا، لكن شـفتيه لم تتبلـل بشـيء، ينظـر إليهـا يبكـي، فينفطـر قلبها، ويسـتبد الرعـب بها، وتشـعر بالمـوت يدنـو مـن صغيرهـا الحبيـب، فتفقـد صوابهـا، وتتركـه علـى الأرض، وتنطلـق وهـو يبكـي يتلبـط.

تركـض بلا وعي نحـو جبل الصفـا علَّها تـرى أحـدًا قادمًا يسـعفها. صعدته. حدقـت. استشـرفت فارتد طرفها حسيرًا، فانحـدرت تركض ركضًا شـديدًا نحو جبـل المروة المقابـل وبكاء رضيعها عن يسـارها يرتفع.. يمـزق قلبها وهو يحبو نحوهـا يريدها، فتصعد المروة علَّ مسـافرًا من الجهة الأخـرى يقبل بجرعة ماء.. تاهـت عيناهـا الغارقتـان بالدموع، ثـم عادت للصفـا تركض وبـكاء الصغير يزيد حزنهـا وعطشـها.. ظلـت تركـض بين هـذا الجبـل وذاك، حتى أنهكهـا الركض، وفقـدت الأمـل، فانحدرت بعـد المرة السـابعة من المـروة منكسـرة حزينة، وقد سـلمت أمرهـا لربها، وفجـأة توقفت.. صه:

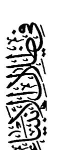
هنـاك صوت.. حفيف يشـق السـماء والهـواء.. أنصتـت تحـاول التقاطه بين سـكتات رضيعهـا.. ما هـذا الصـوت؟ صاحـت فـي الـوادي: (قـد أسـمعت إن كان عنـدك غـواث)، ثـم التفتـت عـن يمينها نحـو طفلها، فـإذ بالمشـهد يذهلها: جبريـل كبيـر الملائكة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائـم بجانب الرضيـع.. يضرب كبيـر الملائكة بعقبـه الأرض، فتتصـدع من ضربته، كما يتصـدع الزجاج، وإذ بالماء ينسـاب من كل الجهـات، نحـو مركز الضربـة، ثم يبدأ بالنبـع من موضع الضربـة يترقرق، ثم يفيـض بئـرًا ليس كالآبـار.. نبعـت أول قطرات زمـزم، فاجتاحـت الفرحة هاجر، وحمـدت الله، وركضـت نحـو المـاء الذي بدأ يسـيل على وجـه الأرض.

مـدت يديها نحـو التراب المبلـل بالماء، وصنعـت منه جدارًا صغيـرًا لتحجز المـاء، ثم نهضـت نحو قربتها وأحضرتهـا، وضمت كفيها كالمغرفـة، وأدخلتهما المـاء، وبـدأت تغـرف، وتمـلأ الشـنة، والمـاء يفـور يترقـرق، ثـم رفعـت قربتها المـلأى، فشـربت منهـا، فكانت أول امرأة تشـرب مـن زمزم.



الوادي ينبض بالحياة

بللـت هاجـر ثغر رضيعهـا بالمـاء، وعـادت الحياة لهـا ولصغيرهـا الحبيب، فكانـا أول من يشـرب من هـذه البئـر المعجزة، ثم تأملـت هذا المـلاك المهيب، الـذي يقف إلـى جوارها، وقبـل أن تشـكره هتف كبيـر الملائكة وطمأنهـا قائلًا: «لا تخافـوا الضيعة، فـإن ها هنا بيت الله، يبنيه هذا الغـلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهلـه»[1]، وأشـار إلى الرابية المرتفعة أمامها، وآثار السـيول عن يمينها وشـمالها، ثـم حلق الملاك في السـماء، بعـد أن دبت الحيـاة في الـوادي المبارك.



حتى السـماء سـرت فيها الحيـاة، بدأت الطيـور تحلق نحو نبع المـاء.. تحوم وتهبـط قربـه.. تؤنـس وحشـة هاجـر، وتزيـد مـن فضـول الرضيـع الـذي يحبـو نحوهـا.. يناغيها، وبعد أيـام انحدرت من جبل كداء قافلـة يمنية من قبيلة جرهـم، فشـدها شـيء في السـماء لم تره من قبل.. طائر يحوم. حدق المسـافرون بطريقة طيرانـه، فأدركـوا بحكم خبرتهـم أنه طائر عائـف، والعائف هو الـذي يحوم على الأمكنـة التـي فيها ماء، لكـن ماذا يفعل هـذا الطائر، وليس في هـذه المنطقة ماء؟ إنها مجـرد أودية جافة تتعطـش للمطر.

توقفـت القافلة علـى غير العـادة، فالقوافل عـادة تمر فلا تتوقـف هنـا.. قرروا

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا.

اكتشاف أمره، فقال بعضهم لبعض: «إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء»[1].

طلب كبيرهم ملاحقته، فانطلق رجل أو رجلان وعيونهم تتردد بين السماء والأرض.. بين الطائر والهدف، وفجأة توقفوا.. اتسعت أعينهم.. فوجئوا بشابة وطفل ونبع ماء. لم يفعلوا شيئًا.. لم ينادوها. اكتفوا بثني أزمة مطاياهم، والعودة نحو قافلتهم، التي أدركت أنهم عثروا على السر، وما إن وصلوا حتى زينت الابتسامات الوجوه، وعلت الأصوات تبشر وتستبشر.. غمرت المسافرين فرحة عارمة، فانطلقت القافلة نحو الماء، ولما أقبلوا أدهشهم المشهد فتوقفوا.

كان اليمنيون مؤدبين جدًّا.. تقدموا نحو أم إسماعيل.. تبادلوا التحايا بطريقة ما.. قد يكون بالإشارة، لأن القافلة عربية جرهمية، أي من العرب العاربة، أما هاجر فلم تكن هي ولا زوجها إبراهيم عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ من العرب. استأذنوا أن ينزلوا ويجاوروها حول هذا النبع الرقراق، فوافقت، لأنها كانت متعطشة للأنس البشري، ولكنها اشترطت أن الماء ليس من حقهم، وأنهم مجرد ضيوف كرام عليها: «**فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس**»[2] وأسعدها ثم أناخ المسافرون مطاياهم، ونزل الرجال والنساء والأطفال.. اغتسلوا وشربوا، ودب الأنس في المكان.

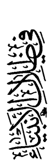
نصبوا خيامًا مؤقتة.. تبادلوا مع أم إسماعيل الزيارات، وأهدوها من طعامهم، كما أهدتهم ماءها.. يحملون طفلها.. يلاعبونه، وهو يحبو بينهم حتى كبر، وتعلم لغتهم، وأصبح يرعى الغنم معهم، وفي أحد الأيام تعرض إسماعيل لأمر بالغ الخطورة.

(١) المرجع السابق.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٤) عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بدأ الرضيع إسماعيل يقف على قدميه، ينتفض ثم يسقط.. يخطو خطوة، ويعثر خطوتين ويسقط.. يتراكض نحو أمه هاجر، وابتسامته تسعد قلبها، وضحكته تزين الوادي.. تحول المسافرون اليمنيون إلى عائلة كبيرة لهما.. طاب لهم المقام بين إسماعيل وزمزم، ثم أصبحت مكة محطة للمسافرين، ثم مكانًا للإقامة، قد السكان الجدد الصخور من أطراف الوادي، وشيدوا البيوت هنا وهناك، وبدأت استجابة الله لدعوة إبراهيم تتشكل على أرض مكة، فتحولت من واد إلى قرية تجارية مفعمة بالنشاط.

زمزم المعجزة الربانية.. حولت مكة من واد صامت إلى قرية تنبض بالحياة.. كبر فيها إسماعيل.. بدأ يلعب مع صبيان القبيلة اليمنية.. يرعى الغنم معهم.. يتكلم لغتهم ولغة أمه هاجر التي ربته على التوحيد، ثم أصبح الطفل مراهقًا يفوق أقرانه أدبًا وخلقًا.



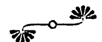
وذات يوم من تلك الأيام كان السراب خلف جبل المروة، يتماهى بطيف قادم من بعيد.. يتهادى شيئًا فشيئًا، وينفصل عن السراب شيئًا فشيئًا، ولما اقترب المسافر أدهشه المشهد، وخفق قلبه وقد تحققت المنى، فها هو الوادي يعج بالحياة والأنس كما تمنى، وها هي الأفئدة تهوي إليه، ويطيب لها العيش فيه.. تساءل شوقه كيف غدا حبيب القلب إسماعيل وأمه؟ توجه نحو بيت الله فوجد الماء والحياة وحبيبيه هاجر وإسماعيل.

عانق الشيخ ابنه بشوق، وفاضت عينا هاجر وهي ترى إبراهيم ﷺ بعد هذه السنوات.. أمضى الثلاثة أيامًا سعيدة، واختلط إبراهيم بالسكان، وبصَّرهم بالتوحيد رسالة الأنبياء، وزادهم وعيًا بأمور دنياهم برسالته الثانية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، فالعدل

مكمـل للتوحيـد، لتتناغم الدنيـا بالآخرة، والسـماء بالأرض، فلا عمـارة حقيقية للأرض دونهما.

ظـل إبراهيـم ينيـر القلوب والعقـول، ويبدو أن لهاجـر وزمـزم دورًا في إيمان تلـك القبيلـة الطيبـة، وفـي أحـد أوقـات الإيمـان والوعـي تلـك.. وفـي مـكان كالخيـال كان إسـماعيل مسـتلقيًا، وإذ بوالـده إبراهيم يقترب منه فجأة، ويمسـك برأسـه، ويسـل سـكينًا فينحر رقبتـه.. تفجر الـدم، فأفـاق إبراهيم من نومـه حزينًا مـن هـذه الرؤيا المخيفة.. كيـف ينحر فلذة كبـده في مكان مقدس، يحرم سـفك الـدم فيه.. مـكان يقـول الله عنـه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

وممـا زاد حزنـه هـو أنه لا بد مـن تنفيذ هذه الرؤيـا، فرؤيا الأنبيـاء وحي. ولن يتـردد الخليـل فـي تنفيـذ الوحي.. يا لـه من اختبار صعـب.. أي ابتلاء أشـد على النفـس من هـذا؟ ما أكثر ابتـلاءات إبراهيـم وأثقلها. نهـض ﷺ من مرقده وهـو مهموم بتنفيذ أمـر ربه: هل يصارح ابنـه، أم ينحره وهو نائـم، أم ماذا يفعل؟



إسماعيل يودع هاجر

بعـد تلـك الرؤيـا أخـذ إبراهيـم ﷺ ابنـه الحبيب بعيـدًا عن أمـه، حتى لا يفجعهـا، ومـا إن اقتـرب منـه، حتـى قال لـه بصوت يتهـدج حزنًـا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟.

ارتجـف قلـب إسـماعيل خوفًا، لكـن سـرعان ما تماسـك.. لم يقـل: لماذا، وكيـف، ومـا ذنبي؟ سـلَّم أمره لله سـبحانه، بل حـثّ والده على تنفيـذ وحي ربه، فقـال ﷺ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، قـدم الفتى إرادة ربـه علـى إرادتـه، ورضي أن يكون قربانًـا لله، والحزن يفطـر قلبه على فراق أمـه.. كأنـي بـه بعـد ذلك يجلـس قربهـا.. يطيل النظـر إليهـا، والتأمل فـي طيفها

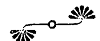
الحبيب، وهي لا تدري ما سر تلك النظرات؟ لا تدري أنها نظرات مودع.. تقدم له طعامًا فيعتذر.. لا حاجة لي بالطعام يا أماه.. النظر إليك أول وآخر وجباتي، فهل سيتحمل قلبك رحيلي، وكم من الدموع ستذرفينها بعدي.. يتذكر طفولته وغربته معها.. ينفطر قلبه وجدًا عليها، فلن تناديه بعد اليوم، ليحضر لها ماء من زمزم، أو يحلب شاتها.

دنت الساعة.. نهض الفتى مع والده، ومشى حتى غاب عن ناظريها.. مشى ثقيلا حزينا.. حتى مر بملاعب رفاقه حول زمزم، فيزداد حزنه.. لن يلعب معهم بعد اليوم، ولن يسابقهم، كلما أقبلت قافلة أو أقفت.. إنه الآن يسير بجانب والده الحزين، الذي يحمل سكينًا حادة، لن تأخذ منه وقتًا في تغييبه عن هذا الوادي الجميل، بل عن الدنيا بأسرها، وبعد خطوات ثقيلة وحزينة، توقف الوالد، فهل تعانقا، وسالت دموعهما؟

أضجع إبراهيم ابنه على الأرض، وكأنه لا يريد لعينيه أن تلتقي بعيني فيضعف ويتراجع، لذا تله للجبين، وأدار وجهه نحو الأرض.. بدأت دقات قلب إسماعيل تتسارع، وأنفاسه تتصاعد، والتراب يبتل بقطرات دموعه، ويلتصق بشفتيه المرتعشتين.. قرب إبراهيم سكينه من رقبة ابنه الصغيرة، وإذ بصوت مهيب يقاطعه.. يوقف يده وسكينه، ويقول له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾، رفع إبراخيم رأسه، وفاضت عيناه، وتنفس الصعداء، وألقى السكين، واستعاد ابنه وضمه، وانهمرت دموع الفرح والشكر لله، وقبل أن ينهض الاثنان، التفتا على صوت وحركة قربهما، فرأيا كبشًا بالقرب منهما. معجزة أخرى لهذا النبي الصابر، يقول الله عنها: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾.

نهضا نحو الكبش، وأخذاه نحو مكان النحر، وقرباه لله، وأهدوا من لحمه، وتصدقوا، وأكلوا، وابتهجوا، ومرت الأيام على قصة الفداء والابتلاء، لكن

الحزن عاد.. ها هو إبراهيم يودع أحبته، فلديه مهمة في الشام.. سافر الخليل المبتلى، لتمر على فراقه سنوات وسنوات، كبر خلالها الفتى، وبلغ مبلغ الرجال، والجميع يجلونه، ويجلون أمه.. كان إسماعيل مهوى أفئدة العذارى، فمن هي التي ستفوز بأمير مكة، وسيد زمزم؟



ورحلت هاجر

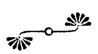
كانت أُسر قبيلة جرهم اليمنية تحب الفتى إسماعيل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتجله.. خاصة بعد قصة الفداء، فعرضوا عليه الزواج من إحدى فتياتهم، فوافق، وابتهجت هاجر، وزفت عروس ابنها، وامتلأ الوادي الجميل بالأفراح، لكن تلك الأفراح لم تدم طويلًا لآل إبراهيم، فالحزن لم يغادر الوادي.. إنه يختبىء لهذه الأسرة بين الجبال.. الحزن مجددًا يعصف بقلب إسماعيل، فها هو عند فراش حبيبته هاجر، والمرض يفتك بجسدها الشاب.. يأخذها شيئًا فشيئًا، حتى أسلمت الروح، وفارقت الحياة. ذرف الشاب الدموع حزنًا عليها وشوقًا إليها، لكنه لم يكن وحده الحزين. الوادي كله حزين، ونساء الحي ورجاله يبكون بحرقة السيدة الكريمة.. السيدة المضيافة.. يبكون أميرتهم وسيدة مكة عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وابنها البار يضعها في قبرها، ويهيل التراب والدموع عليها.

رحلت أول امرأة سكنت مكة، وأول امرأة شربت زمزم.. رحلت من اصطفاها الله، لتكون أما لإسماعيل، وأما لقبائل عظيمة من العرب.. رحلت المناضلة التي لم تهنأ بشبابها.. تقاسمته الغربة والمعاناة والبذل لله.. لم تهنأ بحبيبها إبراهيم.. ماتت والشوق إليه يملأ قلبها.. أصبح إسماعيل في غربة.. أم تحت التراب، ووالد لا يدري متى سيراه.. ما أقسى حياة آل إبراهيم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

مـرت سـنوات لتفاجـأ مكـة بحبيبهـا إبراهيم علـى مشـارفها.. يتهـادى وقلبه يخفـق حزنًا على هاجـر.. تذكره مكة بهـا، فتحت هذه الدوحة نزلـت عن دابتها، وهنـا لحقت بـه ونادته: «أين تذهـب يا إبراهيم، وتتركنا بهذا الـوادي، الذي ليس فيـه إنس ولا شـيء؟» وهنا هتفت بـه: «آلله الذي أمرك بهـذا؟»، وهنا تهدج صوته حزنًـا، وهو يقـول لها: «نعم». مشـى ﷺ حتى أصبح أمام باب إسـماعيل، فاسـتأذن فخرجـت لـه فتـاة، حيتـه وحياهـا، فعـرف أنهـا زوجتـه، فسـألها عنه؟ فقالـت: خرج يبتغي لنا، ثم سـألها عن أحوالهم المعيشـية والماديـة، فوجد إجابة تطفـح بالطيـش والتذمـر. قالت: «نحن بشـرٍّ. نحن فـي ضيق وشـدة»[1]، وبدأت تتلـو عليـه قائمة مـن التذمر، لا تليـق ببيت نبي.

أنصـت ﷺ لهـا، ولم يقاطعهـا، وحالمـا انتهت اكتفى الشـيخ بكلمات قليلـة غيـر مفهومـة. ثـم ودعهـا وكلهـا حيـرة. عـاد إسـماعيل، ولما دخل سـأل زوجتـه: «هـل جاءكـم من أحـد؟» قالـت: «نعم، جاءنا شـيخ كـذا وكذا، فسـألنا عنـك فأخبرته، وسـألني كيف عيشـنا، فأخبرته: أنـا في جهد وشـدة»، قال: «فهل أوصـاك بشـيء؟» قالـت: «نعم، أمرنـي أن أقرأ عليك السـلام، ويقـول: غير عتبة بابك»[2].

خفـق قلب إسـماعيل ﷺ حزنًـا وشـوقًا، وأدرك مغزى الوصيـة، فنظر إلـى فتاتـه المتذمـرة بحـزن، وقـال: «ذاك أبـي، وقـد أمرنـي أن أفارقـك. الحقي بأهلـك»[3] فطلقهـا، ثـم بقي مدة أعـزب، حتى لاحت لـه فرصة للـزواج من فتاة أخـرى أطيب.



(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

مـرت أسـابيع وربمـا أكثـر، فـإذ بإبراهيم ﷺ يسـتأذن مرة أخـرى على بـاب إسـماعيل، فتفتـح فتـاة بشـوش، تحييـه وترحب بـه.. عـرف أنهـا زوجته، فسـألها عنه، فقالـت: «خرج يبتغي لنا»، فأعاد طرح السـؤال قائـلًا: «كيف أنتم؟» وسـألها عن عيشـهم وهيئتهـم، فقالـت: «نحن بخير وسـعة»، وأثنـت على الله.

شـعر ﷺ بارتياح من إجابتها، التي تليـق ببيت النبوة، وأحب تلك الفتاة المسـتعدة لتحمـل مسـؤولياتها، فواصـل الحـوار معهـا، وقـال: «ما طعامكم؟» قالـت: «اللحـم؟» قـال: «فما شـرابكم؟» قالت: «المـاء». قال: «اللهـم بارك لهم فـي اللحـم والماء»، قال النبـي ﷺ: «ولم يكـن لهم يومئذ حـب، ولو كان لهـم حب دعـا لهم فيه» ثـم قال: «فإذا جـاء زوجـك فاقرئي عليه السـلام، ومريه يثبـت عتبـة بابـه»[1] ثـم ودعهـا ورحـل. فحياته ﷺ ترحـال ودعـوة. فلما عـاد إسـماعيل أخبرته، فملأت السـعادة قلبه بتلـك الوصية، فقـال لزوجته: «ذاك أبـي، وأنـت العتبـة، أمرنـي أن أمسـكك»[2]، وبعد مـدة كان إسـماعيل مقبلًا من مـكان مـا، وهو يحمـل مجموعة مـن الأغصـان انتقاها بعنايـة، ثم اتجـه بها نحو دوحـة قريبـة من زمـزم، ولمـا وصلها توقـف، وجلس تحـت ظلها، ونثـر ما معه مـن أعـواد علـى الأرض، ثـم أخرج سـكينًا، وبدأ يكشـط تلـك الأغصـان غصنًا غصنًـا.. يبريهـا بعنايـة، ليصنـع منهـا أسـهمًا للصيـد، (وكان ﷺ راميًا[3]) ماهـرًا، وبينمـا كان منهمـكًا في عمله.. فوجـىء بطيف حبيب يقبـل عليه.. حدق به إسـماعيل، وكلما اقترب زاد ارتجاف قلبه.. ألقى إسـماعيل سـكينه وأسـهمه، وفـز نحـو الشـيخ الحبيـب.. تعانقـا، وخنقـت العبـرات العبـارات، (فصنعا كما

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المرجع السابق.

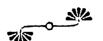
(٣) صحيح البخاري ٢٨٩٩.

يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد)[1]، وتداعت ذكريات هاجر في القلوب، وبعد أن جلسا وهدأت المشاعر.. نظر إبراهيم إلى ابنه الشاب، وكأنه يبشره بإرهاصات النبوة، وقال له: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر». قال إسماعيل: «فاصنع ما أمرك ربك؟» قال: «وتعينني؟»

لم يتردد الشاب ولن يتردد، فقد وافق يومًا على أن يكون قربانًا لله. لذا قال: «وأعينك» فمد الشيخ يده، وأشار نحو الأكمة القريبة المرتفعة على ما حولها، وقال: «فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتًا»[2].

اجتاحت السعادة إسماعيل بالمهمة، وأخذ والده نحو بيته وزوجته الطيبة، ليمضي معه أسعد أيام حياته.. يوم بلسم جراح الغربة، وفقد هاجر الحبيبة.. تناولا اللحم، وشربا من ماء زمزم، وأشرق يوم جديد على العالم.. وزع إبراهيم المهام بينه وبين حبيبه، ثم انطلق نحو تلك الرابية، ليخط الخليل على الأرض مكان بناء قواعد البيت وأساساته وجدرانه، أما الفتى فانطلق بحماس نحو المكان، الذي تقد منه الصخور.. ظل إسماعيل يجلب الحجارة، وإبراهيم يحفر ويبني، وهما يرددان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[3].





كيف كان شكل البيت عند بنائه؟

أصبح إسماعيل نبيًّا منذ بدء لحظات بناء الكعبة، وطُلب منه كما طلب من والده عَلَيۡهِمَاالسَّلَامُ: أن يطهر البيت من أي مظاهر للشرك، وأن يهيئاه للمصلين

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

(٢) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفًا على ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٢-١٤٤ رقم ٣٣٦٤) موقوفًا على ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

والطائفين، فقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

ارتفعت جدران الكعبة أمتارًا، فجاء إبراهيم بحجر أسود، فوضعه في الزاوية الشمالية الشرقية من الكعبة، ووضع للكعبة بابًا من جهة الشمال قرب الحجر، وبابًا يقابله في الجهة الجنوبية قرب الركن اليماني، ولم يبنيا للكعبة سقفًا.. بدأا يطوفان حوله، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

اكتمل بناء الكعبة، ولم يجعلاه مربعًا كما هو اليوم، بل كان على شكل الحرف الإنجليزي (D)، أي أن جدار حجر إسماعيل المقوس كان جزءًا من جدرانها. هذا هو أول بيت لله على الأرض، والذي يقول سبحانه عنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

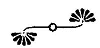
كانت قبيلة جرهم اليمنية الطيبة تستمتع بمشهد البناء، وتتلقى التوحيد طريًّا من الوحي.. من فم إبراهيم، فلم يعان منها كما عانى من أهله وقومه.

وبعد أن اكتمل البناء، فنزل الوحي على إبراهيم، يأمره بأن يدعو الناس للحج، فقال له تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

بدأ ﷺ دعوته للحج في مكة.. يعينه إسماعيل، وصحابتهما من قبيلة جرهم.. لم تعد مكة أهم مركز تجاري في الجزيرة العربية.. أصبحت منارة وعي.. يمر بها التجار والمسافرون الوثنيون، فيتغيرون.. يصبحون موحدين.. يحملون ثقافة التوحيد وعيًا نحو بلدانهم.. يحملون أخلاق الإسلام، وأمانة الإسلام، حتى بعد رحيل إبراهيم.. ينهلون من إسماعيل دروسًا في الأمانة والصدق، حتى أثنى الله عليه، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

ظـل إسـماعيل في مكة، فـرزق ببنين وبنـات وأحفاد وأسـباط.. أصبحوا فيما بعـد قبائل وشـعوبًا عظيمة، ينشـرون التوحيد، ويتـرددون على البيـت، لكن ماذا عـن إبراهيـم بعـد بنائه الكعبة؟ أيـن ذهب بعـد أن دعا للحج؟

لقـد ودع ابنـه وصحابتـه، وتوجـه مجـددًا نحـو القـدس.. حيـث سـارة التي اجتاحتهـا السـعادة.. بقـي إبراهيـم سـنوات ينشـر التوحيـد، فيـزداد المؤمنـون والمؤمنـات، وبعـد أن تجـاوز الثمانيـن، أمـره الله أن يبنـي ثانـي مسـجد علـى الأرض، وهـو المسـجد الأقصـى.



ما الذي أضحك سارة؟

أمر الله سـبحانه رسـوله إبراهيـم ﷺ أن يبني ثاني مسـجد على الأرض (المسـجد الأقصى)، وذلك بعد بنـاء الكعبة بأربعين عامًا، فبنـاه وأعانه صحابته، وصلـوا فيـه، وأخبرهـم أنـه قبلـة المؤمنيـن، وفـي أحـد الأيـام فوجـيء الشـيخ الثمانينـي بغربـاء علـى بابـه.. نهـض ﷺ نحو البـاب، فحياهـم، وأدخلهم رغـم أنـه لا يعرفهم، بل ولا أحـد من أهل المدينـة يعرفهم.. لم يسـألهم ما الذي أتـى بهم؟



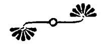
انطلـق مباشـرة نحـو الحظيـرة، فأخـرج وخدامـه عجل بقر سـمين، وسـمَّى الله وذكاه، بينمـا كانـت النـار تتوهـج فـي مـكان معـد للشـواء، فحُمـل لحـم العجـل، ووضـع علـى النـار، وبـدؤوا بتقليبـه حتـى تغيـر لونـه، وطـاب طعمه، ثـم حُمـل الشـواء اللذيـذ، ووضـع أمـام الضيـوف، ورائحتـه تتضـوع فـي المـكان، وتثيـر الشـهية، بينمـا كانـت سـارة قائمـة خلفهـم لخدمتهـم.. حـدق الضيـوف بطبـق الحنيـذ اللذيـذ، وأيديهـم مكفوفـة.. طالـت مـدة الصمـت، فشـعر ﷺ بالقلـق، وهـو يتصفـح وجوههـم.. ارتـاب مـن سـلوكهم،

فقال لهم: «ألا تأكلون؟» لم تمتد أيدي الضيوف نحو الطبق، لكنهم قرؤوا الخوف في عيني إبراهيم، فطمأنوه، وكشفوا عن هويتهم، وقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾. كانوا مجموعة من الملائكة مكلفة بمهمة تجاه قوم ابن أخيه لوط. هنا ضحكت سارة، فما الذي أضحكها؟

هل هو تحديقهم بالشواء دون أكل؟ أم تضحك على مجهود زوجها الذي ضاع هباء، أم على خوفه منهم، ونظراته المتشككة، أم تذكرت تلك الأيام الغابرة، حين قدم الطعام لأصنام قومه، وقال الكلمة نفسها: ألا تأكلون؟ الاحتمالات كثيرة، لكن الضيوف لم يتركوا لسارة مجالًا لمواصلة الضحك.. سرعان ما قلبوا ضحكها صياحًا، حتى صكت وجهها بكفيها.. رفع أحدهم رأسه نحوها، وقال: إنك ستنجبين ابنًا، هو إسحاق، وإسحاق سينجب يعقوب.

صعقت سارة، كما تصعق العجائز بمثل هذا الخبر.. استغراب ممزوج بفرح بخوف بخجل.. صرخت ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، لكنهم بشروها بالرحمة وقالوا: (﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

أما إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشعر أن العمر يوشك على انقضاء، وأن فرحته بالطفل لم تعد كما كانت، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، أين البشرى هنا؟



قرية للأنذال وقطاع الطرق

بعد أن بشر الملائكة إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطفل وقد تجاوز الثمانين.. شعر أن العمر يوشك على الانقضاء، وأن فرحته بالطفل لم تعد كما كانت، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، وإذ بإجابتهم تبين له أن البشرى

أبعد من الحصول على مجرد طفل.. إنه الاصطفاء.. إنها النبوة التي ستتسلسل في ذريته.. ذرية ستواصل نشر توحيد الله، فالوثنية والجحود لنعم الله ينتشر كالوباء بين الأمم، ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾، فقال: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، بعدها أثنى إبراهيم على ربه، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

ثم انتقل الحديث بين الملائكة وخليل الله إلى المهمة الثانية (قوم لوط)، ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ (٣٢) لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾، هنا بدأ إبراهيم يجادل حول هلاكهم، وإذ بالملائكة توقفه وتقول له: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾، ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

سأل إبراهيم ﷺ عن مصير ابن أخيه، فقالوا: ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، اطمأن إبراهيم ثم استأذنه الضيوف، فلديهم رحلة مرعبة نحو قرية سادرة في غيها وشذوذها، وما هي إلا ثوان، وإذ بالضيوف يتهادون بوقار عبر شوارع لا تعرف الوقار.

قرية سدوم التي دخلها لوط قبل سنوات.. جاء داعية لهذه القرية المجرمة الشاذة عن بقية القرى.. كانت بالغة السوء سيئة السمعة.. يتجنب المسافرون الطرق المؤدية إليها، لأن أغلبية رجالها من الإرهابيين وعصابات قطاع الطرق، أما ممارساتهم داخل البلدة فبالغة البشاعة.. أقاموا ناديًا يمارسون فيه طقوس الشرك والشذوذ، أو ما يسمى المثلية المنحطة بلا خجل.. ضاق لوط بانحطاطهم، لكن الأرض ضاقت به حين رأى الضيوف ببابه، شعر بالحرج فقومه لم يكتفوا بأعظم الذنوب عند الله وهو (الشرك)، بل انحطوا لدرجة أدنى من البهائم، فلا كرم ولا كرامة لضيف عندهم، ولا حتى للمار بديارهم، بل اغتصاب للمارين بديارهم وللضيوف والغرباء ولأموالهم.

كانت بلدتهم وكرًا لعصابات السطو والسلب والنهب، وسوقًا للبضائع المسروقة.. لا رجولة ولا نخوة ولا نجدة للمستجير.. فضلًا عن الأدب مع خالقهم سبحانه. مصطلحات تصبب منها لوط خجلًا، وغلا منها غضبًا.

لوط في غاية الإحراج

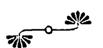
قرية يقال لها سدوم وثنية جاحدة لنعم الله، تحولت إلى وكر للصوص وقطاع الطرق، فلا كرم فيها، ولا كرامة للضيف أو للمسافر المار بديارهم، بل لا رجولة ولا نخوة ولا نجدة للمستجير.

أرسل الجبار لهم رسوله لوطًا، فدعاهم سنوات بلطف ولين.. يتودد إليهم.. يبشرهم بالجنة تارة، وتارة ينذرهم عذاب الله.. يذكرهم بزوال الأمم السابقة قوم نوح وهود وصالح، لكنهم لم يرعووا.. تقرب منهم.. صاهرهم، فتزوج امرأة منهم، ورزق منها ببنات، هن زهرات حياته.. رباهن على التوحيد، فنشأن مؤمنات، لكن أمهن ظلت على شركها، وهو ما زال يحبها، ويتمنى هدايتها، لكن يبدو أن الأمر قد فات.

هاهم الملائكة يجوبون الآن يجوبون شوارع المدينة بثقة، وكأنهم يحددون إحداثيات القصف المميت.. يمشون عبر شوارع سدوم، وسط نظرات مقززة من قوم بالغي الانحطاط.. تدهشهم ثقة الغرباء بأنفسهم، وتخيفهم معرفتهم بالطرقات.. كيف عرفوا بيت لوط، وهم لم يروه من قبل. وقف الضيوف عند الباب ثم استأذنوا، فسمع لوط الاستئذان، فنهض لفتح الباب، وما إن فتحه حتى اتسعت عيناه من هول الصدمة.. لم يعرف من هؤلاء الغرباء، بل لا يريد أن يعرف.. ضاق صدره، وكأنه يقول للغرباء: ما الذي أتى بكم إلى هذه المدينة الغبية؟

تغيرت ملامح وجهه وتكدر.. لم يبش بهم كما بش إبراهيم رغم كرمه.. شعر بالإحراج منهم، وهو يرى نظرات القوم المخجلة من بعيد، لم يسألهم ما يريدون.. أدخلهم مباشرة، وهو يتصبب حرجًا وخجلًا قد ضاقت به الأرض، و﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، ارتبك.. كيف سيتصرف الآن، وبعض قومه خلف الباب كاللصوص؟ أي قرية قذرة ابتلي بإصلاحها هذا النبي؟

شل تفكيره.. ذهل عن تقديم أي شيء لضيوفه، ولم يُجر أي حديث ودي معهم.. أصبح مشغولًا بالتفكير في حمايتهم. كأني به يدور في البيت لا يدري ما يفعل، وفجأة أفاق على طرق شديد، وكأنه محاولة اقتحام.. مشى لوط نحو الباب، وهو في غاية الغضب والحزن، ثم فتحه، وإذ بوجوه قومه وعيونهم المتلصصة. ومباشرة بدأ يرجوهم.. يتوسل إليهم ألا يحرجوه. ويقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، فردوا بكل وقاحة: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أو لم نحذرك من إيواء الناس؟ ناشد ما تبقى لديهم من قيم، لكنه لم يجد شيئًا، وكأن البخل واللصوصية والشذوذ عنوان الشرف عندهم.





وخرج لوط من زنزانته

ناشد لوط ﷺ ما تبقى لدى قومه من حياء، لكنه لم يجد شيئًا داخل وكر العصابة المسمى سدوم.. حاول إعادتهم إلى آدميتهم.. إلى التناغم مع الطبيعة البشرية: لم لا تتزوجون كبقية البشر.. هؤلاء بناتي وبنات قومي، ألا تشعرون بمعاناة النساء في هذه المدينة التعيسة، كيف يعانين من تخلف الذكور وإهمالهن. قال لوط: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

نـزف قلـب لوط حزنًا، وأنَّ من أعماقـه.. من قلة حيلته، متمنيّـا لو أن لديه قوة تردعهـم، أو عشـيرة تحميـه من اقتحـام بيته، كلمـا حل عليه ضيـف، حتى أصبح يكـره قدوم الضيـوف. زفر بكلمـات كالجمر، فقـال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

لـم يكـن يدري عَلَيْهِ السَّلَامُ أنـه (كان يأوي إلى ركن شـديد)[1]، وأن جنود السـماء قـد اصطفـوا داخـل بيته، بـل خلف ظهـره بالضبـط. وفجـأة، وفي أشـد حالات الضعـف والإحبـاط وفقـدان الأمـل، دوَّى صوت، رفـع معنويات لوط للسـماء. نطـق أحـد الضيـوف بـأول كلمـة.. نطق بصـوت كاسـتلال السـيف مـن الغمد: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾، حلقـت معنويـات لـوط.. لم تعـد سـدوم مـن أقصاهـا إلـى أقصاها تحـرك شـعرة من رأسـه، أو تسـتحق خفقة خـوف من قلبـه.. لقـد كان حقًّـا يأوي إلى ركن شـديد، ومن أشـد قـوة من الجبار سـبحانه، ومـن أقوى من المظلوم حين يستشـعر قـدرة خالقه جَلَّ وَعَلَا. اخترقـت الكلمة أذنه، فخـرج من البـاب، وكأنـه يخرج مـن زنزانة.

خـرج نحـو اللصـوص لا متوسـلًا ولا راجيًـا، بـل مهـددًا ومانحًـا فرصـة واحـدة.. فرصـة واحدة، أو هـو العـذاب.. تصفح تلـك الوجوه، التـي ليس فيها قطـرة دم، ولا تعـرف معنى للحياء أو الوقـار أو الذوق.. صـاح فيهـا وجهًا وجهًا، وقـال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، حـدق بنظـرات تقـول لهـم: أنتـم مسـتحقون لبطـش الجبـار، فما مـن أمة سـبقتكم في جمـع كل تلـك الصفـات.. أنتـم تفسـدون نظـام الحيـاة، وتجعلونهـا بائسـة من حولكـم.. تتسـببون في انقراض البشـرية، وانتشـار الأمـراض، فـأي عالـم يمكن أن يسـتقر، حيـن تنتشـر فيـه بـلاد مثل بلادكـم، التـي تشـرعن الإرهـاب، وقطع الطريق، والسـطو، وتحتفي بالمتحرشـين والشـاذين.. أي قرية مقـززة تلك، التي

(١) صحيح البخاري ٣٣٧٢.

تهين ضيوفها، وتستدرج المسافرين؛ لتغتصب أموالهم، وتنتهك أعراضهم.. هي بلدة فريدة في الانحطاط تدعى سدوم.

هل طارت مدينة سدوم؟

كانت مدينة سدوم الوثنية نموذجًا لمدن الشيطان، التي تشرعن الإرهاب، وقطع الطريق، وانتهاك الأعراض.. مدن لا تستحق البقاء، فلو انتشرت ثقافتها لأباد العالم بعضه بعضًا، لذا انتهرهم لوط للمرة الأخيرة، فردوا تحديًا وصلفًا ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وإذ بدعوة النبي المكروب تنطلق: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

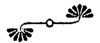
أغلق لوط بابه، وعاد لضيوفه الكرام، فإذ بالضيوف يأمرونه وأهله بمغادرة المدينة الليلة، وفي جنح الظلام، بل أمروه بعدم الالتفات في أثناء الرحيل مهما جرى.. قالوا له: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾، ثم ودعوه وودعهم، وما إن أغلق الباب حتى أخبر بناته فقط، فبدأن بجمع ما يمكن حمله من أغراض السفر.



خيم الظلام على سدوم، ففتح لوط باب بيته، وتسلل هو وبناته تاركين زوجته الوثنية.. تسللوا عبر الطرقات المظلمة، وبين جدران البيوت، وقهقهات السكارى.. كانت قلوب البنات تتمزق حسرة على الأم القاسية العنيدة، ومصيرها المجهول، ولما بدأت خطوط الفجر تتمدد في الأفق، كانوا خارج أسوار سدوم، وفجأة سطع في السماء ضوء مخيف، دوَّت معه صيحة هائلة تفجر الآذان، فارتفع صياح سكان المدينة، وأفاق السكارى على جدران تتصدع وبيوت تنهار، انشقت الأرض فابتلعت سدوم، حتى أصبحت أسطح

مبانيها في أسفلها، فلم يعد من جدران، ولا أبراج، ولا سطوح.. كل شيء كان يعلو أرض سدوم انغمس تحتها. امحت مدينة الإرهاب، وقطاع الطرق، والشذوذ، في غمضة عين، ثم بدأ القصف بقذائف السجيل، التي يصفها الجبار، فيقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

امحت سدوم التي لم تكتشف إلا حديثًا، وهلكت زوجة لوط مع من هلك، وبينما كان الموت يخيم عليها، كانت الحياة تشرق في مكان آخر في القدس.. هناك حيث تئن سارة، ويتصبب عرقها، ويشتد ألم الطلق بها، وبعد ساعات كالموت، زيَّنت صرخة المولود منزلها، فخففت آلامها، وامتلأ قلب إبراهيم بالسرور، فضم الطفل وقبله، وعوَّذه بما كان يعوذ به أخاه إسماعيل: «أَعُيذكَ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ»[1].



هلك قوم لوط، وولد بنو إسرائيل

تزين ذلك المهد بطفل جميل، بين شيخ طاعن في السن، وعجوز لم تعد عقيمًا.. كانت ولادته معجزة.. طفل سيصبح له شأن عظيم كوالده.. سيصبح جدًّا لعشرات الأنبياء، ولقبائل كثيرة.. كبر الرضيع شيئًا فشيئًا، فعلمه والده التوحيد، ثم أصبح رجلًا، فتزوج في حياة والديه، كما بشر الملائكة في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، فرزقه الله بابن سماه يعقوب.. وكان ليعقوب اسم آخر هو إسرائيل.

سعد إبراهيم وسارة بحفيدهما، كما سعدا بإسحاق، وبعد عمر طويل توفيا.. عمر طويل أمضياه في نشر التوحيد والعدل.. عانى خلاله إبراهيم التكذيب

(١) صحيح البخاري (٣٣٧١).

والقسـوة من قومـه، وعانى هو وأهل بيته مرارة التشـرد والغربة والشـوق للذرية، ولمـا رزقـه الله إسـماعيل امتحنـه الله بالبعد عنـه، وتركه في وادي بكـة وحيدًا مع أمـه.. كانت سـنوات قاسـية جـدًّا على قلب هـذا الشـيخ النبي، لكن ذلـك يهون في سـبيل نشـر توحيد الله ونشـر العدل.. بنى المسـجدين الحرام والأقصى، وها هـو اليوم يمـوت قرب الأقصـى، فيبكيه أبناؤه وأحفـاده وأتباعه.

يكـون نبيًّـا لم يـذق طعمًا للتـرف ولا للاسـتقرار، فكافأه الله بمنزلـة عظيمة، وأمـر العالـم بالسير على منهاجه فـي الإخلاص له، وعدم الشـرك بـه، أو التعلق بغيـره مـن البشـر أو القبـور أو الشـجر أو الحجـر أو الكواكـب، فقـال سـبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، اسـتلم راية التوحيد بعده ابنه إسـحاق، ثـم ابنه يعقوب، وبعد سـنوات غادر يعقوب الأرض المقدسة، وسكن البادية، ورزقه الله ببنات، وعشرة بنيـن، وكانـت آخـر زوجاته بارعـة الجمال جدًّا، بـل هي أجمل نسـاء الدنيا.

شـعرت تلـك الزوجـة بأعـراض الحمل، وبعد تسـعة أشـهر أشـرق فـي بيت يعقـوب طفـل ليـس كالأطفال.. أشـرق جمـال على هيئـة طفل.. حملـه يعقوب بيـن يديـه، فرأى جمـالًا لم ير مثله أحد.. شـغف قلبه وسـماه (يوسـف)، وتعلق بـه كمـا يتعلق قلب الكبير عـادة بأصغر أبنائه رحمـةً وحبًّا، فكيـف بطفل كأنه من أطفال الجنة.. طفل قال عنه ﷺ: «أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسْنِ»[1]. ما أعذبـه، وهـو يحبو بين يعقـوب وأمه راحيل! ومـا أجمله وهو يحاول المشـي بينهمـا! فيسـقط فـي حجرها أو حجـره، لكن هذا الجمـال كان يثير نارًا للحسـد، لا تطـاق فـي قلوب بعـض أخوته.. حسـد جعلهم يعقـدون اجتماعًـا، يمحون به ذلـك الجمال إلـى الأبد.

---

(١) صحيح مسلم (١٦٢)، أما حديث: (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن) فرواه ابن أبي شيبة (٣١٩٢٠) بسند قوي حدثنا عفان حثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن رسول الله ﷺ، وهو سند مسلسل بالأئمة الثقات على شرط مسلم.

قمر بين الكواكب

كان الطفل يوسف يسحر القلوب بجماله وبراءته.. تتخاطفه أيدي النساء والفتيات، حين يزرن أمه، أو حين تزورهن أمه.. ظل يوسف وحيد أمه، حتى رزقها الله بشقيق له، سموه (بنيامين).. كان الصغيران قرة عين إسرائيل، لكنهما جمرتان في قلوب أخوتهما العشرة، الذين يشعرون أنهم أولى بالاهتمام من هذين الصغيرين، فهم أقوياء أشداء، يعينون أباهم، وينفذون أوامره.

تفاقم الحسد، حتى تمنوا زوالهما، خاصة يوسف الذي يرونه يخطف قلب والدهم، حتى قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، أعمتهم الأنانية عن رؤية المساحات الخلابة، التي يحتلونها في قلب أبيهم إسرائيل الطيب، الذي يحبهم، لكنه طيش الشباب، الذي يفسر أي التفاتة من الوالد على أنها صدود عنه، وبينما كان الأخوة منشغلين بيوسف.. كان يوسف منشغلًا بالسماء.. يحلق عاليًا بين الكواكب، وإذ بحركة تدهشه، وتثير استغرابه.



دنا منه أحد عشر كوكبًا، حتى سجدوا له، بل سجدت الشمس معهم أيضًا والقمر. انتبه الطفل من نومه، الذي ربما كان يستلقي بالقرب من والده، فنظر إليه يوسف بعينين بريئتين ساحرتين، فأخبره برؤياه، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

استنار وجه يعقوب، لكن خاف على طفله، فهمس به قائلًا: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، قد يسخرون منك، وقد يدركون معناها، فيخططون لإيذائك، ثم طمأن قلبه الصغير، وقال وحيًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾، أي سينعم الله عليك بمعرفة تفسير الرؤى، والنعمة الأعظم هي: أنك ستكون رابع نبي من سلالة جدك إبراهيم.

طوى الطفل سره، وخبأه في مكان قصي داخل صدره، لكن مؤامرة كانت تحاك ضده في الخارج.. حيث يعقد أخوته اجتماعًا حاسمًا للخروج بموقف من هذا الطفل، الذي احتل قلب والدهم.. تكلم بعضهم، فقال: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾. تناسوا أن يوسف مجرد طفل بريء.. حدق حسدهم بما معه من نعم الله، كما حدق إبليس بما مع آدم، وكما حدق قابيل بما مع هابيل.

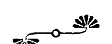
انتهى وقت اللعب يا يوسف

تطرف بعض أخوة يوسف، فاقترحوا اغتيال أخيهم الصغير، أو رميه في البرية، حتى يهلك أو تأكله السباع قائلين: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾، لكن أحدهم خفف من هذا التطرف، قائلًا: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، فلا فائدة من قتله. يكفيكم إزاحته كي لا يحول بيننا وبين أبينا.

راقت الفكرة لهم، فحددوا يومًا للتنفيذ، وقبل الموعد بيوم، دخلوا على أبيهم فحيوه، وجلسوا حوله، وناشدوه قائلين: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، نظر يعقوب إلى عيونهم.. تأمل وجوههم. أنصت للغتهم الجديدة، وقلبه يرتجف، خشية أن يفقد تلك العينين البريئتين، فقال: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾، ألم يدر بخلد يعقوب أنه لم يكن ثمة ذئب في الخارج، وأن الذئاب كلها في الداخل، ترمق طفله بعيون مخيفة.. تريد خطف أحب الناس إليه، لترميه في قعر بئر مظلمة، قد يفقد حياته داخلها، وقد يذهب عقله رعبًا بين طيها.

نطقت ألسنتهم بإجابة ممتلئة بالهياط: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾، نحن عصبة.. تلك هي الكلمة الفخ، التي أغرتهم وغرتهم.. وافق الشيخ على مضض، ولما أشرقت الشمس كان العشرة والطفل في طريقهم للبرية.. ساروا لا يفتشون عن مراتع للطفل، بل عن بئر ملائمة على طريق السيارة، عل قافلة تعثر عليه فتلتقطه، وتريحهم منه. وبعد مسير وبحث، عثروا عليها. ربما كانت جافة، أو كانت كبيرة، وفيها مساحة تكفي لجلوسه أو وقوفه، ككثير من الآبار، وفجأة وبينما كان الطفل يلهو ببراءة.. لا يدري ما الذي يحاك له.

أطبقت عليه أيد غليظة.. تعال. انتهى وقت اللهو يا يوسف.. قامت تلك الأيدي بخلع قميصه، ثم رفعته عن الأرض، وعيناه زائغتان، لا يدري ما اسم هذه اللعبة المخيفة، ويناشدهم التوقف.. لم يتوقفوا، بل أخذوه نحو حافة البئر، ثم أنزلوه كدلو في غيابة الجب، وهو يناشدهم.. يصرخ. يستغيث، ثم ألقوا عليه نظرة أخيرة، ليتأكدوا من عدم موته. رفع الطفل رأسه، وتعلقت عيناه الدامعتان بدائرة البئر، التي تطل منها عشرة رؤوس، وفجأة انقشعت الرؤوس، وظلت عيناه معلقتين بالسماء، فأيقن أن أخوته قد تخلصوا منه، وأنه لن يرى راحيل ويعقوب الحبيبين.



مسيرة اللطم والنواح

في قاع البئر المظلمة، كان يوسف عاري الجسد خائفًا.. يناشد عشرة رؤوس تطل من فوهة البئر وتحدق به، ولها ثرثرة، وفجأة انقشعت الرؤوس، وقبل أن يستبد به الخوف، أو يذهب عقله من الرعب.. أنزل الرحمن الرحيم على قلبه السكينة، وأوحى إليه بالطمأنينة.. كلمات تقول له: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، انقشع المتآمرون عن البئر، بينما كان

أحدهـم يمسـك بقميـص يوسـف ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ فلطخوه بذلك الـدم الـذي قـد يكـون دم طيـر أو دابـة. وبذلك انتهـت المهمـة، ولم يبق سـوى تسـليم الدليـل للوالـد، ليتأكد من فناء يوسـف.

غابـت الشـمس فتحولت فوهـة البئر المضيئة إلى دائرة سـوداء، تشـع خلالها بعـض النجـوم، وكأنها نهاية نفـق مخيف، ولما دخل وقت العشـاء كان الشـباب الطائشـون يقبلون على الديـار بتثاقل.. يتظاهـرون بالحزن والبـكاء، كلما قابلهم أحـد، ولما اقتربـوا من البيت، بدأ مسـتوى التباكـي والنواح يرتفـع.. دخلوا على أبيهم، فرفع الشـيخ رأسـه وحدق بمسـرحية الحزن والمناحة التي تعرض حوله، حين جاءوا ﴿أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾.

وقبـل أن يسـأل يعقـوب أو يستفسـر. مـد أحدهـم القميـص لوالـده، فأخـذه الشـيخ وبـدأ يقلـب ويتأمل قميـص حبيبـه، ويتأمل الطريقـة الغبية لصبغـه بالدم، فبكى قلبه حزنًا وشـوقًا، واسـتودع الله صغيره، ثم تأمل دموع التماسـيح في عيون الممثليـن أمامـه، فزفر بكلمـات كالجمر. كلمات كشـفت هزال مسـرحيتهم، ثم قـال ﷺ لهـم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فاضـت عينـاه وبكـى، وأقبلـت أمه (راحيـل) ملهوفة مفجوعة، تسـأل عـن سـبب هـذا البكاء والعويـل.. نظرت إلـى الشـباب، فلم تجد يوسـف بينهم. أيـن ابنـي يا يعقوب؟



أراهـا قميصـه الـذي يدين أخوتـه، فصرخت وناحـت واحتـرق جوفها: كيف يأكلـه الذئب، وأنتـم حوله. أيـن هياطكم وتعهدكـم بحمايته؟

لم تجـد إجابـة، ظلـت تبكـي طفلها طـوال الليـل، وأشـرقت الشـمس وهي تبكـي.. لم تـذق طعمًا للنوم ولا للطعـام.. مـرت الأيـام والعبرة تخنقهـا، كلما وقعـت عيناهـا على فراشـه، أو قلبت ملابسـه، أو جمعت ألعابه.. يرتفع شـهيقها

كلما تذكرت جماله وبراءته، التي تزين البيت والحي، ويزيدها يعقوب حزنًا حين يؤكد أن الذئب لم يأكله، فهل باعوه أم تركوه عاريًا جائعًا خائفًا.. أسئلة لا إجابة لها سوى الدموع.

الطفل والقافلة

أمضى يعقوب ﷺ وراحيل ليلتهما يبكيان طفلهما.. لم تجد الأم طعمًا للنوم، ولا لذة للطعام، وطفلها لم يعد بينهما.. ترى أين هو؟ حتمًا يوسف ليس في جوف ذئب.. هذا ما كان يعقوب على ثقة منه. فطفلهما في بئر مظلمة.. يهتز جسده الصغير كلما نعس.. ينتفض كلما أعياه البكاء والتعب، حتى أشرقت الشمس.

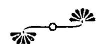
رفع الطفل رأسه نحو فوهة البئر، فإذا هي قد عادت لتنير شيئًا فشيئًا، مرت الساعات، وفجأة سمع حركة وأصواتًا في الأعلى. لعلهم إخوتي ندموا، فعادوا لأخذي.. لم يكن الصوت صوت إخوته.

كانت سيارة أناخت عند البئر ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾، لجلب بعض الماء.. خفق قلب الطفل فرحًا، فمد يديه نحو الدلو والحبل، فشعر الوارد باهتزاز الحبل، وانجذاب الدلو قبل أن يمتلىء. حدق بقاع البئر، فإذا هو بطفل يمسك بدلوه، وينادي.. صاح الوارد برفاقه؛ ليروا ما لا يمكن تصديقه، وهتف: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾، نظر المسافرون بعضهم إلى بعض مستغربين، وأقبلوا نحو البئر وأطلوا، فطلبوا من الطفل التمسك بالحبل، أو نزل أحدهم لرفعه. بدؤوا بسحب الحبل برفق خوفًا عليه.

وفجأة أشرق القمر من ظلمة الجب.. طفل لم يروا مثل جماله.. تبدو عليه آثار الجوع والسهر والتعب.. ترى هل سقط، أم أسقط؟ ومن يجرؤ على

رمي طفل، فكيف بطفل بهذا الجمال؟ أخرجوه وسقوه وأطعموه وألبسوه ثيابا فغدا كالقمر.. سألوه عن اسمه وقصته، فعرفهم بنفسه، وأنه ابن يعقوب النبي، وأن إخوته ألقوه في الجب، ولم يتركوا له حتى قميصه الذي يستره. لم يأبه المسافرون به، ولا بنبوة أبيه.. ما يهمهم هو أنهم حصلوا على عبد، يدر عليهم دراهم.. حولوا ابن نبي الله إلى سلعة، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، فهو لا يصلح للخدمة، نظرًا لصغر سنه.

أخبرهم بشوقه لأمه.. لأبيه، لكنهم لم يبالوا، بل أركبوه فوق إحدى مطاياهم، ثم تحركت السيارة متجهة نحو مصر، التي كان يحكمها آنذاك ملوك، يقال لهم (الملوك الهكسوس)، وبعد أيام دخلوا مصر الجميلة. تهادوا عبر شوارعها، وهدفهم سوق النخاسة، وبعض المارة يتأمل هذا القمر الحزين، فتخفق قلوبهم. توقفت السيارة في السوق، فأنزلوه وعرضوه للبيع. كانت عيناه البريئتان تتلفت أمام تحديق المتطفلين، وتفحص التجار والمشترين، تتلفت وكأنها تبحث عن حضن راحيل، أو طيف يعقوب، وفي أثناء تلفته رأى رجلًا أنيقًا، يبدو عليه الثراء.. يتهادى نحوه.





أجمل عبد على الأرض

كانت التساؤلات تعصف بقلب يوسف الصغير.. عيناه البريئتان تائهتان، وهو يعرض للبيع في سوق العبيد بمصر، وإذ برجل أنيق يقترب منه.. ينظر إليه فيرق له، ويسكن قلبه، فيلتفت للبائع ويسوم الطفل، فلم يتردد أصحاب السيارة في بيعه، ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

أنزله الرجل العزيز من منصة البيع، وأخذ بيده الصغيرة نحو منزله، وقد ملأ الرحمن قلبه برحمته.. تهادى معه في الطرقات، أو ركب معه إحدى العربات

الهكسوسية، والطفل الحزين لا يدري ما مصيره، فالحياة تتقلب أمامه بشكل سريع وصادم ومفاجيء.. كان بالأمس في حضن راحيل ويعقوب، ثم أصبح وحيدًا في قعر بئر مظلمة، لا أنيس فيها سوى الله، ثم تحول إلى بضاعة تجلبها القوافل، وها هو اليوم لا يدري أنه عبد، ولا إلى أين سيؤخذ، ولا ما سيفعلون به.. هواجس لن يزيحها سوى رؤية راحيل ويعقوب الحبيبين.

توقف العزيز عند أحد المنازل الفخمة، ثم دخل وبيده أجمل عبد على الأرض.. هتف بزوجته فأقبلت.. فتحت عينيها على طفل كالصباح، فتأوه قلبها من جماله، فبشرها زوجها، وقال ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾، عانقت جماله، ونادت خدمها، فأمرتهم بتنظيفه، وإلباسه ثيابًا جميلة. غسلوا جسده الصغير، وسرحوا شعره الناعم، وألبسوه ثيابًا زادته فتنة وجمالًا.. تلألأ كألماسة، ثم أطعمته وسقته، واعتنت به حتى ملأ حبه قلبها يومًا بعد يوم.. كبر الطفل، وكبر حزنه على أمه وأبيه، اللذين يبكيانه منذ رحل عنهما.. تجاوز يوسف سن المراهقة، فازداد جماله، وازداد شوقه لأهله، رغم أنه يتقلب في الدلال.. كان مؤدبًا عفيفًا.. يزداد وفاءً لسيده الذي أكرمه، ويزداد رجولةً وأخلاقًا، يزداد جماله حتى بلغ مستوى فردوسيًّا، هو (شطر الحسن)[1].

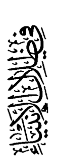
كان فتنة للنساء أينما حل وأشرق.. حتى زوجة العزيز تغيرت، منذ أن بدأ يوسف يخطو أولى خطوات الرجولة.. غيَّرها جمال لا يُرى إلا في الجنة.. خلت منه الأرض، فاستقر في بيتها، فأنساها أنه ذلك الطفل، الذي اشتراه زوجها قبل سنوات.. في البداية كانت تخاف عليه، ثم أصبحت تغار عليه.. أمسى في نظرها معشوقًا لا تطيق فراقه، ولا تريد لأحد أن يعلم أين تخبئه في قلبها، أما ما زاد افتتانها به، فهو تعففه ورجولته، التي تترفع عن الخيانة لسيده.

(١) صحيح مسلم (١٦٢).

حصار عاشقة

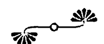
أصبح يوسف في نظر زوجة العزيز معشوقًا لا تطيق فراقه، وزاد من افتتانها به تعففه ورجولته، التي تترفع عن خيانة سيده، والنساء لا يحلمن بشيء كحلمهن بالعفيف الجميل.. حاولت العاشقة أن تظهر له أنها تغيرت.. وأنها لا تمت له بصلة قرابة.. شعر الفتى بذلك، وشعر بفداحة الخيانة، لمن فتح له بيته، وأكرمه وعامله كابنه.. كان يخشى الله في مال سيده وعرضه، لذا كان يتجاهل كل قوائم الإغراء، ولوحات الأنوثة، التي تُعرض عليه، وفي أحد الأيام كان يوسف في البيت لوحده.. خلوة لا يمكن إلا لمن عصمه الله من الأنبياء والأولياء أن ينجو منها.

مشت المرأة نحو الأبواب، تقفلها بابًا بابًا، لتطمئنه أن لا أحد يراه، أو يدخل عليه.. أقبلت على الفتى الطاهر، فإذ به يصدم بخطواتها ومآربها، ذكرها أن لها زوجًا، وأن لزوجها عليه معروف، لن يتنكر له، لكنها لم تتراجع، فالخلوة حالة سكر.. يغيب فيها العقل والتفكير في العواقب، فكيف إن كانت الخلوة بأجمل البشر.. الخلوة بيوسف كمن ينظر إلى الشمس في رابعة النهار.. تغيب لحظتها كل الكواكب والنجوم والأجرام.. دنت منه ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لكن المرأة لم تعد تبالي سوى بمعشوقها.. أصبحت الدنيا بأسرها مختزلة في هذه اللحظة.



اللحظة التي طالما هدمت بيوتًا، وضيعت أسرًا، وورثت أطفالًا.. لا يدرون من رمى بهم إلى هذه الدنيا.. لقطاء، كلما رأوا طيفًا يشبههم بكت قلوبهم، وقالت: ترى هل هذا هو أبي، هل هذه هي أمي؟ وفي لحظة ضعف بشرية همَّ بها يوسف.. تحرك قلبه، وما إن همَّ قلبه، حتى شع في قلبه الضوء، الذي أناره، وهو يقبع في قعر البئر.. شع في قلبه برهان ربه، ودليله على أنه نبي

وابن نبي، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، أفاق يوسف.. التفت إلى أحد الأبواب، ثم ركض نحوه ليهرب منه، فركضت المرأة خلفه، حتى أمسكت بقميصه من الخلف ثم جذبته، فإذ بصوت القميص ينشق، فينكشف ظهره، ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾، ظل يوسف يركض بقميص ممزق نحو الباب الخارجي، وقبل أن تقبض يده على العروة فُتح الباب.. فتحه شخص من الخارج، فصعقه المشهد.



يوسف يتلقى الطعنات

فتح الباب، فتوقف يوسف، وتوقفت المرأة خلفه، وهي تمسك ببقايا القميص.. اتسعت الأعين، وارتجفت القلوب لهول المفاجأة.. إنه زوجها العزيز.. هو من فتح الباب.. تحنط الثلاثة.. حنطتهم المفاجأة.. ارتجفت المرأة، وتساءل صمت العزيز: مم يهرب يوسف، ولِمَ تقف زوجته خلفه، وصدرها يعلو وينخفض؟ ولماذا تمسك بقميصه المشقوق.. هل تريد أن ترقعه مثلا؟ وقبل أن يحلل المشهد، وقبل أن يتكلم.. نطق الكيد.

ضحت بمعشوقها.. ضحت بحب يوسف، وجمال يوسف، وفتنة يوسف، من أجل إنقاذ نفسها، حين ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فيوسف هذا متحرش شرير، وهي تركض خلفه، لأنها كانت تريد تأديبه وضربه حفاظا على شرفك، لذا فهو يركض خوفا منها وهربا من العقوبة.

ذهل يوسف.. اتسعت عيناه من وقاحة المرأة وجرأتها.. ذهل من تحولها من متحرشة إلى سيدة للعفاف.. من حمل إلى لبؤة تمزق من يقف أمامها، وذهل العزيز أيضا فلم ينطق بحرف.

هنا نطق يوسف المسكين فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾.

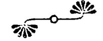
تحول المشهد إلى خنجر، يسافر في قلب العزيز.. أسكته الحزن والحيرة بين الزوجة والابن، لذا استشار شخصًا حكيمًا من أهلها، فإذ به يقول له: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، لأنها مزقت القميص، وهي تدافع عن نفسها، وتقاوم اعتداءه. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، لأنه قد أعطاها ظهره وولى عنها.

عاد العزيز لبيته وتأمل القميص، فإذ بقميص يوسف هو الدليل كالعادة، لكن بما أن شيئًا لم يحدث، وأن المسألة مجرد نوايا، قام العزيز بتوبيخها، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، ثم قال لها: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾، ثم التفت إلى يوسف طالبًا منه أن يتناسى الأمر، وكأن شيئًا لم يحدث، وقال له: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾.

تناسى يوسف المرارة، لكن المرأة لم تتناسى هزيمتها.. قررت الانتقام لأنوثتها من معشوقها، فقد انتشر خبر التحرش في المدينة، ربما من ثرثرتها، فبدأ بعض النسوة اللواتي كن يحسدنها على يوسف بالتشفي منها.. يسخرن من استعلاء الفتى وترفعه عن إغوائها وإغرائها وتمريغه لأنوثتها ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.



وصلت وشوشة المجالس إلى مسامع العاشقة المنكسرة، فقررت أن يعشن شيئًا من معاناتها.. قررت أن تلقنهن درسًا كي يبتلعن ألسنتهن.



درس للشامتات

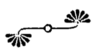
أرسلت زوجة العزيز بعض خدمها ببطاقات دعوة شفهية، لجاراتها وصديقاتها اللواتي شمتن بها. خرج الخدم نحو بيوت النساء بيتًا بيتًا..

يدعونهن لوليمة خاصة. لم تتردد النساء الفضوليات في تلبية الدعوة.. إنها دعوة لا يمكن رفضها، كيف لا، وبعض الحديث سيكون عن يوسف الفتان، وفي بيت عاشقته.. كيف لا، وهناك سبق من المصدر نفسه.

أشرق يوم الاحتفال، فهيأ الخدم المكان حسب أوامر سيدة الحفلة، ووزعت المقاعد، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾، في اتجاه يخدم هدفًا، ووضعت المشروبات، وصفت أطباق الفواكه اللذيذة بشكل أنيق، أما المدعوات فارتدين الملابس الأنيقة والحلي، واكتحلن وتعطرن، فاليوم يوم التنافس أمام أجمل أهل المدينة.. تداعت الخطوات نحو بيت العاشقة. تبخترت الأنيقات، علها ترى طيف يوسف.. سرن وضربات القلوب تسابق الخطوات، ولما وصلن كانت امرأة العزيز وخدمها في استقبالهن.. رحبت، ودعتهن للجلوس، فأخذن مقاعدهن، وتبادلن أحاديث المجاملة، والابتسامات الصفراء، وبعد ساعة قدم الخدم الفاكهة، ونهضت سيدة القصر، ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، حادة، ودعتهن بلطف، لإكمال حديثهن في أثناء تناولها، ثم تهادت بخبث نحو أحد الأبواب، التي تؤدي إلى مكان يتواجد فيه يوسف، منتظرًا أوامرها الصارمة. أقبلت نحوه بحزم، وأمرته أن يدخل على ضيفاتها، وأن يقف أمامهن دون أن يتكلم.. تقدمت، ثم قالت: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

أشرق البدر من الباب، وأفواههن منشغلة بالمضغ أو الثرثرة، وسكاكينهن منشغلة بالفاكهة.. أشرق يوسف، فارتجفت القلوب، وتوقفت الثرثرة، حتى الأفواه ظلت مفتوحة.. تاهت الأحرف منها.. شخصت الأبصار، والأيدي تحرك السكاكين دون وعي حتى جُرِحَتِ الأيدي.. كانت امرأة العزيز بجواره، لكن أحدًا لم يأبه بها، أو يخجل منها.. غابت المجاملة والشعور بالألم في حضور جمال الجنة.. جمال الجنة، الذي أذهلهن عن كل شيء.. عن الطعام والكلام والآلام وتعديل الملابس وخصلات الشعر.. ذهلن أمام هذا الفاتن،

الـذي لا يفصلهن عنه سـوى خطوات.. ينتزع قلوبهن قلبًـا قلبًا، وإذ بزوجة العزيز تصدمهـن، حيـن أصـرت على تمريغ هـذا الجمال فـي الوحل.



انتقام عاشقة

لم تقل النسـاء عن يوسف: إنه أجمل شباب المدينة.. لم يقلن: إنه أجمل أهل الأرض.. لم يجدن لجماله قاموسًـا بشـريًّا، فهذا الحسـن لا ينتمي لعالم البشـر، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وقف الملاك لا يدري ما يقول.. وقف بين سـيدة متسـلطة متحرشـة، ونسـاء منهارات، لم يأبهـن لنزيف أيديهن، فيوسـف جمال لا يوصف، ولا لغة تعبر عنه سـوى لغة القلـوب.. بدأت سـيدة القصر تلملـم كرامتها مـن أحرفهن المرتبكـة، ونظراتهن الزائغة.. شـعرت بالزهـو.. بالانتصار.. بالشـماتة بالشـامتات اللواتي لن يجرؤن على تناول سـيرتها بعد اليوم بسـوء.

هتفـت بهـن تعلـن نصرهـا عليهـن، ومعترفـة بنصـر يوسـف عليهـا، فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، لكـن العـزة أخذتهـا بالإثـم.. قررت إذلالهن، وإذلال يوسـف معهن، ويبدو أن لتلك السـيدة علاقات ببعـض المتنفذين، لذا قامت بتهديده أمام النسـاء بلا خجل، قائلة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾، فهـي لم تعـد تهتم لشـماتتهن بعد أن رأت انهيارهـن أمامـه، أمـا الفتى فشـعر بالحزن، وهو يتلقـى التهديد.. شـعر بالضعف أمـام جمـال ألقاه فـي بئر.. جمـال حوله مـن (الكريم ابـن الكريم بـن الكريم بن الكريـم)[1] إلى عبد ذليل، بين نسـوة لا يسـتطعن السـيطرة على غرائزهن.. شـعر بقلـة الحيلـة، لكنـه أدرك أنـه فـي معيـة الله، الـذي لم يخذله فـي مواقف أشـد..

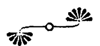
(١) صحيح البخاري ٣٣٩٠.



تناسى الأرض، وتعلق بالسماء، وتوجه إليه سبحانه، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أدركت السيدة أن عبدها أكثر حرية منها، وأنه أرقى منها بسماوات.. فعبدها فضَّل أن يكون حرًّا في السجن، على أن يكون عبدًا للمعصية خارجه. استطاعت المرأة استصدار أمرًا بسجنه، فقرروا ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، بعد أن قضى من عمره أكثر من خمس عشرة سنة من الرق والغربة ومرارة الذل بتهمة الجمال والحب، وها هم السجانون يقتادونه، لتبتلعه الزنزانة مدة لم يحددها قضاء، بل يتحكم بها مزاج سيدة متحرشة.. ظلت مصرة على إبقائه داخل السجن، ما دام مصرًّا على العفاف.

نسيته المدينة، وتناسته النسوة، وحتى العزيز نسي أمره.. اثنان لم ينسياه يومًا، ولم يتوقفا عن البكاء عليه. يعقوب وراحيل.



أصبح نبيًا في السجن

في اليوم الذي ابتلعت فيه الزنزانة يوسف دخل ﴿مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾،) وثنيان.. اقتسم الثلاثة الزنزانة، وأمضيا مدة، تعلم الفتيان خلالها من سمت يوسف وعبادته الكثير.. كان متواضعًا رغم ما حباه الله به من جمال، فكم من فتى جميل ضيعه جماله، وكم من جميل أنساه جماله فضل الله عليه، وفي السجن بدأت نبوة يوسف.. بدأت حين قال لزميليه في الزنزانة: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾.

أدرك الفتيان أن يوسف فتى ملهم، وأنه ابن نبي وحفيد نبي، فبدأا يستشيرانه، ويستنيران برأيه، وذات يوم أفاق أحدهما من رؤيا غريبة، فطلب

من يوسف تفسيرها، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾، فتذكر الآخر رؤيا رآها، وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. وقبل أن يفسر الرؤيا لرفيقيه.. أحب أن يقدم لهما أهم رسالة يحملها الأنبياء وأتباعهم، وهي (التوحيد)، رسالته ورسالة والده وجده، ورسالة كل الأنبياء قبلهم وبعدهم، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، ثم خاطب عقلي صاحبيه، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، ثم بين لهم أن الوثنيين ضحايا العادات والتقاليد، وأن الآلهة التي يعبدونها مجرد أخشاب وصخور، يشكلونها بأيديهم.. أنتم أرقى منها، وأنتم من يتحكم بها، ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ثم التفت لصاحب الرؤيا الأولى فبشره، وقال: إنك ستكون ساقي رجل مهم، وأخبر الآخر أنه سيحكم عليه بالصلب، وسيبقى مصلوبًا حتى تنقر الطيور الرامة رأسه، وهو مصلوب. قال يوسف: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، وبعد أيام أو أشهر سمع المسجونون أصوات خطوات السجانين، وهم يقفون أمام الزنزانة.. فتحوا بابها. ثم حدقوا بأحد الفتيين.. بادلهم النظرات، وهو يرتجف.. إنها اللحظة المحتومة، التي تحدث عنها يوسف.. الصلب.

أخذ السجانون رفيق يوسف.. ساقوه نحو ساحة الإعدام، ثم صلبوه، وبعد مدة فاحت رائحة جثته، فإذ بالطيور الرامة تحلق فوقها، وتحوم، ثم تهبط على الخشبة، وعلى رأسه فتنقره، وتأكل منه، وقبل ذلك أو بعده أقبل الحرس؛ ليأخذوا الفتى الآخر، ولكن بطريقة ودية، وقبل خروجه استوقفه يوسف، وناشده أن يحرك قضيته عند سيده، لأنه يبدو أن الناس قد نسوه، ونسوا قضيته، وقال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

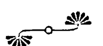
خرج الفتى من السجن، ثم تدرج في الوظائف، حتى أمسى ساقي الملك الهكسوسي، فانشغل بما هو فيه من نعمة، وأنساه الشيطان والانشغال بالخمر يوسف، الذي اقترب من الثلاثين من العمر.. لا أحد يأبه به، فهو عبد مقطوع الصلة بالمجتمع، حتى أولئك النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وتمنين وصاله ولو لساعات، لم تتحرك ضمائرهن لمناشدة السيدة المتسلطة، أن تعفو عنه.

لم يكن في الزنزانة ما يسلي سوى القرب من الله سبحانه، والأنس بذكره في روحانية شفافة، لا يعكر صفوها شيء.. تتماهى روحه بأنوار الحب لله، فيتلاشى الشعور بالحبس.. ظل يوسف في عبادة، وكأنه ملاك في زنزانة تتضوع بذكر حبيبه ومناجاته سبحانه، أما خارجها، وبالتحديد في قصر الملك، فقد كان هناك مشهد مخيف.. سبع بقرات عجاف، قد بدت أضلاعهن من الهزال والضعف، يهجمن على سبع بقرات سمان، تتفجر ضروعهن لبنًا.. دنت الهزال من السمان، وفتحن أفواههن، ثم بدأن يلتهمن السمان، وكأنهن من السباع الضواري.. كان هذا المشهد يحدث وسط اهتزاز أربع عشرة سنبلة.. سبع خضر، وسبع يابسة.



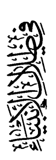
أفاق الملك الهكسوسي من رؤياه فزعًا.. جلس على سريره متضايقًا، ولما غادره، واغتسل ولبس حلته الملكية وحليه، وخرج محاطًا بحرسه.. ظل يمشي

فـي ممـرات القصر مهمومًـا، حتى وصل عرشـه الـذي اصطفت حاشـيته حوله، وانحنـت لـه، ثم جلـس على العرش، وقدم له السـاقي شـرابه.. نظـر الملك لمن حولـه، والحيـرة تلون وجهـه، وأخبرهم عـن رؤياه، قائـلًا: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾، كانـت الرؤيـا رمـوزًا مخيفة، ورغـم أن الملك هـو من رآهـا، إلا أن الحاشـية عجزت، حتى عن صبـغ رموزها بألـوان التفاؤل.. عجـزت حتـى عـن رفـع معنويـات الملـك، وإذ بالسـاقي يتذكـر رفيـق الزنزانـة يوسف ﷺ.



يوسف يرفض مغادرة السجن

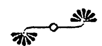
تمنـت الحاشـية أن يتجاهل ملكهم هذه الرؤيا، التـي أقلقته قائلين: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾، هنا تذكر السـاقي رفيـق الزنزانة.. تذكر الفتى صـادق التعبير، الـذي تحققـت نبؤته فيه، وفـي زميلـه المصلوب، فنظـر للملك بحماس، وقـال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾، للسـجن، ففي إحـدى زنزاناته شـخص لا يكذب تفسـيره للرؤيـا. طلب الملك فـورًا تمكين السـاقي من دخول السـجن، فانطلق بصحبة الحرس.



فتحت البوابات للسـاقي، فتهادى في الممرات، التي تومض فيها المشـاعل.. ممـرات مخيفـة، وكأنها بنيت مـن الآلام والذكريـات المريرة.. ظل يمشـي حتى أصبـح أمـام الزنزانـة، ففتـح البـاب ودخـل السـاقي، فتأملـه يوسـف ﷺ وعرفـه رغـم السـنوات.. نظـر إليـه وفـي عينيـه عتـاب.. تبادلا التحايـا، ثـم قال السـاقي: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ثـم سـكت. نظـر إليـه يوسـف، ثـم نطق وحيًا، فأنصت السـاقي لتأويـل الرؤيا باهتمام، ثم ودع يوسـف

وعـاد للملـك، والخوف يملأ قلبه. ومـا إن أصبح أمامه حتى أخبـره: أن الصديق فسـر لـه الرؤيـا، وضمنها نصائح سـتفيد الدولـة، رغم أنه في السـجن، فيوسـف يقـول: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، ذهـل الملـك مـن دقـة التفسير، وزاد السـاقي ذهولـه، عندما أخبره أن يوسـف سـبق أن فسـر له رؤياه ورؤيا صاحبه، فتحقق التفسـيران.

هنـا أصـدر الملـك أمرًا بإحضـاره للبلاط فـورًا. انطلـق الرسـول، ولما دخل على يوسـف بشـره بالعفو الملكـي، وطلب منه بشـكل لطيف أن يصحبـه مكرمًا إلى الملك. ظن الرسـول أن يوسـف سيسـابقه إلـى القصر، لكنـه لم يتزحزح من مكانـه، ولم يأبه بالإفراج عنه.. نظر إلى رسـول الملك، وحمله شـرطًا للخروج، قائـلًا: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، عـاد الرسـول فأخبر الملـك الذي كان خائفًا علـى اقتصاد دولته وأمنها، لا سـيما وهو من الهكسوس، وهم يخشون من عودة الفراعنة.. كان متلهفًا لرؤية الصديق، لكن قصته المجهولة مع النسـاء شـدته، فأمر بالبحث عنهـن، وإحضارهن إلى البلاط.



وأصبح العبد أميرًا

انطلـق الحرس نحـو امـرأة العزيز، التي اسـتغلت سـلطة زوجهـا، وعلاقاتها فـي تلفيـق التهـم، لأصـدق وأطهـر وأجمـل مـن يمشـي علـى الأرض، فدلتهـم علـى أبواب النسـاء.. تم اسـتدعاؤهن واحدة واحـدة، وهن يرتجفـن.. لا يدرين ما جريمتهـن، حتـى أصبحـن جميعًا أمـام الملك.

شـعرت امـرأة العزيـز بتلاشـي علاقاتهـا بالمسـؤولين، أمـام حـزم الملـك، الـذي اسـتأمنهم، فاسـتغلوا ثقتـه. وقفت أمام حاكـم لا وقت لديـه؛ ليضيعه على

ثرثرتهـن وكيدهـن.. حدق بوجـه امرأة رمـت غرائزها فتى في السـجن لأكثر من سبع سنوات، لمجرد أنـه جميل عفيـف. صاح الملـك بالنسـاء: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، فارتجفـن، و﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

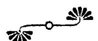
هنـا انهـارت امرأة العزيـز، التي كانـت بالأمس تهـدد وتتوعد.. انهـارت أمام ملـك حازم، تسـقط أمـام حزمه سـلطات من دونـه، فاعترفـت مباشـرة، وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، خرجـت النسـاء مـن القصـر خجـلات بعد أن تم إثبـات براءة الفتـى المظلوم، الذي أمضـى أزهى أيام عمـره في السـجن ظلمًا، أما الملك الحكيم فلم يملك نفسـه من شـدة الإعجاب برجولـة يوسـف وأمانتـه ووفائـه وصدقـه وعفافه.. مباشـرة أصـدر أمـره بتعيينه مستشـارًا خاصًّـا له، قبل أن يخـرج من زنزانته، وقـال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

انطلـق الرسـول، ولما دخل على يوسـف أخبره بشـهادات النسـاء، واعتراف امـرأة العزيز بذنبهـا وظلمها، فتهلل وجه الصديق، ولمعـت عيناه فرحًا، وامتدحه نبينـا ﷺ علـى موقفه، فقال: «لو لبثت في السـجن ما لبث يوسـف لأجبت الداعي»[1].

ملأت السـعادة قلب يوسـف ﷺ وخـرج للحياة مجـددًا، كما خرج من الجب، وتوجـه نحو القصر معـززًا مكرمًا، ولمـا وصل كان الملك بأحر الشـوق للقائـه. وصل يوسـف، فأشـرقت النبوة الوسـامة والأدب والصـدق على مجلس الملـك.. تكلـم فذكـر لمـن حولـه سـبب رفضه الخـروج من السـجن. وهـو أنه يريد أن يعلم سـيده السـابق ثبوت براءته تمامًا. قال يوسـف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثـم تكلـم الملك مطمئنًا يوسـف، ومصدرًا أمـره بتعيينه في

(١) صحيح البخاري (٣٣٧٢).

أرقى المناصب، فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أدرك يوسف ثقل الأمانة، فاجتهد في الإخلاص لدولته، رغم أنها دولة وثنية.



نبي وزير في دولة وثنية

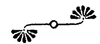
أصبح النبي الأمين يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخيرًا.. ينتقي من المناصب ما يريد، فنظر إلى مصلحة دولته، حتى وإن كانت وثنية.. لم يضيع وقتًا بالرفاهية، ولم ينشغل بالإثراء على حساب وزارته.. لم يطلب من الملك شيئًا لنفسه.. لا مرتبًا ولا قصرًا ولا خدمًا، بل لم يقدم التماسًا يرجوه فيه البحث عن والديه وأخيه، الذين يشتاق لهم منذ قرابة ربع قرن.. أصبحت الدولة والشعب والملك همه الأول والأخير.. شعر بحاجة الدولة لمشروعات وخطط مستقبلية للأمن الغذائي المهدد بالخطر، لذا أخبر الملك بأهم قدراته التي قد تعود على الوطن بالنفع، فقال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.



صدر أمر ملكي بتعيينه مسؤولًا عن الاقتصاد.. أصبح العبد أميرًا.. أصبح مسؤولًا عن إطعام الأيتام والفقراء والعبيد، وحتى الأغنياء. مباشرة أمر الوزير الجديد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بإنشاء ما يشبه صوامع للغلال للادخار، وشجع زراعة القمح تحسبًا لأيام كساد وجفاف مخيفة متوقعة، فغير بنزاهته وعدله ومشروعاته الناجحة حال بلاده، والبلاد المجاورة لبلاده إلى الأفضل.. غيرها برسالة الأنبياء الثانية، وهي العدل، بعد أن مكّن له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

مرت سبع سنوات عامرة بالتخطيط والعمل الجاد والأمانة، والنصح للدولة والشعب وللملك، الذي وضع ثقته فيه.. سنوات عامرة بالرخاء والخصب

والإنتاج الغزير.. أصبحت تلك البلاد الوثنية من أغنى البلدان زراعيًّا، لأن القائم على التخطيط فيها وزير مسلم نزيه مخلص لدولته ولو كانت وثنية.. وزير يجمع إلى خوف الله ومراقبته والنزاهة، فرض النظام وعدم إعاقته من أي كائن كان.. تزوج يوسف خلال تلك السنوات، فانكسرت قلوب أولئك النسوة وغيرهن حسرة عليه، ورزقه الله بذرية طيبة. مرت سبع سنوات، فبدأت ملامح تفسير رؤيا الملك المخيفة تتشكل على الأرض.. بدأ عهد الجفاف والسنابل اليابسات ينتشر، لكن الملك كان مطمئنًا لخطط وزيره المستقبلية.. واثقًا من إعداده العدة لأقسى الظروف، التي لم تعصف بمصر فقط، بل اجتاحت المناطق المجاورة.. لم يكن يوسف أجمل أهل الأرض وجهًا.. كان أنجح وزراء الأرض.. كانت نجاحاته عطرًا يتضوع في كل البلاد.



هؤلاء الذين أتعسوا حياتي

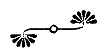
أصبح اسم الوزير يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رمزًا للنزاهة والعطاء والنجاح.. تفوق على زملائه الوزراء الوثنيين: إبداعًا وإنتاجًا وتواضعًا بمراحل.. ما أعذب الوزير حين يجمع خوف الله مع تنفيذ النظام بحزم.. كان يوسف يذوب رحمة بين أيدي الفقراء والمحتاجين الوثنيين حتى من غير شعبه.. ينصت لشكاواهم ومطالبهم.. يحاول تخفيف آلامهم وما بهم فعلًا وإنجازًا.. لا تخديرًا ووعودًا كالسراب.

وذات يوم، وبينما كان يستقبل المراجعين والموجوعين والوفود، الذين يغص بهم ديوان وزارته.. دخل عليه وفد ناحلة أجسادهم شاحبة وجوههم.. شخص بصره لهول ما يرى، فقد تغيرت تقاسيم وجهه رحمة بحالهم، لكن رحمته تلك كانت ممتزجة بذكريات بالغة المرارة، فهذا الوفد.. هو الذي أخذه ذات يوم وهو طفل صغير لتلك النزهة التعيسة.. هذا الوفد هو الذي ألقاه وغيبه في تلك البئر المخيفة.

تأمل العشرة واحدًا واحدًا.. هذا هو من طلب من والده أن يخرج معهم، وهذا من كان يتعامل معه بطريقة فظة في الطريق، وهذا من خلع قميصه، وهذا من صبغ قميصه، هؤلاء هم من ألقوه عاريًا في تلك البئر المظلمة، وهو يصرخ ويبكي.. هؤلاء الذين حرموه أحضان أمه راحيل الحبيبة، ودلال يعقوب الطيب، وأخيه بنيامين.

مهلًا: أين بنيامين؟ إنه ليس معهم.. ترى هل ألقوه في بئر أخرى، واتهموا به ذئبًا آخر؟ هؤلاء الذين نحروا طفولتي بخناجر الرق والعبودية والغربة، وحرموني دياري ومراتع صباي.. هؤلاء من أذلني حتى تحكمت بي وسجنتني امرأة لم أقصر يوما في خدمتها.. هؤلاء هم من كنت أظنهم عضدي وساعدي وسندي، لكن ورغم تلك المرارات رقَّ يوسف لحالهم، فهم يظلون إخوته، وأبناء أبيه إسرائيل الطيب.

أصابه الحزن وهو يرى ثيابهم الرثة، ووجوههم الشاحبة، وتوسلاتهم التي تقطع نياط القلب، فكيف هي حال والديه الحبيبين؟ أنصت لمطالبهم، ثم أمدهم بما يحتاجون من طعام وأكثر، دون أن يفتح ملفاتهم السوداء، أو يذلهم بها، أو يمن عليهم، فقد ابيضت أصداغهم، وكبروا، وأصبح البعض منهم جدًّا، ولا بد أن والديه الحبيبين يعانيان أكثر منهم، لكن يوسف لن يتركهم يرحلون هكذا، دون الحصول على إحداثيات أحبته، وعناوين خفقات قلبه.. قرر أن يحصل على شيء من آثار يعقوب وراحيل، عله يخفف شيئًا من لوعته، وأشواقه التي تحرق قلبه منذ ربع قرن.. طلب منهم طلبًا غريبًا، لكن الأغرب هو أن هذا الطلب لم يثر أي تساؤل في قلوبهم، التي زادها الجفاف جفافًا.

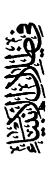


هل هناك بئر آخر ينتظر بنيامين

طلب يوسف ﷺ من إخوته قبل أن يغادروا، أن يحضروا أخًا لهم من جهة الأب، وكأنه يريد التأكد من وجود أخيه بنيامين حيًّا، وإلا فلن يحصلوا منه على أي بضاعة في المرة القادمة، فلما ﴿جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، وإذ بإجابتهم تحرق أضلاع يوسف، وتزيد لوعته، حين ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾.

أدمت الإجابة شغاف قلبه.. أدرك أن والده لا يزال يبكي عليه، رغم مرور ربع قرن على الفراق، وإلا لما تشبث بشقيقه بنيامين، وأبقاه بجواره، وقد تجاوز العشرين.. أدرك أن الشيخ لا يريد أن يفرط فيه، كما فرط في حبيب قلبه، الذي يحلم بعودته يومًا. آلمت يوسف تلك الإجابة، لكنه قام بحركة قد تلين قلب يعقوب، فيسمح بسفر بنيامين.

ففي أثناء انشغال إخوته بالحديث معه، استدعى بعض موظفيه، وهمس فيهم بشيء يثير الدهشة. قال ﴿لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فانطلق الموظفون في لحظات الانشغال، وأحضروا النقود التي دفعها إخوته، ثم تسللوا نحو رواحلهم، ودسوها في حقيبة من حقائب سفرهم.

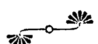


تلقى يوسف إشارة بإتمام المهمة، فودع إخوته دون أن يعرفهم بنفسه، ثم توجهوا نحو مطاياهم وركبوها، وأردفوا قلبه معهم، ومضوا وهو يتمنى لو كان أولهم دخولًا على يعقوب.. أقفت العير حتى غابت عن عينيه الدامعتين.. سارت قافلتهم وسارت، حتى وصلت باديتهم.. نظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم يتساءلون: هل سيثق أبونا بنا، ويعطينا بنيامين في المرة القادمة؟

ولما دخلوا باديتهم، عزموا على مصارحته، فأناخوا مطاياهم ونزلوا، ثم دخلوا على أبيهم يعقوب، الشيخ الطاعن في السن، فحيوه، وتحلقوا حوله، وأخبروه بكرم الوزير، وحدبه عليهم، ثم نغصوا عليه بذكر شرطه الغريب: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، بل أخبروه بتهديده، حين قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، ناشدوا والدهم إسرائيل أن يرسل أخاهم بنيامين معهم، فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

هنا تذكر الشيخ تحلقهم حوله قبل ربع قرن.. عصفت الذكريات بقلبه، فرفع حاجبيه الثقيلين، ونظر إليهم بعينين أضعفهما البكاء على يوسف، وقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

أخرسهم الخجل، وعجزوا عن الرد، فالجرح لا يزال مفتوحًا.. لا يزال ينزف، ويؤلم هذا الشيخ الطاعن في السن. نهض الأبناء العاقون مثقلين بتاريخهم الأسود، وخرجوا، لكن شيئًا حدث جعلهم يعودون لأبيهم مبتهجين. ظنًّا منهم أنه سيخفف شيئًا من أحزانه.



لا تدخلوا من باب واحد حتى لا أخسركم

تذكر الشيخ يعقوب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحلق أبنائه العشرة حوله قبل ربع قرن، فرفع حاجبيه الثقيلين، ونظر إليهم بعينين أضعفهما البكاء على يوسف، وقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، سكت الأبناء خجلًا.. شعروا بالعار، وهم سبب عذابات هذا الشيخ الطيب، منذ أن ائتمنهم على قرة عينه يوسف، لذا نهضوا من عنده، يسحبون خطاهم نحو إبلهم، التي أناخوها في الخارج.. بدؤوا يحلون الأربطة، وينزلون البضائع.

مـد أحدهـم يده نحـو خرجه أو حقيبتـه، ليخرج ما بهـا، وإذ به يصـرخ، وكأن حيـة تتلـوى داخلهـا.. لقد وجد مبلـغ البضاعة كامـلًا، قد أعاده موظفـو الوزير.. توجـه نحو إخوته يبشـرهم، فانطلقوا نحو أبيهم يحملون دليـل صدقهم، علَّ هذا التصرف النبيل من الوزير الرائع، يلين من تشـدده تجاه سـفر بنيامين.. دخلوا عليه وأروه النقود، وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾، لكـن خنجر يوسـف لا يزال منغـرزًا في قلبه، وهـو أضعـف مـن أن يُطعن مرتيـن، لذا أراد شـيئًا يحمي بـه بنيامـين، فقال: ﴿لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

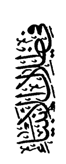
مضـت الأيام، لكن القحط لم يمـض.. أصبحوا بحاجة إلـى التموين مجددًا، فأعـدوا المطايا، وزادوا مطيـة لبنيامين. ركب الأخوة مطاياهـم، وقبل أن يغادروا قـدم الشـيخ لهـم وصية أخيـرة من قلـب أتعبه الشـوق والبـكاء، فقـال: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾، غادرت القافلة حتى أصبحت أمام أسـوار مصر، وحينها انقسـموا، وتوزعوا حسـب وصية والدهم إسـرائيل علـى بواباتها، تواعـدوا على الاجتماع في مـكان يعرفونه جميعًـا.. تفرقوا، ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وبعـد مدة مـن دخولهم اجتمعوا فـي النقطة المحددة، ثم توجهـوا نحو ديوان الوزيـر، فاسـتأذنوا للدخـول عليـه، فلما علـم بقدومهم بكـى قلبه شـوقًا لراحيل ويعقـوب وبنياميـن، فأدخلهـم على الفـور.. تهادى أخوتـه نحو ديوانـه فتأملهم، فوجدهـم قد أصبحوا أحد عشـر وافـدًا، فازداد خفقان قلبه، وجالـت عيناه بينهم، تبحـث عن حبيب القلـب بنيامين.

أهذا أخي الذي حرمت منه؟

دخـل إخوة يوسـف ﷺ، وما إن رآهـم حتى تعلقت عينـاه بأصغرهم.. بشـقيقه وحبيبه بنياميـن.. تكلمت خفقات قلبـه: أهذا هو الطفل الـذي كان يحبو بينـي وبين راحيـل ويعقوب.. أهذا هـو بنيامين، الذي حرمت مـن اللعب، ورعي الغنـم معـه.. اجتاح قلبـه طوفان مـن العواطف، لكنهـا لم تهزه.. ظل متماسـكًا، ثـم قـام بإشـغال إخوتـه وإلهائهـم بمـا جـاءوا مـن أجلـه، وطلـب مـن خدمه أن يدخلـوا بنيامين عليه دون أن يشـعروا.

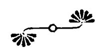
عـاد بنياميـن والاسـتغراب يملـؤه، وإذ بيوسـف يعانقـه، وكأنـه يعانـق طيف راحيـل ويعقوب، ثـم يهمس بـه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، طـار قلب بنيامين من شـدة الفـرح، وهو يعانق أخـاه المفقود، الـذي طالما حدثه أبـوه وأمـه عنـه، وهمـا يمسـحان دموعهمـا. تـرى كيـف هـي سـعادتهما، حيـن يعلمـان أن الله قـد نصـره، وجعلـه وزيرًا تعطر سـمعته الأماكـن، التـي يذكر فيها نزاهـةً وعـدلًا وإبداعًـا. طوى بنيامين سـر أخيـه، ثم ودعـه، وكأنه يتمنـى لو طار نحـو يعقـوب؛ ليبشـره بنهاية أحزانـه ومواجعـه. خـرج بنيامين وانضـم لإخوته، لينهـي معهـم ما جاءوا مـن أجله.



وبينمـا كانـوا يقومـون بمـلء رواحلهـم، وإجـراءات البيـع والشـراء، كانـت الأحـلام تحلـق ببنياميـن، فـي الوقـت الـذي كان أخوتـه فـي حالة حبـور ووداع لهـذا الوزيـر السـخي، إذ بأحد الموظفين يتسـلل بخفيـة، ومعه المكيـال المميز، الـذي يكال بـه للمتبضعين، ثم يدسـه في خـرج بنيامين داخل الحبـوب، دون أن يعلـم. ركـب أبناء يعقـوب، ونهضت عيرهم، ثم بدؤوا بالمغادرة.. سـاروا مسـافة قصيـرة، وقبـل أن يخرجـوا مـن البوابة، دوت صيحـة مخيفة.. صيحة اسـتوقفت عير بني إسـرائيل.

توقفي أيتها القافلة.. انزلوا أيها الغرباء، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، نزل الإخوة مذعورين، وكأنهم يقولون للحرس الغاضبين: ما الذي يجري؟ وعن أي سرقة تتحدثون؟! هتفوا بالمنادي: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، فقال الحرسي الغاضب: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾، ثم أعلن عن جائزة سخية لمن يجده: كمية من الطعام تعادل حمولة بعير، فقال: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، بل ضمن الجائزة بنفسه لمن يجده، قائلًا: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾.

هنا نظر بعض إخوة يوسف إلى بعض ببراءة لأول مرة.. هوَّنوا من الأمر، ولم تعد الجائزة تغريهم، فالعودة للديار وعدم تعطلها هو همهم.. هنا نزل الوزير يوسف، لاستطلاع الأمر بنفسه.. عندها تغيرت وجوههم، فالأمر يبدو خطيرًا.



بنيامين لص وشقيق للص



كثر اللغط والضجيج حول قافلة بني إسرائيل، فأقبل الوزير يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متظاهرًا باستطلاع الأمر، فحلف إخوته أنهم لم يرتكبوا أي سرقة، وأنهم لم يأتوا لمصر إلا للشراء، و﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، فأقبل أحد المسؤولين نحوهم، متحديًا وطالبًا منهم إثبات براءتهم، فقال: وماذا إن وجدنا الصواع الملكي في خرج أحدكم، ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾.

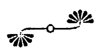
مباشرة عادت الكلمات التي كانوا يعدونها ليوسف (الرق). أجل خذوا السارق عبدًا ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هذا هو قانوننا، وجزاء الظالم المعتدي. هزت الكلمات قلبي يوسف وبنيامين، وكأنهما يقولان: فما الظلم الذي ارتكبه يوسف حتى حولتموه إلى عبد،

وحرمتموه من أحب الناس إليه. تحرك المفتش بخطة من يوسف، نحو إبل الإخوة جاعلًا خرج بنيامين آخر خرج يتم تفتيشه.

مد المفتش يده إلى خرج الأشقاء (يهودا ورابين وَشَمْعَونُ وَلاوِي)، فلم يجد شيئًا.. فتش حقائب الأخوين (أَيْسَاخَرُ وَزَابِلُونَ) فكانت نظيفة.. فتش حقائب الشقيقين (دَان ونفتالى) فلم يجد شيئًا.. قلب بضاعة الأشقاء (جَادٌ وأشير) فكانت كذلك.. بقي خرج (بنيامين)، فتنفس الإخوة الصعداء، لأنهم يعرفون نزاهته، وأن من المستحيل أن يرتكب حماقة كهذه.. مد المفتش يده، فغمسها في حبوب القمح، التي في رحل بنيامين، والإخوة يتأهبون للرحيل بثقة، وفجأة صاح المفتش صيحة، حولت القافلة إلى مناحة.

رفع يده وهو يحمل المكيال الملكي، مبشرًا بالعثور عليه داخل خرج بنيامين، ومعلنا القبض عليه، وتحويله إلى عبد آخر على أرض مصر. كان الوزير يوسف صامتًا، أمام المشهد التمثيلي، الذي تم إخراجه بنجاح.. ذهل الإخوة.. عجزوا عن تصديق ما يجري.. لم يأبهوا لشأن بنيامين، فكل الذي يهمهم هو والدهم الشيخ إسرائيل.. يعقوب الذي قد تقتله الفاجعة.. لن يصدقهم أبدًا، ولن يسامحهم، وهم يتسببون في استرقاق أصغر أبنائه.

جن جنونهم، وفقدوا صوابهم، وعاودهم طيش المراهقة بفعل الصدمة، فبدؤوا يتناولون بنيامين بانفعال وتهور.. تهور أوصلهم إلى شتم شقيقه يوسف.. الذي لم يكتفون برميه في البئر، ولا بالكذب على أبيهم وعقوقه وإيلامه، وعدم الاعتذار منه، صاح بعضهم: إن بنيامين هذا لص، بل هو شقيق للص، ويوسف شاخص أمامهم، وهو لا يصدق ما يسمع. مذهولًا من شدة فجورهم في الخصومة.



يعقوب يبكي بنيامين

انفعل إخوة يوسف ﷺ وهم يرون المفتشين يخرجون المكيال الملكي من خرج بنيامين.. وجدوها فرصة للتشفي من دلال أبيهم له، بل أخرجوا أحقادهم القديمة على يوسف، فقالوا للمفتشين: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، تلقى يوسف تلك الفرية كالحربة في قلبه.. تألم من إخوة لم يتعرض لهم بأذى، ولم يمسهم بسوء.. ما الذي فعله حتى يكنون له كل هذا الغل. ما هذا الحقد الذي لم ينته حتى اليوم، ما حجمه؟ سكت الصديق، وكأنما يقبض على الجمر، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، واكتفى بكلمات حرى، زفرها من وجعه، فقال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

هدأ الإخوة قليلًا من طيشهم وانفعالهم، حين رأوا الحرس ينيخون ناقة بنيامين، وينزلونه ويقتادونه.. عادوا لرشدهم، وبدؤوا التفكير بوالدهم.. غاب بنيامين عن المشهد عبدًا، وحضر يعقوب في أذهانهم.. خافوا ألا يتحمل ما جرى لأصغر أبنائه، فهو ما زال يبكي يوسف حتى اليوم. تشاور الإخوة وتلاوموا، وقرروا أن يدفعوا فاتورة أوجاع أبيهم هذه المرة مهما بلغت. اتفقوا أن يعيدوا بنيامين لوالده، ولو كان الثمن حريتهم.



أوقفوا مطاياهم، وعادوا يلتمسون مقابلة الوزير، ولما أدخلهم قدموا التماسًا بأن ينتقي واحدًا منهم، عبدًا بدلًا عن بنيامين.. ناشدوه ورجوه أن يفعل، رحمة بشيخ ضعيف، أتعبه فراق ابن سارق قبل عشرين عامًا، فكيف سيطيق فراق شقيقه، وقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، نظر يوسف إليهم رافضًا التماسهم، لأنه ظلم لأحدهم.. كيف يعاقب بريئًا؟ لذا قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾، حاولوا وحاولوا، لكنهم فشلوا، ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟

﴿مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾، وانعزلوا في مكان يتناجون فيه حول مصيبتهم، والهم يقتلهم.. لم يعودوا يهتمون لعيرهم، ولا لبضاعتهم.. يعقوب المسكين كل همهم.. أدركوا فداحة ما هم فيه، لكنه الواقع المرير.

انهار أكبرهم، الذي بدأ الشيب يلون رأسه.. شعر بالانكسار.. تحول إلى حطام، لأنه لم ير من والده إلا كل خير.. لم يعد يطيق أن يُريَ والده وجهه بعد كل ما فعله به من عقوق.. التقط من حطامه كلمات تثير الشفقة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ثم خرج حزينًا من ديوان الوزير. أخبر أخوته بعنوانه في مصر، منتظرًا تنفيذ حكم أبيه فيه، أو عفوه عنه.



عندما يصيبك الشوق بالعمى

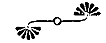
انهار أكبر إخوة يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتهدج صوته بكلمات تثير الشفقة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ثم تنهد بكلمات كالجمر، فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، حاول الإخوة التسعة ثنيه فعجزوا، فلما عجزوا نهضوا من عنده مثقلين، وودعوه، وركبوا مطاياهم، وخرجوا من بوابة المدينة، لا يدرون ما يقولونه لوالدهم.

تحركت العير تحمل تسعة إخوة، وبقي اثنان في مصر: الأصغر تم أخذه عبدًا، أما الأكبر فأثقله الحزن.. ظل في مكانه محطمًا منكفئًا على أوجاعه..

يقتلـه تاريخـه مع والده الطيـب.. بقي في مصر وحيـدًا غريبًا.. هائمًـا على وجهه فـي شـوارعها.. يسير بين جدرانها كالمشـرد.. لا يهنـأ بطعام، ولا يأنس ببشـر.. ينتظـر عفـو أبيه بعد أن عقه، وتسبب فـي أحزانه، فهل أحس بغربة يوسـف لأكثر مـن عشـرين عامـا؟ هـل وضع نفسـه مـكان طفل ألقـاه في بئـر مظلمـة؟ هل قال لنفسـه: تخلصنـا مـن يوسـف، فخلا لنا وجـه أبينا، ثـم مـاذا؟ لقد صرنـا أتعس. لم يـدر أنـه لا تفصله عن يوسـف وشـقيقه سـوى خطـوات.. يتبـادلان الحديث والذكريـات حـول راحيـل ويعقـوب.. نعمـة أنعمهـا الله على يوسـف، وتحدث عنهـا سـبحانه، فقـال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

أما فـي ديار يعقوب فالأحـداث تتصاعد، والفاجعة الأخرى فـي الطريق إليه: بنياميـن الحبيـب لم يعد مع العير، وها هم إخوته يسـحبون خطواتهم وخطاياهم، وهـم يدخلـون على والدهم.. ينظـر إليهم، فـإذا عددهم قد قـلَّ. ما الذي جرى؟ هـل خالفـوا وصيتـه، فدخلوا من بـاب واحـد، ولم يدخلـوا من أبـواب متفرقة؟ أيـن بنيامين؟ أيـن أخوكم الأكبر؟

تهـدج صـوت أحدهـم حزنًـا، وقـال: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، أمـا الكبير فقـد بقـي حزينًا على عـدم وفائـه بميثاقك.. تضاعـف حزن الشـيخ، خاصة حين أخبـروه أن ابنـه البكر قـد رفض العـودة، قائـلًا: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. بلـغ الحـزن منتهـاه فـي قلـب يعقـوب. فاضت عينـاه، واحتـرق جوفه، فشـكا حاله لأرحـم الراحمين.



لماذا تذكرنا بيوسف يا أبي؟

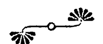
دخل إخوة يوسـف على أبيهـم يعقوب ﷺ مثقلين بالحـزن.. ثم قالوا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)﴾

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، بلغ الحزن منتهاه في قلب يعقوب، فنظر إليهم والدموع تحرق أجفانه.. نظر إليهم بعينين أضعفها البكاء على يوسف، ثم زفر بكلمات حرى، شاكيًا أمره وأمرهم لعلام الغيوب وكاشف الكروب، وقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ثم انطوى على أحزانه، وظل يبكي حتى فقد بصره، كما فقد يوسف: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾.

غابت الشمس عن عيني يعقوب قبل أوانها، وأعماه الشوق والوجد على طفله، وتحولت دنياه إلى مجرد أصوات، وما إن سمع الإخوة باسم أخيهم، حتى تضايقوا، ولاموا والدهم على كثرة ذكره، فإن حزنه عليه يكاد يهلكه، وكأنهم يطالبونه بنسيانه، فهو لن يعود، و﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾، أما راحيل فعاودها الحزن، الذي كاد يقتلها قبل عشرين عامًا، حتى ذبلت، وذبل جمالها الفردوسي.. ناحت على ابنيها، لا تدري ما تقوله لإخوة لا يشعرون إلا بألم الحسد.. حسد أفقدها أطفالها وهم أحياء، فما الذي فعلته وفعله أطفالها لهم؟

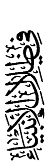
ضاقت الدنيا بها وبزوجها، الذي بث شكواه لأرحم الراحمين، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، لكن أيام الابتلاء اشتدت وطالت، فقد اجتمع عليهما الفقر والجفاف والوجد والأحزان، لكن يعقوب لم ييأس، بل جمع أبناءه حوله، وهو في أشد أيام الابتلاء، وقال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، نهض الأبناء من مجلس الشيخ المكلوم، إرضاء له، وتأدية لواجب.. توجهوا هذه المرة نحو رواحلهم، بمال أقل، وانكسار أكثر، ثم انطلقوا نحو مصر، والحزن يحدو عيرهم.. انطلقوا مهمومين، لا يأبهون

مـن أي بـاب دخلـوا.. همهم هو إرضاء شـيخهم.. دخلوا مصر فتوجهـوا لمقابلة العزيـز، الـذي كان يخفي شـوقه لعودتهـم، وما إن دخلـوا ديوانه، حتـى أذهلتهم هيئـة أحـد العبيد بجانبه. ما هـذا؟ ما هذا الأنيـق الذي أمامهم، أعبـد هو أم أمير؟ إنه بنياميـن يجلس مبجلًا بجـوار الوزير.



الإخوة في المحكمة

ذهـل أخوة يوسـف حيـن دخلوا ديوانـه.. فوجئـوا بأخيهـم بنياميـن بجانبه.. مبجـلًا، لا تبـدو عليـه آثار الـرق، ولا الشـقاء، ولا العبوديـة.. حيَّرهم المشـهد، لكنهـم كتمـوا حيرتهـم، وكأن الحسـد عاودهـم.. تجاهلـوه، وناشـدوا الوزيـر المسـاعدة والشـفقة، فهم في فقر وعوز شـديدين، مما جعلهـم يقولون: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، أخبـروه بمـا آلـت الأمور إليه فـي الديار.. أخبـروه بحال شـيخهم، الـذي مـا زال يبكـي طفلـه حتـى عمي. هنـا بكـى قلب يوسـف، وهو ينصـت لمعانـاة حبيبه، ففاضـت عيناه، ولم يعـد يحتمل عذابات والـده، وأحزان حبيبتـه راحيـل، أو الكتمان.

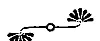


وجـه لإخوتـه سـؤالًا كالصاعقـة، فقـال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾، نظـر بعضهـم إلـى بعـض، وكأنمـا عثـروا على قطـع الأحجية المفقودة فـي تصرفات هذا العزيز، وطلباته الغريبة، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ذهلـت الحاشـية مـن هـول ما يسـمعون، وأسـقط في أيـدي الإخـوة، وتخلوا عـن الكـذب والمكابرة.. أدركـوا قدرة الله، الـذي يمهل الظالـم لكنـه لا يهمله، فحلفوا به سـبحانه أن الأمر له، وفوق طاقة البشـر، فقالوا:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، ثم سكتوا في تلك المحكمة بانتظار لحظة الانتقام المخيفة.

حدق الضباط والجند بقساة القلوب، الذين رموا سيدهم يوسف ﷺ في بئر وهو طفل، ثم تسببوا في رقه وسجنه لأكثر من عشرين عامًا، دونما ذنب سوى أن والده يحبه.. تأهب الجند للقبض عليهم، والبطش بهم، وفي أشد اللحظات وأحرجها، وبينما كان الإخوة يتوقعون سجنًا أو رقًّا، يتناسب مع جرائمهم.. نطق الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، فقتل إخوته بلا سلاح، حين قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

قتلهم بسلاح العفو والكرم، فصمتوا، وفقدوا القدرة حتى على الاعتذار.. طأطأ تاريخهم خجلًا، فتأمل يوسف تضعضع إخوته، وقرأ في عيونهم ندمًا لا يطاق، فعاملهم بأخلاق النبوة، وقرر أن يزيح مصابهم.. أمرهم بإحضار والديه وعائلاتهم من ديار القحط والجدب؛ لينتقلوا للعيش معه في أرض مصر.. مصر الطيبة التي أصبحت من أغنى البلدان بفضل الله، ثم بفضل نزاهته وعدله ووعيه بمسؤولياته.



آخر قصص قميص يوسف

أمر يوسف ﷺ إخوته بإحضار والديه وعائلاتهم من ديار القحط والجدب، لينتقلوا للعيش معه في أرض مصر.. مصر الطيبة التي أصبحت من أغنى البلدان بفضل الله ثم بفضل نزاهته وعدله ووعيه بمسؤولياته، ورحمته برعيته، فربه ودينه يأمره بالتفاني في وظيفته، رغم أنه وزير مسلم في دولة

وثنية. ثم أمر إخوته بأمر، أُوحي إليه، فقال: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

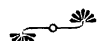
تعانق الإخوة لأول مرة.. تعانقوا، وكأنما خلقوا من جديد، ثم ودعوه، وبعد أن وجدوا أخاهم الأكبر، وطمأنوه، ركبوا مطاياهم، وعادوا لديارهم بقلوب بيضاء، غير تلك التي غادروا بها، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾، وغادرت مصر، شعر يعقوب بطيف يوسف، يتجول بين أضلاعه.. شعر وكأنه في الطريق إليه، فالتفت إلى من حوله من زوجات وبنات وأحفاد، وكأن الوحي ينفث في روعه، فقال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، ففندت الأسرة قوله، ولم يبالوا كالعادة، وأكدوا أنه يتوهم، كما يتوهم المحبون لقاء أحبتهم، من لوعة الفقد وحرقة الاشتياق، و﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

تجاهل يعقوب ردهم، وظل متشبثًا بالثقة بربه، بينما كانت العير تحث السير نحوه، كخفقات القلب الولهان، وما إن اقتربت العير من الديار، حتى أخذ أحد أخوة يوسف القميص وانعزل عن القافلة، وزاد في سرعته حتى سبق الجميع نحو الديار، ولما أصبح أمام بيت الشيخ الحزين يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ توقف.



أناخ راحلته وانحدر عنها، وأطلق ساقيه نحو والده.. الذي كان ساعتها محاطا ببعض عائلته، وقبل أن يتكلم البشير، ألقى القميص على وجه أبيه، وكأنه يلقي بآخر قصص قميص يوسف، وإذ بالشيخ يشعر بريح يوسف، تعطر القميص.. شعر بروح أخرى بين جنبيه، ضم القميص وشمه وقبله، وبلله بدموع الشوق.. احتضنه وكأنه يحتضن طفله الحبيب، وإذ بالنور يتسلل إلى عينيه، وكأن الدموع تغسل حزن الزمان وعماه، فعاد البصر إليه.. تصفحت عيناه وجوه من حوله، ووجهه يشع بشرًا وسرورًا، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

سالت دموع راحيل المفجوعة بطفليها ظلمًا، وفاضت دموع العائلة من حولها، وبعد دقائق أو أكثر توقفت القافلة المحملة بالمشاعر، ثم انحدر منها الأخوة، ثم توالى دخولهم واحدًا واحدًا. يسحبون خطاهم وخطاياهم نحو أبيهم، وينزفون ندمًا وخجلًا.. سلموا على الشيخ الذي أعاد الله له بصره، وهو يتأملهم ويتأمل ماضيهم الأسود. تهادوا يقتلهم المشهد، وتسافر به وبهم المشاعر من القميص إلى القميص، ومن المرعى إلى مصر، ومن قاع البئر إلى عرش الوزارة.. أدركوا أنه مهما بلغت كثرتهم وقوتهم.. مهما بلغ دهاؤهم، وبرعت حيلهم، فإن الذي منحهم كل ذلك قادر سبحانه على سلبها منهم بظلم يظلمونه.. بزفرة مظلوم ليس له سوى الجبار نصير.



بنو إسرائيل في مصر

انكسر إخوة يوسف ﷺ، وهم يرون الطفل الضعيف يطعمهم، بعد أن حرموه، ويؤويهم بعد أن شردوه، ويحدب عليهم، بعد أن تسببوا في رقه وسجنه.. أدركوا أن القوة ليست في يوسف، ولا في والده.. القوة في السماء، لكن الحسد يعمي الحاسدين عن السماء.. بكى الإخوة، وهم يرون قميص يوسف يعود ليضحك أباهم كما أبكاه، فأجشهوا ندمًا وتوبةً، وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، لم يكن يعقوب سوى والد، يحب كل أولاده، لكن للصغير رحمة، وللمريض شفقة، وللغائب خفقة، لا تدركها سوى قلوب الآباء والأمهات.. لم يتردد يعقوب في العفو، فهم ويوسف وبنيامين ملء السمع والبصر، لذا ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

تحلق الإخوة حول أبيهم، وقصوا عليه قصة العزيز، وتعجبهم من سر طلبه لبنيامين، وقدرته على ضبط مشاعره تجاههم، ثم عفوه عنهم، وأخبروه أن مسؤولياته تجاه دولته تجعله عاجزًا عن اللحاق بهم، فهو مسؤول عن قوت

شعب وثني، سيسأله الله عنهم، وأن من الأنسب أن ينتقلوا للسكن عنده في مصر معززين مكرمين، فلم يتردد الشيخ، وكيف يتردد وهو سيرى الحبيب الذي فقد بصره شوقًا إليه وحزنًا عليه.. كيف يتردد والرحلة ستكون لديار يوسف الحبيب.

أخذ الشيخ عصاه ونهض، وطلب التأهب للرحيل، فأعدت الهوادج، وحملت الفرش والأمتعة، وودعوا الجيران، الذين بكوا فراق الشيخ النبي وزوجاته الطيبات.. تمايلت عير يعقوب ﷺ وعائلته عبر الصحاري، حتى أصبحت على مشارف مصر، وإذ بموكب الأمير النبي يوسف يخرج لاستقبالهم، وما إن رأى القافلة حتى طار قلبه، وأسرع نحوها.. نحو الشيخ، الذي كان يحضنه، ويلاعبه، ويبكي عليه.. نحو راحيل الحنان.

توقفت العير، وأنيخت المطايا، فنزل الأمير، وتوجه نحوهما، ومد يديه، وأخذ بأيديهما للنزول، وعانقهما بحرارة، وكأنه لا يريد تركهما، وكأنه يخشى أن يفقدهما مرة أخرى. نظر إلى تجاعيد يعقوب الحبيب. لقد تغير كثيرًا، فآخر نظرة كانت حين ودعه قبيل أن يأكله الذئب. نظر إلى أجمل أم في الدنيا، فإذا الحزن والشيب قد غيَّرها. لم تعد كما كانت. غدت أكثر حبًّا وحنانًا وجمالًا. تأمل أحب الناس إليه فبكى، وبكى الشيخان، وبكت القافلة من حولهما، و﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

تهادى بهما ثم سلم على عماته وأخواته، وعلى عشر عائلات هي عائلات أخوته، ثم استأنفت القافلة سيرها خلف كبار الضيوف يحفها الحب والترحاب والحرس، ولما وصلوا إلى ديوان الأمير أنزل والديه برفق، وأخذ بأيديهما بلطف، نحو عرشه، ثم أجلسهما عليه والسعادة تجتاح كل ذرة في كيانه تغمره ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، ثم جلس معهما، واصطف إخوته وأولادهم أمامه.. هنا انحنى الوالدان والإخوة تحية للعزيز ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾.

انحنى الوالدان والإخوة تحية للعزيز يوسف ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾. تأمل يوسف هذا المشهد فإذ به يتذكر خطواته الصغيرة نحو أبيه قبل ثلاثين عامًا، حين جاء ليسأله عن رؤياه قائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾، تذكر كلمات أبيه له، حين أوصاه بأن يكتم أمر الرؤيا عن أخوته.

رفع الساجدون رؤوسهم من التحية.. نظر يوسف لأبيه، وخاطبه مفشيًا سره للجميع، وقائلًا: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، ثم توجه بدعائه إلى ربه الذي ابتلاه، ثم منَّ عليه وحباه.. توجه لمالك الملك وملك الملوك، الذي اصطفاه، معترفًا بفضله.. يناشده أن يثبته على التوحيد، حتى يلقاه، وقال: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.



كان السجن تصفية لروح يوسف، وتهيئة له؛ ليشعر بثقل المسؤولية، ومرارة الظلم على نفس المظلوم، لذا أصبح بعد خروجه من السجن أعدل من تعامل مع هذا الشعب، منفذًا رسالة الأنبياء، التي يقول الله عنها: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

ظل يوسف ﷺ في منصبه في مصر، يزين حياة الوثنيين بعدل الإسلام وأخلاقه، ويغتنم الفرص لدعوتهم للتوحيد، وطاب لوالده ﷺ وإخوته المقام فيها، حتى كثر أحفادهم وأحفاد أحفادهم، فتحولت عائلاتهم الاثنتا عشرة إلى اثنتي عشرة قبيلة.. كل قبيلة تحمل اسم ابن من أبناء يعقوب، وهم: (يوسف وبنيامين ويهودا ورابين وَشَمْعونُ، وَلاوِي وأَيْسَاخَرُ وَزَابلُونَ ودَان ونفتالى وجَادُ وأشير).

في تلك الأوقات، وفي مكان يقع بين مدائن صالح والشام، يقال له (مدين)، عاش قوم من العرب.. كانوا قلة فكثَّرهم الله، وفقراء فأغناهم الله، وبدلًا من أن يشكروه سبحانه.. أطغاهم الجشع.. أصبح جمع المال بأي وسيلة كل همهم، فتحولت مدين إلى مطحنة للفقراء. أصبح دينهم دينارهم، حتى نسوا المنعم سبحانه، فانحطوا من التوحيد إلى قاع الوثنية والتخلف، لدرجة عبدوا معها الأيك وهو الشجر، وكان في مدين شاب موحد من عائلة كبيرة.. اسمه (شعيب)، يكره الفساد ويحاربه، لأنه أول خطوات انهيار الأمم.



شعيب نزيه يستحق الرجم

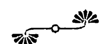
كبر شعيب فاصطفاه الله نبيًّا، ليدعو قومه إلى رسالتي الأنبياء: التوحيد والعدل. نبههم إلى معيشتهم الرغيدة، التي لا يرى معها أي مبرر للفساد، فقال: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، فالله قد خلق البشر لإعمار الأرض بالتوحيد والعدل، لا ليُباد الموحد على يد الوثني، ولا ليُسحق الفقير والضعيف على يد الغني والقوي.

يخرج شعيب من بيته كل يوم نحو أسواقهم.. يجول بين دكاكينهم وأماكن تجارتهم، فيرى الأيادي تتلاعب بالموازين، ويرى الغش التجاري في البضائع. يراهم يقامرون بمستقبل وطنه الاقتصادي.. كان يخشى على وطنه الحبيب من الفاسدين.. يذكرهم بحالهم قبل سنوات، ويخشى عليهم زوال النعم، ويقول: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، لكن النعمة أسكرت قومه، حتى صاروا خلف الثراء السريع بأية وسيلة، ومن كان هذا حاله ينفر من أي دعوة للعقل، لذا فزعوا من دعوته

للتوحيد، ومحاربته للفساد، والتلاعب باقتصاد مدين، والمقامرة بحياة الجيل القادم، خاصة حين تعاطف معه المطحونون والضحايا والعقلاء.

هنا اجتمع عرابو الفساد الوثني؛ لاتخاذ قرار بشأنه، فرأت أغلبية المتنفذين الفاسدين الوثنيين: أن الحل هو إعدام شعيب ﷺ رجمًا بالحجارة، فوافقت الأقلية، لكنهم نبهوا لعشيرته القوية، التي قد تحرق الأخضر واليابس، لذا تراجعوا، وقالوها صريحة لشعيب: ﴿يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾، لكن شعيبًا كان يخاطب العقول، فيقول: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

مرت الأشهر والسنوات وأصبح الوثنيون أكثر فسادًا وإجرامًا.. لم يكتفوا بالشرك.. تحولوا إلى إرهابيين، يجوبون الطرقات.. يهددون أي شخص يريد اعتناق التوحيد، أو ينصت لشعيب، ودعوته لمحاربة الفساد، متوعدينه بالموت، ولما علم شعيب حذرهم، وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾، هنا قدموا له خيارين، لا ثالث لهما.



شعيب والخيار الأخير

طالب النبي شعيب ﷺ قومه بتحكيم العقل، وترك الناس وما يختارونه من دين وتجارة نزيهة، قائلًا: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، رفض الوثنيون أن

يكـون لغيرهـم رأي، وأصـروا على سـحق الموحديـن والنزيهين وأهلـه قائلين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾.

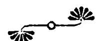
رفـض شـعيب الرضـوخ لتهديدهـم فزحزحـة الجبال أهـون مـن التخلي عن التوحيـد، لذا ذكرهم بقدرة الجبار سـبحانه، ومصير الأمم البائدة، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، هنـا عـرض قومـه عليـه خياريـن لا ثالـث لهمـا، إمـا أن يعـود وأصحابـه للوثنيـة، أو يغادروا إلى غير رجعة. فقـال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾، ثم بين شـعيب أن صلفهم لا وزن له أمام ثقته بالله سـبحانه، فقـال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾، فشـعيب ليس طالب سـلطة يحشـد الأتباع، ولا صاحب تجارة يطمـع بالحصول علـى أكبـر قـدر من الأربـاح والزبائـن.. هو صاحب رسـالة سـامية، تعيـد تفعيل العقـل، وتقدم حلولًا ناجعـة للاقتصاد.

هنـا تهور الوثنيون فطلبوا من شـعيب أمرًا ثالثًا.. تهـوروا فنطقوا بالكلمة، التي تجلب الخراب. تحدوا الله أن يعذبهم قائلين: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، تألـم شـعيب من سـوء أدبهم مع خالقهم ورازقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأخبرهم أن إسـقاط قطع من السـماء ليس شـأنه. هو لا يملك سـوى إرشـادهم، والأمر بيد الجبار أولًا وأخيرًا.

خـرس الوثنيون، وحزن شـعيب لعنـاد قومه،فإذ بالجبار المنتقم سـبحانه يأمر شـعيبًا والمؤمنين أن يغادروا مدين.

انطلـق شـعيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحـو بيـوت المؤمنيـن وبلغهـم أمـر ربـه، فبـدأوا الاسـتعداد للرحيـل المر. حـان وقت الرحيل، ليـس رضوخًـا للطواغيت، ولكن لأمـر مخيف سـيحل، فهـؤلاء الوثنيون مثال للمادية البشـعة الجشـعة، التي تأكل أبناءهـا، وتدمـر نفسـها، وترفـض الـرأي الآخـر ولـو كان حقًّـا.. حـان الرحيـل

عـن الوطـن وما أقسـاه. بـدأ المؤمنون بتحميـل مطاياهـم، ثم تحركـت الركائب مغـادرة، فبدأ الوثنيون يسـخرون من الراحلين.. يطالبونهم بالبقاء، وترك شـعيب والتوحيـد ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، فهـل يتخلـى الراحلون عن شـعيب؟



رحل قوم شعيب وعاد الفراعنة

لـم يلتفت أصحاب شـعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لثرثرة طواغيت الوثنيين، سـلموا عقولهم لشـجرة.. سـاروا خلـف نبيهـم، وكلهم ثقـة بربهـم سـبحانه، حتى نزلـوا بأرض يعمرونهـا بالتوحيـد والنظـام، ورجـع الوثنيـون إلى شـجرتهم (شـجرة الأيك)، يقدمون لهـا القرابين، ويشـربون نخـب انتصارها.

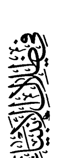
وفجـأة توقـف الاحتفـال.. قلصـت شـفاههم عـن الضحـك والثرثـرة، حين رفعـوا رؤوسـهم، فإذ بالسـماء تتغيـر.. بدأت زرقتهـا تتحول إلى ظلـة قاتمة، وإذ بزلـزال مـروع، يـرج أرضهم مـن أقصاها إلـى أقصاها يـوم الظلة، حتى تسـاقطوا من شـدة الرجفـة.. دب الذعر في مديـن، وملأ الصياح أرضها وسـماءها.. مدين مدينـة للهلـع.. الكل يركض.. الكل يهـرب.. لا أحد يلوي على أحد، ولا يسـأل عن والـد أو لد.

وبلمح البصر.. شـقت السـماء صيحة فجـرت الآذان، وصدعـت ما تبقى من جـدران.. صاخـة انتزعـت الأرواح من الأجسـاد، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾. قد تخشبوا.

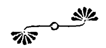
هنـاك من تخشـب وهو يغش في دكانه، وهناك من تخشـب وهـو في الطريق، وهنـاك مـن تجمد وهـو يهم بالدخـول لبيته، وآخر تخشـب وهو يهـرب من بيته. مديـن متحف للجثث المحنطة، ومدين سـكتت.

سكتت مدين.. سكت الفساد والغش والربا والظلم والإرهاب، سكت كل شيء فيها، وبقيت شجرة الأيك تسخر من غبائهم، وتتبرأ من عبادتهم لها، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

انتهى قوم شعيب، وانتهت كذلك مملكة الهكسوس في مصر.. عاد الفراعنة لحكمها، وتعاقب حكامهم، وتغيرت أحوال أحفاد إسرائيل في مصر، فبعد أن طاب للنبي يعقوب ﷺ السكن فيها حتى توفاه ربه سبحانه، وبقي أبناؤه بعده سنوات وسنوات، ثم توفاهم الله واحدًا بعد الآخر، وتوفي أخوهم يوسف ﷺ بعد أن ترك بصمته على أرض مصر.. أنقذها من المجاعة والإفلاس بعدالة الإسلام وأخلاق النبوة والنظام الاقتصادي الإسلامي، الذي يكافح الفساد، ولا يستغل المحتاج، أو يثقل كاهله بالربا، بل يخطط لمستقبل زاهر للوطن والمواطن.. رحل يوسف الصديق، وكثر أبناؤه وأبناء إخوته وأحفادهم، حتى أصبحوا اثنتي عشرة قبيلة.. تلك القبائل أصبحت تسمى بالإسرائيليين، نسبة إلى إسرائيل أي يعقوب، ومع مرور الزمن تغير معظمهم.



أصيب الأحفاد بالغرور، لأنهم سلالة أنبياء، لكن مصر أيضًا تغيرت، فقد عاد الفراعنة الوثنيون لحكمها.. تعاقب حكامهم منهم المبدع، ومنهم المستبد المفزع، أما الإسرائيليون، فانقلب عزهم ذلًّا وشقاءً واضطهادًا، ربما لغرورهم، وربما لأنهم كانوا وزراء للملوك السابقين، وقد بلغ تطرف أحد الفراعنة أن أصدر أمرًا بقتل مواليد الإسرائيليين الذكور.



الأهرامات بين إبداع التصميم وتخلف الهدف

بالقدر الذي تفخر فيه أرض مصر الطيبة بأهراماتها المذهلة.. بقدر ما تبكي أجيالًا تم سحقها من أجل بناء تلك الأهرامات، فالفرعون كان يأمر ببناء

الهـرم، لا ليكـون قصرًا يسـكنه، أو صوامع للغـلال والأمن الغذائي للشـعب، بل ولا مسـرحًا أو متنزهًـا. لم تبن الأهرامات ليسـكنها الفقراء، ولا حتـى الأغنياء.. الهـرم الـذي صممه مهندسـون عباقرة، كان لسـبب غايـة في التفاهـة والتخلف.

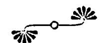
لقـد تم تشـييده ليكون قبـرًا لفرعون، وليتـه بني تكريمًا لفرعـون مبدع، بل هو قبر لفرعون حي مسـتبد، يأمر ببناء هرم يحتل مسـاحة حي لكي يكون قبره.. هرم بحجـم حـي من أجـل جثة.. تهدر فيـه ثروات البـلاد، وتبدد طاقات الشـباب من أجل جثة. ينخرط الشـاب في سـلك البنائين، وهو يناهز العشـرينيات، فلا يكتمل الهرم إلا بعد أن يلون الشـيب أصداغهم ورؤوسـهم، ويتجاوز الأربعينيات.

طغيـان وثنـي للحجر على البشـر.. طغيان لم يمارسـه يوسـف، الـذي احتفى بالإنسـان المصـري، وزين أرضـه بنزاهة الإسـلام وعدالته، أما الأسـوأ فهو حين دشـن أحد الفراعنـة الوثنيين عهده بالظلـم واضطهاد الإسـرائيليين، فهل ارتكب ذلـك لأنهـم أحفاد يوسـف وزير أعدائـه الهكسـوس؟ أم لأن بني إسـرائيل كانوا يتحدثـون عـن ظهور قائد إسـرائيلي سـينتصر على فرعون مـن الفراعنة؟

لا يمكـن الجـزم بالسـبب، لكـن الـذي جـرى هو أنـه لم يعـد لبني إسـرائيل المسـاكين قيمـة.. انقلـب عزهـم ذلًّا وشـقاءً واضطهادًا، بـل بلغ التطـرف بأحد الفراعنـة إلـى محاولـة إبادتهم بطريقـة مبتكرة: أمـر بقتل أي مولـود ذكر، وبذلك سـيأتي اليوم الذي سـتخلو فيه مصر منهم، وقبل صدور هذا المرسـوم الطاغوتي عـاش شـاب إسـرائيلي صالـح اسـمه عمـران.. وقـد تـزوج عمـران مـن شـابة إسـرائيلية صالحـة فعاشـا فـي وئـام، ورزقا بفتـاة، ثم رزقا بابن سـموه هـارون.. كبـرت ابنة عمـران، وأصبحت في سـن المراهقة، وفي هذا الوقـت صدر الحكم الفرعونـي بارتـكاب المجازر بحـق المواليد.

حينهـا كانـت امـرأة عمران حامـلًا، وكلما كبـر بطنها قل خروجهـا، فجلاوزة الوثنييـن وجزاروهـم يمشـطون أحيـاء الإسـرائيليين المسـاكين.. يجوبـون

شـوارعها وأزقتهـا كالوحوش.. يطرقونهـا بابًا بابًا.. في جولات تفتيشـية مخيفة، لا تعـرف الرحمة ولا الإنسـانية، وكلمـا عثروا على وليد انتزعـوه من أحضان أمه المسـكينة، وهـي تصـرخ وتناشـدهم الرحمـة، ثم قطعوا رأسـه بوحشـية، ورموه بيـن يديهـا. في تلك الأيـام المخيفـة، فاجـأ المخاض زوجـة عمران.



مداهمة بيت عمران

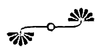
عصفـت بالحي الإسـرائيلي أجـواء إرهاب لا تطـاق، لـذا كان الرعب يجتاح أم هـارون علـى جنينهـا، فقـد جاءها المخـاض، ثم ولـدت طفلًا جميلًا، سـموه (موسـى)، وهـا هـي يرتجـف قلبهـا، كلمـا سـمعت طرقًـا علـى البـاب، أو وقع أقـدام علـى الطريـق.. تحـول أبوه عمـران إلى راصـد للطرقات، وجامـع لأخبار المداهمـات.. لم يعلـم بمولد موسـى سـوى خاصـة الخاصـة.. ازداد خوف أمه عَلَيْهَا السَّلَامُ، لكن وحيًا تلقته، طمأنها وأحزنها في الوقت نفسه.. كلمات الذي لا يؤوده حفظ السـماوات والأرض تقـول: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.



قام والد موسـى بصنع تابوت خشـبي صغير أو شرائه، تحسـبًا لحالة مداهمة، وظـل الرضيع مع أمـه، تحنو عليه وترضعه وتناغيه، بينمـا كانت جولات جلاوزة الفراعنـة المفاجئـة تجتـاح الحي بيتًـا بيتًا.. تسـتجوبهم فـردًا فردًا.. لا يمر شـهر إلا وصرخـات الأمهـات تـدوي فـي بيت مـن بيـوت ذلك الحـي، وبعد أسـابيع مـن ولادتـه، داهمـت دوريـة للشـرطة الفرعونيـة الوثنية الحـي، بحثًا عـن رقاب المواليـد الصغيـرة. دنا مسـح الجزارون من منـزل أم هارون، فصعـب الاحتفاظ بـه، فقد يبكي سـاعة وجودهـم فينحرونه أمامها.. تحـرك البيت كلـه.. قامت أمه بإرضاعـه، ثـم لفته بمهد ودموعهـا تبلله، وكأنهـا تكفن قلبها.. قبلتـه وضمته، ثم وضعتـه داخـل التابوت، ووضعـت قلبها معه، وهـي تتأوه.

فُتح الباب وخرج عمران وابنته وابنه هارون يرصدون الطرقات، ولما أصبح الخروج آمنا خرجت به أمه، وهي تتلفت، وتوجهت به نحو نهر النيل، ولما أصبحت أمامه توقفت، وانحنت نحو الماء، ووضعت التابوت برفق على سطح الماء، وتركته في حفظ الحفيظ العليم.. تركت حبيبها، وهي تشهق من الوجع.. عيناها على التابوت، الذي يتموج مع الماء، ويبحر ويبحر حتى اختفى عن عينيها الغارقتين بالدموع.. كأني بها تكز أسنانها، وتغطي فمها خشية أن تصرخ، بل ﴿كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾، كادت من شدة الوجد أن تصرخ، فتناديه فتفضح أمرها وأمره، لولا أن ربط الله على قلبها.

أما التابوت الصغير، فمالت به الريح شيئًا فشيئًا، حتى بدأت حركته بالبطء، ليرسو بعد مدة على ساحل الموت، وحافة قصر الطاغية فرعون، قاتل المواليد.. ظل التابوت ملاصقًا للساحل، يعلو وينخفض، حتى لمحته وصيفات الملكة الطيبة (آسية) زوجة فرعون.



آسية الملكة المصرية الطيبة

لمحت وصيفات الملكة (آسية) تابوتًا يعلو وينخفض مع تموج ماء النهر على حافة القصر، فأسرعن نحوه.. أمسكنه، ورفعنه عن الماء، وفتحنه، وإذ بالمفاجأة.. طفل كالقمر تهتز أطرافه.. تحلقت الوصيفات حول الكنز.. تعالت التأوهات والبسمات، ثم تهادين بسعادة نحو سيدتهن.. أخرجن الرضيع منه برفق، وسلمنه بنعومة للملكة الرقيقة الراقية، فلمعت عيناها سعادة، وجرفت قلبها براءته وجماله.. وبعد مناغاة وقبلات حانية خلد الصغير للنوم.

استغرق في نوم عميق، كعادة من هم في سنه، فلُف في مهد ناعم، وغفا على سرير فاخر. ولما التقت سيدة القصر بفرعونها، تهادت نحوه بدلال،

تحمل الرضيع بين يديها.. تبشره بما وجدت، فاستشاط غضبًا، وقرر نحره، لكنها استغلت حبه لها، فاسترحمته، وناشدته ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، إنه من بني إسرائيل.

وافق الفرعون تحت تأثير الحب، ورضي بتبنيها للرضيع، الذي بدأ يفيق من نومه، ويشعر بالجوع.. بدأ يتلمظ، يبحث عن صدر أمه الحزينة.. بدأ يبكي، فإذ بالأوامر تصدر للمرضعات اللواتي أقبلن نحو الأمير الصغير، طمعًا في الهبات، لكن شفتاه لم تطق صدر أي منهن، اضطرب القصر، وارتبكت السيدة الأولى، لا تدري ما العمل حيال طفل عاف المراضع كلها.. لم تدر أن الذي أهداها هذا القمر هو خالقه سبحانه، الذي يقول: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ﴾، أمرت الملكة الطيبة خدمها بالبحث له عن مرضعات أخريات.

هذا ما كان يحدث داخل القصر، أما في الحي الإسرائيلي المحاصر، وبالتحديد في بيت عمران، فالحزن يقتل الجميع.. لا يدرون أين رسا التابوت بموسى، وأمه لا تكف عن البكاء، ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، من أي شيء من ملذات الحياة.. عافت الطعام كطفلها، وقتلها الشوق لصغيرها، فالتفتت إلى أخته بعينين كالجمر، وطلبت منها الخروج ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، وتحسسي أي خبر عنه. خرجت الفتاة على الفور، وما هي إلا سويعات، وإذ بها تتوقف أمام زحام مثير في أحد الأسواق.. حاشية ملكية تحيط بأمير رضيع يبكي، ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

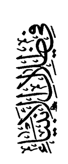


حدقت به، فإذا هو شقيقها موسى.. دنت، فاختلطت بها السعادة بالحزن بالخوف.. سألتهم: ما شأنه؟ فأخبروها أن القصر يبحث له عن مرضعة، فقد عاف المراضع، وهو يبكي من الجوع. ذهلت الفتاة من رحمة الله بأخيها الرضيع! وحمدته سبحانه.

ذهلت أخت موسى من رحمة الله وكرامته لأمها! وهي تشاهد أخاها الرضيع موسى محاطًا بالحاشية، يبحثون له عن مرضعة، فاقتربت منهم، وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، ومباشرة وافق الخدم، فطلبت منهم أن يتبعوها.

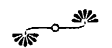
مشى خدم الطاغية وجنده، خلف الفتاة الإسرائيلية عبر طرقات الحي.. لم يسيروا دورية للقتل، بل مشوا حاشية للإنقاذ.. يحملون الرضيع بحثًا عمن يسعده برضعة مريئة، بعد أن كانوا بالأمس يسلكون الطرقات نفسها بحثًا عنه ليذبحوه.. ساروا عبر التواءات ومنعطفات، أمام اتساع أعين بني إسرائيل، والتفاتاتهم ودهشتهم، ثم توقفوا أمام الباب، فإذ بالأم الحزينة، وبجوارها هارون الصغير تتحرق لخبر.. أي خبر، يطمئن قلبها: أن رضيعها ما زال حيًّا.

فُتح الباب، فإذ بالفتاة تبتسم بوجه أمها، وهي تغالب مشاعرها، كي لا تنفضح.. تكتم صرخات الفرح وقفزاته وعناقه، وإذ بخدم الطاغية، الذين روعوا أمه بالأمس، حتى ألقته في النهر، يتقدمون نحوها بلطف، فتمد إحدى الوصيفات يديها، لتقدم موسى هدية ملفوفة بالحرير.. تحرسه القوة، التي كانت تريد حز رأسه بالأمس.



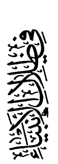
فاضت عينا أم موسى، حمدًا لله، وبكى قلبها، وضمت طفلها، فألقمته صدرها، فإذ بالصغير يقبل على نبع الحياة بشغف.. رضع الطفل حتى ارتوى، ثم بدأ يناغي أمه، التي تغالب الدموع حتى لا ينفضح سرها.. تضمه وتشمه.. كان الخدم والجنود ينظرون إلى بعضهم، وهم في غاية السعادة.. ينتظرون العودة، ليبشروا الملكة الطيبة.. طلبوا من أم موسى مرافقتهم لمقابلتها، فوافقت، وكيف لا توافق وهي ستكون برفقة حبيب القلب. نهضت مباشرة وهي تحمل قرة عينها.. مشت بين الوصيفات والخدم نحو القصر.

دهش الإسرائيليون من هذا الموكب المهيب، وهم الذين تعودوا على مداهمات دوريات الشرطة الوثنية الفرعونية، ودمعت عينا عمران، وهو يرى ابنه محمولًا محفوفًا بالحاشية، والحرس يفرقون الناس، كي يفسحوا الطرقات، ليمر موكب سموه، ورؤوس الفضوليين تتطاول.. تحاول التعرف على هوية هذا الأمير المبجل.. ظل موسى محمولًا وسط همهمات الإعجاب، حتى أقبلوا على القصر، الذي تجري من تحته الأنهار، فتهادت أمه عبر بوابته.. كانت سيدة القصر في استقبالها.. مدت يديها وأخذته منها بشوق، واحتضنته، وهي تكاد تطير من الفرح، حين رأته قد ارتوى، وكف عن البكاء. تبادلت أطيب امرأتين على تلك الأرض الابتسامات والأحاديث الودية.



موسى بين شعبين وديانتين

في قصر فرعون المجرم، تبادلت أطيب امرأتين على تلك الأرض الابتسامات والأحاديث العذبة.. أحاديث تمحورت حول هذا الدلال النائم في حجر آسية.. يتقلب بين أرحم أمين.. انثالت الهدايا والعطايا والحلي على أم موسى، ورَدهُ الله ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، وجرى الحديث مع سيدة القصر العظيمة حول طريقة إرضاعه: هل ستنتقل أم موسى للسكن في القصر، أم سينتقل موسى إلى حي بني إسرائيل، أم سيتردد به الحرس عليها لترضعه.

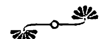


هكذا حُذف الذبيح موسى بن عمران من قوائم المطلوبين، الذين ستكون السكاكين والخناجر في موعد مع رقابهم الصغيرة حال ولادتهم، ومذ دخل الذبيح القصر حلت البركة على حي الإسرائيلي المحاصر بالجنود الوثنيين.. بدأ الاضطهاد يخف تكريمًا لأم موسى الطيبة.. أصبح بيت عمران مرحبًا به

في القصر، أما موسى فبدأ يكبر في الدلال، وكلما كبر.. كبر حبه في قلب آسية الكريمة.

كان فرعون لا يكرهه، بل يحبه، فقد ألقى الله عليه المحبة، لكن ليس لدى فرعون وقت له.. هو مشغول بعرشه.. يتوجس خوفًا من كل حركة، وإذ به يرتكب حماقة، جعلت عرشه مهددًا.. كان يخاطب شعبه القبطي الوثني بفوقية.. يقول لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وهم بالمقابل يرضون بهذه الخرافة، وكيف لا يعبدونه، وهم الذين عبدوا آلهة من نسج خيالهم.. إله للشمس وإله للنيل، وإله برأس تمساح، وخرافات وأساطير، لم تجد آذانا لدى الكثير من الإسرائيليين أحفاد الأنبياء، مما زاد من حقد فرعون عليهم، لولا زوجته آسية التي خففت من هذا الاحتقان والمعاناة.

مرت السنوات، وكبر موسى تحيطه رعاية الله ومعيته.. يصنعه على عينه، ويصطنعه لنفسه سبحانه.. كان يتردد بين أميه الحبيبتين، ولما كبر أخبرته أمه بالسر الذي لا يعلمه إلا هي ووالده وأخته.. أخبرته أنه من أحفاد إسرائيل (يعقوب) بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وأنه من سلالة أنبياء، رسالتهم التوحيد والعدل، فنشأ على التوحيد النقي، رغم الوثنية الجارفة، التي تعصف بالقصر ومصر، ولما تجاوز الثامنة عشر، و﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾، آتاه الله حكمًا وعلمًا، ووهبه قوة جسدية فريدة.. كان جسده في القصر، لكن مشاعره ووجدانه مع معاناة شعبه الإسرائيلي.. معاناة شعورية، عاشها رغم الترف.. حتى جاء ذلك اليوم، الذي غادر فيها القصر والحي معًا.



موسى من أمير إلى مطلوب

كان الشاب موسى يرى تهميش الإسرائيليين الموحدين واضطهادهم.. يتألم من العنصرية الفرعونية الوثنية تجاههم، ومع ذلك ظل وفيًّا للقصر، حتى جاء

ذلـك اليوم الذي قلب حياته رأسًـا علـى عقب، فقد دخل المدينة سـاعة الظهيرة، وبينمـا هـو في أحـد الطرقات، إذ به يسـمع نـداء اسـتغاثة من بعيـد.. ركض نحو المسـتغيث، فإذ هو إسـرائيلي يسـتغيث من قبطي وثنـي، فهب لنجدته.

وفـي لحظة من لحظات الشـعور بالاضطهاد.. وجه موسـى لكـزة قوية لصدر الوثنـي، فـإذ به يرتطم بـالأرض دون حراك.. صعق موسـى فانحنـى على القبطي يتحسـس نفسَـه، فإذا هو قد انقطع وفارق الحياة.. امتلكه شـعور بالخوف من الله لا يوصـف.. شـعر بخطئه حين انفعل تعاطفًا مع شـعبه، فالوثنيـون كانوا يذبحون إخوتـه الرضـع.. يفصلـون رؤوسـهم الصغيـرة عـن أجسـادهم دون مبـرر، ومع ذلـك لم يبـرر لنفسـه، ولم يجـد لها عذرًا فـي إزهاق نفـس بريئة، حتـى وإن كان خصمًا لقومه.

قتلـه الندم، واعتـرف لربه بذنبه، وهو يتأمل الرجل الممدد أمامه، فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، اسـودت الدنيـا فـي وجـه موسـى، وتلفـت ليتأكـد أن أحـدًا لم يره، ثم انطلق هاربًا وسـط نظرات ودهشـة الإسـرائيلي.. ندم موسـى، وتوجـه بقلبـه ولسـانه ومشـاعره إلى مـن أنقذه مـن سـكاكين الجزارين الفراعنـة، وهـو فـي مهـده، وجعلـه أميـرًا، وأسـكنه القصـور طالبًـا منه سـبحانه الغفـران، فقـال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾.



ظـل موسـى يدعو ويسـتغفر، حتى ألقي فـي روعه: أنـه قد غُفر لـه، فاجتاحته السـعادة، وعاهـد ربـه الذي منحـه هذه القـوة، ألا يسـتخدمها في خدمـة مجرم، أو نصـرة متسـلط، وقـال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، ومـع ذلـك ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، يخرج متنكـرًا، ويدخل متخفيًا، لكن يبدو أن الأمـر بـدأ ينكشـف.. ربما من ثرثرة ذلك الإسـرائيلي، حتى علـم أهل القتيل، وذات يوم كان موسـى يسـير في أحد الطرقـات متخفيًا، يتلفت يتحاشـى العيون، وإذ بشـخص يتمكن من معرفته.. ناداه باسـمه، واسـتنجد بقوتـه الخارقة.. توجه

موسى نحو مصدر الصوت، ثم دنا منه فإذا هو الإسرائيلي المشؤوم نفسه، يستقوي به على قبطي آخر، ويهدده بمصير صاحبه الميت، فغضب موسى من هذا الإسرائيلي الذي لا يكف عن الشجار مع الناس، وتوريط الآخرين في مشكلاته.

وفجأة حدث شيء جعل موسى يهرب من المدينة كلها.



موسى يهرب من مصر

اشتد غضب موسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك الإسرائيلي المزعج، الذي لا يكف عن الشجار مع الناس، وتوريط الآخرين في مشكلاته. فزجره وقال له: (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ) تريد توريطي وإغوائي، كي أرتكب جريمة أخرى، ثم توجه نحو القبطي الوثني فقط ليردعه عن اضطهاد الإسرائيليين، وإذ بالقبطي يرتعد، ويوقن بالهلاك بعد أن عرف موسى، فصرخ في وجهه، قائلًا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

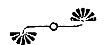
أفاق موسى.. اكتشف أن سره قد انكشف، وأن الإسرائيلي قد فضحه.. أيقظته كلمات القبطي الخائفة، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوابًا رجاعًا للحق، فتراجع فورًا عما هم به.. تذكر توبته ووعده لله، وفي أثناء هذا اللجاج، التفت الثلاثة على وقع أقدام مقبلة من بعيد.. رجل يركض نحوهم بأقصى سرعته.. يقبل نحو موسى، وما إن توقف حتى بدأ بالتقاط كلماته من بين أنفاسه المتقطعة.. قال: وصدره يعلو وينخفض: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فقد انكشف الأمر، وأهل القتيل يمشطون المدينة بحثًا عنك.

انطلق موسى على الفور وولى هاربًا.. قرر أن يغادر مصر، دون أن يودع آسية الحبيبة أو يستأذنها، أو يمر على أمه وأبيه.. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ظل هائمًا على وجهه باتجاه الشمال أيامًا وليالي.. لا يملك مالًا كافيًا، ولا دابة تحمله، حتى أصبح على مشارف بلاد يقال لها مدين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، دعا بتلك الدعوات، وواصل سيره، حتى دخل مدين، وإذ به بعد مسافة يرى حشدًا من الناس.

اقترب فإذا هم جمع من الرعاة، يستقون الماء لهم ولغنمهم ودوابهم.. جال طرفه في المشهد، فوقع على شيء أحزنه، واستثار نخوته ورجولته، وكان من أشد الناس على الظلم، وأكثرهم نجدة ورحمة بالضعفاء ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، آلمه مشهد الفتاتين، وهما واقفتان في حالة انكسار وانتظار بين رعاة أجلاف.. لا يرعون حقًا لضعيف، ولا ذوقًا في التعامل مع النساء. لم يطق موسى صبرًا.. مشى خطوات نحو الفتاتين، واقترب منهما، وسألهما عن سبب انتظارهما، و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.



انغرزت كلمة شيخ في قلبه.. حدب على شيخوخة الأب، وضعف البنات اللواتي لا يستطعن الاقتراب من البئر، حتى يغادر الرعاة، ولن تتاح لهما البئر إلا بعد انصراف الجميع حتى لو قدمتا مبكرتين، فقرر اقتحام البئر.



الغربة والحزن تحت الظل

شعر موسى بالشفقة على شيخوخة الأب، وضعف البنات اللواتي لا يستطعن الاقتراب من البئر حتى يغادر الرعاة، فطلب منهما أن تعطياه

دلويهما. مدت الفتاتان الدلاء، فأخذهما صلى الله عليه وسلم ثم توجه نحو البئر، وإذ بأكتاف الرعاة مصطكة حول ركية، الأولوية فيها للأقوى لا للنظام، وإذ بكتفين كالحديد تفلان تلك الحلقة من الأكتاف الغليظة، وسط ذهول الرعاة وخوفهم.

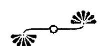
رمى موسى الدلاء، ثم انتشلها من أعماق البئر، وهي تلمع وتفيض، ثم ترك البئر والرعاة خلف ظهره، وتوجه نحو الفتاتين، وقدم لهما الدلاء، وسط فرحتهما بالعودة للمنزل مبكرتين، وإعجابهما وسرورهما بهذا الفتى العطوف، الذي لم يطلب أجرًا أو شكرًا.. كل الذي أراده هو أن ينصف ضعيفتين، قد تأتيان ضمن أول من يرد على البئر، فلا تحصلان على حقهما إلا مع آخر من يبقى، ثم عاد موسى ليستريح تحت ظل شجرة، أو جدار. من عناء السفر، فهو قد وصل للتو، و﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ثم غط في نومة مسافر، أتعبه الخوف والطريق والندم والغربة.

غادرت الفتاتان، وهما تشعران بالشفقة على هذا الشهم الغريب.. تتحدثان عن طيبته، التي خلصتهما من هم الانتظار، وكأنهما تقارنانه برعاة مدين القساة.. تهادتا بقربهما اللامعة على أبيهما في وقت أبكر من المعتاد، فنظر إليهما متعجبًا، فأخبرتاه أن شابًّا شهمًا أشفق عليهما، حين رآهما بلا حول ولا قوة، فقام بالسقاية لهما، ثم ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أشفق الشيخ على هذا الغريب، بعد أن سمع دعاءه.. دعاء يوحي بأن بين أضلاعه معاناة مريرة، وقد آن الأوان لإزاحتها. طلب الشيخ من إحدى ابنتيه أن ترجع إليه، وأن تقول له: إن أبي يدعوك ليكافئك على عملك النبيل.

انطلقت الفتاة على الفور نحو البئر، وما إن رأته تحت الظل، حتى غشيها حياء العذارى، فتهادت نحوه بأدب، ولما وقفت أمامه، قالت له بصوت خجول: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

مـلأت تلك الكلمات قلب موسـى بالسـرور، فرفع رأسـه ونهـض على الفور معها، ومشـيا حتى أقبلا على الشـيخ المهيب، فحياه موسـى، ورحب به الشـيخ، وتأمل شـحوبه، وشعث رأسـه، وضمر خصره من طول السـفر.. دعاه للجلوس، فجلـس، وقدمـت الفتاتـان الطعـام للضيـف، الـذي أنهكـه الجوع والتعـب، وإذ بالشـيخ يقدم لـه عقد عمل طويـل الأجل.



موسى وأشق مهر يدفع لفتاة

جلس موسـى ﷺ مع الشـيخ المؤمن الموحد.. عرَّفه بنفسـه، وأنه أحد أحفـاد إسـرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقـص عليه قصـة معاناتـه وهروبه وسـفره، وأنه ملاحق من قبل الأقبـاط الوثنيين.

كان الشـيخ ينصـت باهتمـام، لـذا طمأنـه وكلـه ثقـة بالواحـد الأحـد، فقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ويبـدو أن قلـب إحـدى الفتاتيـن خفـق رحمـة بأبيهـا وإعجابًـا بموسـى، فدنـت من والدهـا، واقترحـت عليـه أن يوظفه عنـده، فهم بلا أخ يعينهـم، ويعتمدون عليه بعـد الله، كما أنها وأختهـا تعانيان من مشـقة التعامل مـع الرعاة الأجـلاف. قالت الفتـاة: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.



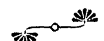
فكر الشـيخ بـرأي ابنته الحكيـم، ورؤيتهـا الثاقبة لأهم صفـات الموظـف، بل همـا أهم صفـات القيـادي والمسـؤول. فالأمانة بلا قوة تجعل المسـؤول سـهل المنـال والاسـتغفال، والقـوة بلا أمانـة تجعـل المسـؤول متهـورًا عنيفًـا، يسـهل استفزازه.

اقتنـع الشـيخ بوجهة نظـر ابنتـه، لكن طموحـه أرفع مـن طموحهـا.. لم يكن يريـد أي أجيـر.. كان يريـد أجيـرًا بمواصفات ابن، وقبـل أن يغادر موسـى.. نظر

الشيخ له نظرة محب، وعرض عليه أمرًا بالغ الصعوبة، على أي شاب طموح في مثل سنه، يتقد حيوية ونشاطًا.. عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، مقابل أن يعمل عنده لمدة ثمان سنوات على الأقل، وقال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

لم تكن تلك الفتاة باقتراحها ذاك بصدد الحديث عن الزواج، ولم يكن لدى موسى من المال والجاه ما يجعله هدفًا لقلوب الفتيات البسيطات.. سوى الرجولة والوسامة.. كان شابًّا طويلًا، شديد الجسم، لونه لا يميل للبياض، وشعره دهين، لكنه ليس ناعمًا ولا مجعدًا.. من يراه يظنه من قبيلة من قبائل اليمن، يقال لها (أزد شنوءة)[1].

وافق موسى على العقد، وقال للشيخ: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾، مرت الأيام فذهب الشحوب والشعث عن موسى، وتم اختيار الزوجة، بناء على موافقتها، فزفت إليه في احتفال متواضع، لم يحضره أحد من أهله.. تمنى لو زفته أمه الحبيبة، أو آسية الطيبة، تمنى لو احتفل بزفافه في حيه الإسرائيلي.. تمنى، وتمنى، لكن ما حدث له بعد الزواج كان فوق أمنياته.



اخلع نعليك

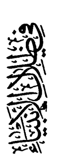
تزوج موسى ﷺ وتحول إلى أجير، يعمل مقابل طعامه وشرابه.. تحولات مريرة مر بها موسى كتحولات يوسف.. كان مقذوفًا في النهر، ثم

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٩)، حيث قال النبي محمد عليه السلام: «**رأيت موسى ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالًا جعدًا، كأنه من رجال شنوءة**».

أميـرًا، ثـم شـريدًا، وأخير أصبح أجيـرًا في امتحـان جديد، وتمحيـص وتهيئة له، ليكـون أهـلًا لمسـؤوليات عظمـى تنتظـره. ظـل يكد علـى أرض مديـن.. يرعى الغنـم، ويجلـب المـاء من الآبار، ثـم رزق بذرية، ولما مرت عشـر سـنوات على إقامته فـي مديـن كان قد تجـاوز الثلاثين.

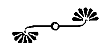
هنـا انتهت مـدة العقد الذي أبرمه مـع صهره، فتحرك قلبه نحـو والديه وأهله، ولمـا حل الشـتاء، حان موعـد الوداع، بكـت القلوب وفاضت العيـون، ثم انطلق موسـى وزوجتـه وأولاده جنوبًـا عبر سـيناء.. سـار وسـار، وفـي ليلة مـن الليالي البـاردة، لمـح ﷺ وهـو فـي الطريـق وميضًـا من بعيـد.. قرب جبـل، يقال لـه الطور.. حـدق فـرأى ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ توقف والتفـت لزوجته وأولاده، وطلـب منهـم البقـاء ريثمـا يعـود، وقـال لهـم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾، ﴿رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾.

بقيـت الأسـرة الصغيرة في الظـلام، يحدقـون بحبيبهم، الذي بـدأ يختفي عن أنظارهـم شـيئًا فشـيئًا، ليتوغل في عالم الأنـوار، الذي أذهله عن أسـرته وعن كل شـيء.. سـلك موسـى شـاطئ الوادي الأيمـن.. يتوكأ علـى عصاه رغم شـبابه، حتـى دنـا مـن النـار.. تأملهـا فـإذا هي ليسـت كتلـك التـي طالمـا أوقدهـا.. نار لم يوقدهـا بشـر، ولم تورث رمـادًا.. وفجأة غمرته مشـاعر روحانيـة لم يعهدها، حيـن ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، نـداء أخـذ بنيـاط قلبه.. يقول لـه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾.



أنصـت موسـى وهـو يسـبح فـي النـور، وإذ ببدنه يقشـعر هيبـة، حين قـال له النداء: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾، ذاب قلبـه.. خشـعت جوارحه، وشـعر أنه في عالـم غيـر العالم.

انحنى عَلَيْهِ السَّلَامُ فخلع نعليه، ثم اعتدل، وبقي مأخوذًا أمام الجلال، الذي سلب مشاعره، وغيبه عن نفسه وأهله.. عن كل شيء حوله.. تماهى بأجمل لحظات حياته.. لحظات أغلا عنده من الدنيا وما فيها ومن فيها. لا يريد لها أن تنقطع أو تتوقف. لحظات تحترق قلوب المؤمنين شوقًا لمثلها، حين يناديهم الرحمن في الجنة، ويكلمهم في النعيم: فمن أسعد من موسى حينها، ومن أقرب منه ساعتها، والرب جل جلاله يناديه مرة أخرى، ويقول له: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، خشعت جوارحه، وأطرق ينصت بقلبه للأوامر الصادرة من العلي الأعلى.



عد يا موسى

أنصت قلب موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأذنه وقلبه وكله للعلي الأعلى سبحانه، وهو يصطفيه ويختاره، يقول له: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

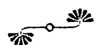
ابتداء من هذه اللحظة تحول موسى إلى رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذ بالجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسأله سؤالًا هو أعلم بجوابه، فيقول: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟ سؤال نقل موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عالم الدهشة والذهول، إلى الواقع الذي يجب إصلاحه بالنبوة. قال موسى: ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، فقال سبحانه: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

رمى موسى عصاه مباشرة، فلم تتدحرج، ولم تحدث صوتًا.. انقلب حية ضخمة، تتلوى بسرعة، وكأنها في سرعة اهتزازها نوع من الحيات، يسمى (جان). لم ينتظر موسى.. أطلق ساقيه هاربًا نحو زوجته وأطفاله، لما ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، وفجأة سمع نداء ربه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

طار الخوف من قلبه وتوقف، فقال له الجبار: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾، فامتثل وعاد إلى عالم النور بسكينة، حتى صار أمام الحية، التي لا تزال تهتز، وكأنها تنتظره.. توقف وحدق بها، فقال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، انحنى موسى على الحية ثقة بربه، ومد يده، وما إن لامست أصابعه طرفها، حتى عادت عصا في كفه، فأخذها والمعجزات تعرج بروحه، وتزيد إيمانه، فقال المولى له: (﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾، ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾، أدخل موسى يده في جيبه، وضمها إلى جنبه، ثم أخرج كفه، فإذا بها بيضاء كالنور.

معجزات وأنوار، أذهلت كليم الله.. تبعتها معجزة ستُطمئن فؤاده، كلما اجتاحه رعب في المستقبل.. لا سيما وهو في مهمة إلى أكبر طاغوت في عصره (فرعون).. حين قال له الله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، إذا فهو في مهمة بالغة الخطورة إلى أكبر طاغوت في عصره (فرعون)، حيث قال سبحانه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

هنا تغير خط الرحلة، فلن يكون الهدف هو الحي الإسرائيلي، ولن تكون سفرته زيارة سرية لبيت أمه الحبيبة، كي ترى أحفادها، وقبل أن ينطلق موسى ارتبك.. تذكر شيئًا نغص عليه حياته، وتسبب في غربته.



افتحوا الباب لحبيب القلب

تأهب موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتنفيذ أمر ربه، لكنه تذكر شيئًا نغص عليه حياته، وتسبب في غربته، فقال لربه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، ثم تذكر شيئًا آخر.. تذكر الصعوبة التي يجدها أحيانًا في النطق، فناشد ربه

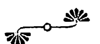
قائـلًا: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

واصـل موسـى أدعيتـه وتوسـلاته: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾، فاسـتجاب الله له، وقـال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾.

ارتفعـت معنويـات موسـى، ثـم عـاد مـن جبل الطـور نحـو أسـرته الصغيرة، الغارقـة فـي ظـلام الليـل.. سـمعوا خشـف نعليـه وسـط الظـلام.. لم يـروا معه شـعلة، أو جذوة مـن النار، لكنه عاد بأنـوار النبوة في قلبه وروحـه وعقله، أما يده فمعجـزة تحمـل معجزة.. أقبل موسـى بغير القلـب الذي ذهب بـه.. ذهب رجلًا موحـدًا مـن أولياء الله، وعـاد لزوجته نبيًّا مـن أولي العزم من الرسـل.. جلس بين يديها والسـكينة تغشـاه.. تأملته، وكأنها تتأمل شـخصًا آخر.. تـرى ما الذي جرى لـه؟ ما الأمر الـذي غيره حـول النار؟

لاحـظ تسـاؤلاتها القلقة، فأخبرها بما جـرى بين النار والنور، فاقشـعر بدنها، وارتجـف قلبهـا، ورفت روحهـا لعظمـة ما سـمعته.. تحولت من زوجـة الأجير الإسـرائيلي القـوي الأمين، إلى زوجة كليم الله ونبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. نهضت الأسـرة الصغيـرة، واسـتأنفت رحلتها عبـر الأودية والشـعاب وبين الجبـال، حتى أقبلت علـى مصر.. سـلك كليم الله طرقـات وممرات ملونة بالذكريـات، تؤدي إلى بيت عمـران فـي الحـي الإسـرائيلي.. وقـف أمـام بيت أمـه القديم فاسـتأذن، فسـرى صوتـه الحبيـب، فأطـرب قلـب أمـه، فتلاشـت عنهـا غيمة الحـزن، التـي كدرته عشـرة أعوام من الوجـد والفراق.

افتحوا الباب لقرة العين.. فاضت العيون للقاء حبيب القلب، الذي لا يكف عن إبكاء قلبها، منذ أن غفا في التابوت.. لمعت عينا الزوجة، وهي ترى الحفاوة والحب والعناق حولها.. قدمت لعائلتها الجديدة أحفادهم، الذين لم يتجاوزوا العاشرة.. جلس موسى وأسرته بين والديه، وكأنه يعوضهما عن سنوات الغربة، ثم أخذ شقيقه هارون، وتوجها نحو القصر.



موسى والذكريات

جلس موسى ﷺ وأسرته بين والديه، وكأنه يعوضهما عن سنوات الغربة، أخبرهما بنبوته ومسؤولياته، والتقى بأخيه وصديق طفولته هارون الفصيح الحبيب.. فتعانق النبيان الأخوان، وتفاهما حول التوجه للفراعنة والأقباط الوثنيين، لانتشالهم من وحل الوثنية، وعبادة البشر، والظلم. إلى عبادة رب البشر وخالقهم، ومالك الملك، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقبل أن ينطلقا ليقولا لفرعون: أنت مجرد بشر، تأكل وتشرب، وتنام وتذهب لدورات المياه مثلهم، وتمرض مثلهم، وستموت يومًا مثلهم.. نزل الوحي يطالبهما باللطف واللين مع طاغية، ينحر المواليد، ويقول لشعبه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

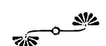


قال سبحانه لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. تساءل النبيان عن جدوى اللين مع طاغية، بلغت قسوته حدًّا لا يطاق، فقالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، فقد تحجر قلب هذا الطاغية الوثني، حتى صار يتلذذ بحز رؤوس المواليد وقطعها، ومع ذلك نزل الوحي ينيرهما: أن للملوك خطابًا ليس لغيرهم.. خطاب يفترض أن يحفظ لهم مكانتهم ومركزهم وألقابهم وهيبتهم.. خطاب يقوي دولتهم بالعدل والتوحيد، مع جرعة وعي، تذكرهم بكرم الله ونعمته، الذي فضلهم على غيرهم، ومكنهم

مـن رقـاب عبـاده.. خطاب يذكرهـم بقـدرة الله عليهـم، وأن أنفاسـهم وعقولهم وحواسـهم وأرواحهم بيده سـبحانه.

انتشـر خبـر وصول موسـى ونبوته فـي الحي الإسـرائيلي، فبدأ الإسـرائيليون الاحتفـالات، وتبـادل التهانـي فرحًـا بظهـور النبـي المنتظـر، الـذي سـينقذهم الله بـه مـن بطـش فرعون، فقـد أصبـح ظلمه لا يطـاق، وما مـن فرج سـوى فرج الله.. تداعـوا نحـو بيـت عمـران، علهم يحظـون بلقاء موسـى، ورؤيته بعـد غيبته الطويلـة، بينمـا كان موسـى بصحبـة أخيـه يغـادران الحـي.. مشـيا بين جـدران، طالمـا رددت نـواح الأمهـات، وصرخـات الرضـع، وتلونت بدمائهم، لا لشـيء سـوى أن أهلهـم يقولـون: لا إله إلا الله. وحده لا شـريك لـه، فالتوحيد يثير جنون فرعـون، وحاشـيته القبطيـة الوثنية.

تجـاوز النبيـان الحـي الحزيـن، وبعـد مسـافة أقبلا علـى القصـر الفرعونـي البـاذخ؛ لتشـرق علـى موسـى ذكريـات حميمـة.. هنـا كان يلهـو ويلعـب تحت ناظـري آسـية الحبيبـة ودلالهـا.. تـرى أيـن هـي الآن.. هـل اشـتاقت إليـه، كما اشـتاق لهـا؟ هـل سـيتغير قلبهـا إن سـمعت خطابـه اليوم؟



من ربكما يا موسى؟

تسـاءل شـوق موسـى ﷺ: تـرى أين آسـية الحبيبـة.. هل اشـتاقت إليه كما اشـتاق لها؟ هل سـيتغير قلبها إن سـمعت خطابه اليوم، أم أن حبه سـيزداد في قلبهـا الحنـون؟ واصل الأخوان سـيرهما، حتـى أوقفهما الجنـود، الذين تحيروا ما يقولـون، بعـد أن عرفهـم موسـى بنفسـه: هـل سـيدخلونه بصفتـه فتـى القصر المدلـل، أم سـيقبضون عليه، لأنه المطلـوب الأول للأقباط الوثنييـن.. تحيروا.. مـاذا سـيقولون لفرعـون. توجـه الحرسـي لرئيسـه، وأخبـره بالغائب الـذي عاد. فأسـرع نحو فرعـون الذي أمـر بإدخاله.

دخل موسى وهارون، وأقبلا على فرعون، الذي رمقهما بنظرات حادة، تحمل مشاعر متناقضة.. عتاب أم شوق أم غضب. وقفا محاطين بحرس شرس، ليبدأ موسى وهارون بكلمات لينة، عل فرعون يفتح عقله لحوار متعقل، ثم قالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

نظر فرعون إلى موسى بفوقية ومنة، قائلًا: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

لم يجحد موسى سكنه في القصر، وعناية زوجته به في طفولته، لكن فرعون نسي أنه هو السبب، وأن موسى ألقي في النهر خوفًا من مجازره المرعبة، أما تربيته في قصره، فمعجزة تدل على قدرة الله على جعله يعتني بالطفل، الذي أمر جنده بالبحث عنه وذبحه.

لم ينكر موسى أيضًا ما ارتكبه بحق القبطي.. اعترف بخطئه مباشرة، فالمكابرة ليست من صفات الأنبياء ولا الأولياء.. هي من صفات فرعون وأمثاله.. اعترف موسى، وقال: أجل ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

انتفض فرعون غضبًا، وانتفخ غرورًا: ما هذه الكلمة التي ترددها: ربي؟ هل لك رب غيري؟ صاح في وجه موسى قائلًا: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟! فقال موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، فقال الطاغية: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، فقال بكل ثقة: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم تلطف موسى به وتحنن إليه تحنن الولد لوالده، وقال: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، تلفت فرعون والغرور يملأ جمجمته الفارغة.. نظر لحاشيته فقال: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ ودون أن تنطق الحاشية بأي كلمة، فتحوا أفواههم، واتسعت أعينهم من شدة الخوف.

خاطب موسى ﷺ حاشية فرعون، وهو يدعوهم إلى عبادة الله، خالق السماوات والأرض، وخالقهم، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، سكتت الحاشية، فصاح بهم فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، تحولت الحاشية إلى تلاميذ، بين نبي يحاور ويحرر العقل، وطاغية يملي، فواصل ﷺ تفعيل عقولهم، وقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

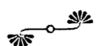
خاف فرعون من حجج موسى الدامغة، فقابلها بالصياح والتهديد، قائلًا: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، طلب موسى من فرعون التخلي عن لغة الصراخ والهياط، قائلًا: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أحرج فرعون أمام أتباعه.. حاصره العقل، فاضطر أن يقول: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، هنا سكت موسى.. لم ينطق بحرف.. كانت العيون شاخصة نحوه.. منهم من ظن أنه سيخرج ليأتي بالدليل، ومنهم من ظن أنه سيواصل مرافعته المفحمة.. أما موسى فكل الذي فعله هو أنه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

دب الرعب في القصر، وأصيب فرعون بالهلع من ضخامتها، أما الحاشية، فتغيرت طريقة جلوسهم، وكأنهم يتأهبون للفرار، وترك فرعون لمصيره. في أثناء ذلك اللغط أدخل موسى يده في جيبه، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾، رفعها فإذا هي كالبدر.. شخصت أبصار الوثنيين، وتحيرت عقولهم، وقلوبهم وأبصارهم تتقلب بين النور والحية.

لم تهاجم الحية أحدًا، فظن فرعون أن موسى يستخدم نوعًا من السحر، فالتفت نحو مستشاريه، و﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، كانت مصر آنذاك تعج بالسحرة.. كانوا جزءًا من الثقافة الفرعونية والقبطية الوثنية، وبعد تشاور بين الحاشية، اقتربوا من فرعون، واقترحوا أن يؤجل الرد على موسى، حتى يتمكن من إحضار

أبـرع السـحرة، قائليـن: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، وافـق فرعـون، وعاد المستشـارون إلـى مقاعدهم، وعـاد فرعون للتهديد، قائلًا لموسـى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

وافـق موسـى، بـل طلب أن يكون يـوم التحدي يـوم العيد؛ ليتمكـن أكبر عدد مـن الشـعب مـن الحضور. ثـم خـرج النبيان نحـو الحي الإسـرائيلي الـذي كان يتحـرق شـوقا لمعرفة ما جـرى بينه وبيـن فرعون.



التوحيد يعود للحي الإسرائيلي

طلب موسـى ﷺ أن يكـون موعد التحدي مع السـحرة الوثنيين صباح يـوم العيـد، وقـال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾، ليتمكـن أكبر عدد مـن الشـعب من الحضـور. ثم خـرج هو وهارون نحـو بني إسـرائيل، الذين كانوا يتحرقـون شـوقًا لمعرفـة ما جرى بينهم وبيـن فرعون، ونزل أمـر الله بجعل بعض البيـوت الإسـرائيلية مسـاجد، حيـث نـزل الوحـي ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

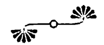


بـدأ النبيـان بتنفيـذ الأمر، لكنهمـا صدما بهول التغيـر، الذي طرأ على توحيد الإسـرائيليين بفعل القمـع الوثنـي، ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾، فقـد أصبـح التوحيـد في عهـد فرعون تهمة، مما جعـل الكثير من بني إسـرائيل يتلوث بالبـدع، لـذا كانت مهمة موسـى شـاقة في اقتـلاع تلـك الخرافات مـن النفوس، التي غرسـتها الثقافـة الفرعونية الوثنيـة بالقوة.

أما خارج الحي، فصدر الأمر الفرعوني بدعوة أعظم وأشهر السحرة في البلاد، فركب الجند والرسل خيلهم وجمالهم، وانطلقوا مسرعين نحو القرى والمدن وحتى البوادي.. يمشطون مصر بحثًا عن أي ساحر أو ساحرة، حتى تمكنوا من جمع أكبر قدر من الدجالين، الذين طارت قلوبهم فرحًا بتلبية دعوة فرعون.. تواصلوا مع شياطينهم، وأحضروا رقاهم ورقعهم، وركبوا دوابهم، وتداعوا نحو مصر، ولما وصلوا تمت استضافتهم في أماكن، أعدها الفراعنة لهم، وتم إخبارهم أن سحر موسى يتلخص في أمرين: أنه يحمل عصا تنقلب إلى حية، ويجعل يده بيضاء كالقمر.

هون السحرة من الأمر، فهي خدع قديمة بالنسبة لهم، لذا كانوا متحمسين للمشاركة طمعًا في جوائز الفرعون، وخوفًا من بطشه. تم الإعلان في الأسواق والطرقات والميادين: أن يوم العيد هذا العام سيكون مختلفًا، فستجري فيه مباراة للتحدي بين السحرة وموسى ﷺ.

مرت الأيام واقترب يوم العيد، فازدادت الإشاعات والإثارة في البلاد، بينما كان موسى وهارون منخرطين في إزالة ما علق بتوحيد قبائلهم الإسرائيلية، ثم جاء يوم العيد، فبدأ المنظمون إعداد الساحة مبكرًا، وفي ساعة الضحى حضر الفرعون وحاشيته والسحرة، واكتظ المكان بالمتفرجين.. هنا نظر السحرة لفرعون، فاشترطوا شرطًا قبل بدء التحدي.



السحرة يشترطون

انتهى المنظمون من تهيئة المكان: هنا سيجلس فرعون، وهنا كبار الشخصيات، وعلى رأسهم وزير اسمه (هامان)، الذي يبدو أنه المسؤول الأول عن البناء. هنا سيصطف السحرة، وهنا مكان موسى، والباقي للمتفرجين.. تم

نشر الحرس في الصباح، وتوزيعهم لضبط الأمن، وبدأ الفضوليون الحضور مبكرًا، ليضمنوا مواقع مميزة للمشاهدة.

اقتربت ساعة الضحى، فحضر كبار الشخصيات، وتداعت آلاف الخطوات، وحضر أناس من بني إسرائيل لمؤازرة موسى ولو معنويًا. بدأ الهمس يرتفع.. والحماس يرتفع، وتعالى ضجيج الوثنيين كالعادة. أقبل السحرة بملابسهم الغريبة، وحبالهم وعصيهم، وهمهماتهم الأغرب، فتعالى التشجيع لرفع معنوياتهم، وتهادى موسى وهارون، فانطلقت صيحات الاستهجان الوثنية، وانطلقت دعوات الإسرائيليين الموحدين بينهم وبين أنفسهم: أن ينصر الله رسله. وأخيرًا أقبل موكب الطاغية، نحو مكان الاحتفال.

أقبل فرعون بملابسه الفاخرة وحليه الذهبية، فارتفعت هتافات التمجيد والتطبيل والتأليه، ثم توجه نحو عرشه؛ ليجلس منتفخًا كطاووس، فسجد السحرة له بذُلٍّ، ثم رفعوا رؤوسهم، وطلبوا منه الإذن بالكلام، قبل بدء العرض، فسمح لهم، فقدموا شرطًا على شكل التماس، وهو أن يمنحهم الهبات إن انتصروا، قائلين: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، فأحب الطاغية أن يشحذ هممهم، ويرفع معنوياتهم بالمال، وأكثر من المال، فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، ستكونون من الحاشية ورجالات البلاط.. المهم أن تهزموا موسى، وتثبتوا أنه مجرد ساحر مشعوذ.



تحمس السحرة، ولاحت المناصب والثراء في مخيلتهم، فاصطفوا يحملون حبالًا وعصيًا وأخشابًا، وكأنهم سيخوضون شجارًا. اصطفوا في مقابل موسى، وموسى صامت أمام هذا الحشد الفارغ.

هتف ﷺ بهم لا ليخوفهم بما معه، بل ليخوفهم بالجبار سبحانه، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، فهم يعرفون أنفسهم، وأنهم مجرد دجالين.

تضعضع بعضهم، هنا شعر البعض بالقلق، وطالبوا بالتحلق للتشاور في المضي والإقدام، أو الانسحاب قبل الفضيحة. دنت رؤوس الخرافة من بعضها، وشكلوا حلقة تتهامس وتتنازع، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، وبعد أن ثرثروا فقرروا التحدي.. رفعوا رؤوسهم، وهتفوا بموسى متحدين.

موسى يمنح السحرة تقاعدًا مبكرًا

دنت رؤوس الخرافة من بعضها، بعد أن اهتزت معنويات البعض، وشكلوا حلقة تتهامس، فطالبوا بعضهم بالثبات. فموسى مثلهم ساحر، يريد خطف الأضواء عنهم، والشهرة، والاستئثار بالمال، و﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾.

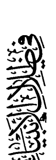
استعاد السحرة معنوياتهم، وصاحوا بموسى المتكىء على عصاه المتواضعة، قائلين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾.

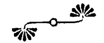
لم يكن عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في عجلة من أمره، لذا هتف بهم قائلًا: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾، فتحفزوا، وزمزموا بتعاويذهم، وكانت آخر تعويذاتهم هي ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾، انطلقت على تلك المشاهد تأوهات الجمهور، وأصيبوا بالدهشة، وتطاولت الرؤوس؛ لتتمكن من الرؤية.. أخافتهم أشياء غريبة تزحف وتتحرك، بل أخافت موسى الذي ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾، فإذ بالوحي ينتشل موسى مما هو فيه.. ينتشله من أجواء الدجل والضجيج، ويقول له: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْ﴾.

رفع موسى عصاه، فانحبست الأنفاس، ثم خاطب السحرة: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، ألقى الكليم عصاه وسط تلك النفايات، وما إن لامست الأرض، حتى انقلبت حية ضخمة فاغرة فاها.

تراجع السحرة.. أصيبوا بالفزع، وهم يرون أنيابًا كالخناجر، وتضعضع فرعون، وقبض على عرشه، وهو يراها تتلوى، وتلتف بين نفايات السحرة، وإذ بها تبتلعها واحدة تلو الأخرى، حتى أتت عليها كلها، ونظفت الساحة، ثم ظلت تهتز، ولها فحيح مرعب.. ترفع رأسها.. تتلفت كأنها تتصفح وجوه السحرة، الذين قتلهم الخوف.. كأنها تقول لهم: هل من مزيد؟

هنا أيقنوا، وهم المحترفون للسحر: أن ما فعلته عصا موسى لا يمت للسحر بصلة، فليس هنا أسحر، ولا أعلم بالسحر منهم، حتى شياطين الجن، الذين يلوذون بهم، ويتمتمون بأسمائهم هربوا، وولوا في حضور الوحي. أيقنوا أنهم أمام نبي.. أمام معجزات فوق مستوى الإنس والجن، لذا لم يطالبوا بجولة ثانية، ولم يماطلوا، أو يكابروا.. خروا لله الواحد الأحد سجدًا أمام فرعون، الذي فقد صوابه، وقرر البطش بهم.





ساحة احتفالات أم ساحة للإعدامات

خر السحرة لرب السماوات والأرض، و﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾، تعالى صراخ الحشود، واستنارت وجوه الإسرائيليين، وهم يغالبون حماسهم، ففز فرعون من على عرشه غاضبًا، يزبد ويرعد، ويهدد ويصرخ بالسحرة: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾، فالإيمان عند فرعون لا علاقة له بالاقتناع.. هو يعد إيمان شعبه ضمن ممتلكاته.. يشكله حسب مزاجه، لذا لجأ للتهمة المعلبة هناك (مؤامرة) من تخطيط الكاهن الأكبر موسى قائلًا: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي

عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾، والهدف من المؤامرة غسل أدمغة الشعب، ليكونوا أتباعًا لكم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ودون محاكمة أو حتى تحقيق أو أدلة، فهو القاضي، وهو الأدلة، صاح فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، لم يدرك هذا المغرور أنه قد فات الأوان.. لم يعد تهديده ووعيده، وحتى عطاياه تساوي عند المؤمنين شيئًا.. كل ما يتعلق به تلاشى، ابتلعته الحية.. حتى ألوهيته ابتلعتها.. حتى الحية اختفت.. عادت عصا في كف موسى.

قارن السحرة ما عند ربهم بما لدى فرعون، فردوا ثقة بربهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، رفت قلوبهم شوقًا لربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكأن فرعون يبشرهم بموعد رحلتهم، التي لا يريدون التأخر عنها، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ولذا لم يلتمسوا عفوه.. تجاهلوه، وتوجهوا نحو خالقهم وحبيبهم سبحانه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾،

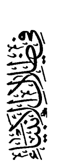
طار تهديد الطاغية وصوابه، وحول ساحة الاحتفال إلى ساحة إعدامات دامية.. طوقهم الجزارون بوحشية، وسحبوهم بعنف أمام أعين الإسرائيليين الباكية، التي طالما رأت أولئك الجلاوزة يحزون رقاب صغارهم.. سُلت السيوف، وجُر المؤمنون الجدد واحدًا تلو الآخر.. يمدون اليد اليمنى للمؤمن، فيرفع الجلاد سيفه، ثم يهوي به، فإذا اليد تطير، ويطش دمها شلالًا، ثم يمدون رجله اليسرى، ثم يهوي السيف فيقطعها، وينفجر الدم مجددًا. تطايرت أيديهم وأرجلهم، وكأنها تسبقهم إلى الجنة، وتحولت الساحة إلى بركة دم. ومع ذلك لم ينته المشهد.



لم يكتف جند فرعون الوثنيون بقطع أيدي وأرجل الموحدين الجدد.. بدؤوا يجرونهم ودماؤهم تشخب على الأرض، ثم يرفعونهم، ويصلبونهم على جذوع النخل، وهم يناجون ربهم، ويحتفلون بالشهادة.. نزفوا ونزفوا حتى اصفرت ألوانهم، وفاضت أرواحهم، ففاضت عيون المؤمنين، وذاب قلب موسى ﷺ كمدًا، فرفع دعوة مظلوم حرى من أعماق قلبه، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

فإذ بالقاهر الجبار يبشره، ويبشر أخاه هارون، ويقول: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مالت الشمس للغروب، بعد أن ارتوت نخيل مصر من دماء الشهداء.. خلت الساحة بعد يوم دامي، وانصرف المسلمون باكين، وأقفى فرعون ووزراؤه إلى القصر، لكنه أصبح منذ اليوم في حالة رعب.. يخشى الاقتراب من موسى ومن عصاه، كان هو ومستشاروه في حالة غليان مما جرى، ورغم شلالات الدماء، التي صبغت جذوع النخل، لم تنطفئ نار الحقد في نفوسهم.. القصر كله كان مضطربًا إلا شخصًا واحدًا، كان في أقصى حالات السكون والطمأنينة.. (آسية) الطيبة.. كانت هناك حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم.. كانت هناك حين ألقى قرة عينها عصاه، فإذا هي تبتلع كل شيء، وتخطف قلبها وعقلها.. آمنت أنه لا إله إلا رب موسى وهارون.



هو خالقها ورازقها والمنعم عليها سبحانه، أما فرعون فليس إلهًا.. هو مجرد زوج، وهي أعلم الناس بخصوصياته وأسراره، وكذبه وظلمه، وجوعه وضعفه وعطشه، ورائحته وعفنه، وقد ضاقت به، وضاقت بها الدنيا، فلم تعد

تطيق قصره.. لم تعد تطيق كنوزه، ولا حليه، ولا حتى رؤيته.. تشعر بأنها ترقد مع وثن، يزعجها شخيره، وتزكمها أنفاسه.

لذا لجأت لربها، وناجته من أعماق قلبها، وقالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقد شاهدت زوجها الطاغوت حين عاد محبطًا منكسرًا.. تتأمل جبنه وخوفه، من أن يمس شعرة من رأس موسى، لأنه يشعر أن نهايته أقرب من ذلك، لذا طلب من مستشاريه الرأي بعد إيمان السحرة بالله سبحانه، فخوفوه على ملكه، وصوروا له الحق باطلًا، والإصلاح إفسادًا، قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾.

تفعيل قانون التطهير العرقي

أنصت الطاغية باهتمام لبطانة السوء، حين أشاروا قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، لكنه تجاهل المساس بموسى، لأنه لا طاقة له به، واكتفى بالبطش بالإسرائيليين المسلمين. أصدر أمرًا بإعادة تفعيل قانون التطهير العرقي والديني، وبشكل أكثر وحشية، فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾.

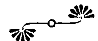
انطلق الجند مجددًا يمشطون الحي الإسرائيلي.. ينشرون الرعب في طرقاته وممراته، فحُطمت الأبواب، وسالت دماء الصغار، فتوجه الإسرائيليون إلى بيت موسى، يحملون الأطفال والرضع.. يحاصرونه بالبكاء والعويل.. يطالبونه بالتحرك، لإيقاف المجاز، التي أمست أفظع من الماضي.. خرج موسى إليهم، وخاطبهم بالصبر، وقال لهم: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

لكـن هـذا الـكلام لم يعجـب الكثيرين منهـم، فقالـوا متذمريـن: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فطمأنهـم، وقـال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ولـم يكتـف ﷺ بالدعـاء، بـل توجـه مباشـرة للقصر، أقبل عليـه فدخله بكل ثقة وسـط فـزع الجند والحاشـية والـوزراء.. لـم يعـد أحد يجرؤ علـى منعه، أو حتـى إبقائه ينتظر علـى الباب.

دخـل دون يـأس، وخاطـب الطاغيـة باللين مجـددًا، ففرعـون يظـل واحـدًا مـن البشـر، والبشـر يتغيـرون.. قناعتهم تتغيـر، مواقفهـم تتبـدل، إلا المعاندين، الذيـن تحركهـم الأهواء والأحقـاد والغرائز. نصحه موسـى بالرجوع عـن الوثنية والظلـم، فـازداد الطاغية صلفًا، بل أصدر أمرًا على سـبيل السـخرية، قائلًا لوزيره (هامـان): ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

كان فرعـون فـي عبثيتـه تلـك، يـدرك أن هامـان لا يسـتطيع أن يبنـي مثل هذا البنـاء، إلا بعـد أن تزول أجيـال.. كان يروغ عن الإجابة بشـكل مضحك، فيقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، هـذا دليل على أني إله، ثم يسـخر من لكنة موسى، قائلًا: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، ثم يطالب موسـى بملائكة تمشـي معه، وتلقى عليه أساور من ذهب، قائـلًا: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، تحجـج ومناكفـة وعنـاد، فالمعانـد لا يهدف للوصـول للحقيقة.. هدفه إسـكات محاوره فقط.

لذا فقد انتهى وقت اللين. فليستعد للأسوأ.



استنفد موسى ﷺ كل أساليب الإقناع واللين مع فرعون، فالأسلوب الذي يفهمه هذا الوثني وأمثاله هو القوة، لذا طلب موسى أن يكف عن التعذيب، ويوقف المجازر، وأن يطلق سراح قومه، وإلا فسوف يرى ما لا طاقة له به.

صمت فرعون خوفًا، لكن جلاوزته استمروا بمجازرهم.. تمادوا في القتل والبطش، وإذ ببوادر العقوبات تلوح في الأفق، ويلوح معها السحاب فلا يمطر.. حتى حلت بمصر سنوات قحط، كالتي حلت أيام يوسف.. جفت المراعي، وماتت المواشي، وقلت الثمار في الأسواق، وضعف الاقتصاد، فبدأ الوثنيون بالتشاؤم من موسى والموحدين، ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ازداد القحط، فخف الظلم والاضطهاد على الإسرائيليين، فبدأت الحياة تعود مجددًا، والاقتصاد ينتعش شيئًا فشيئًا، لكن الإسرائيليين ظلوا ممنوعين من السفر للديار المقدسة في الشام، بل عاود فرعون بطشه بهم، فخوفه موسى بعقوبة أخرى من جبار السماوات والأرض، لكنه تمادى في سكرة التعافي الاقتصادي، وفجأة اجتاح الديار طوفان، أغرق المزارع، فأتلفها، وهدم الكثير من الدور، وأغرق الكثيرين، وأصبحت البلاد في حال يرثى لها، فانشغل فرعون وجنده بأوضاعهم المأساوية عن اضطهاد بني إسرائيل، وبعد زوال الطوفان عاد القمع، فعاد موسى للتحذير، لكن فرعون لم يتراجع.



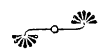
ذات يوم أصبحت السماء غير السماء.. غيمة سوداء هائلة، تسد الأفق، تقبل من بعيد، فيتحول النهار إلى ليل... لم تمطر تلك الغيمة السوداء كالعادة.. فعلت شيئًا مخيفًا.. إنها تهبط على المزارع، تظل على الأرض مدة ثم تقلع،

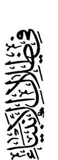
فـإذا المـزارع جـرداء.. إنهـا أسـراب مهولة مـن الجراد، أفنـت المحاصيـل أمام صيحـات الفلاحيـن وعويلهـم، وعجز فرعون عن فعل شـيء، أقلعت الأسـراب المحاربـة، تاركة بؤسًـا وعويلًا.

لـم يقتصـر الأمر على السـماء.. هناك كارثة أخرى تمتـد على أرض الفراعنة.. سـجادة مـن المـوت تمتـد على مـد النظـر.. جيش مـن صغـار الجراد المسـمى الدبـى أو (الْقُمَّـلَ) يزحـف.. يحصـد ما تبقـى مـن زرع، ويسـيل فـي الطرقـات والأسـواق والبيوت.

لم تنته الجوائح.. سـرعان مـا ابتلاهم الجبار بالضفادع، التـي أحالت حياتهم إلـى جحيـم ونقيـق مزعـج.. لا يعرفـون معـه طعمـا للراحـة، وأخيـرًا (الـدم): اجتاحهـم وبـاء يسـبب الرعـاف أو النزيـف، لا يعرفون لـه سـببًا ولا علاجًا.

هنـا شـعر فرعون بتعاطف شـعبه الوثني مع موسـى، فقرر التخلـي عن عناده، وإخـلاء سـبيل بنـي إسـرائيل، وتركهـم يغـادرون، وبعـد أن غـادروا قـام بعمـل كالانتحار.





استسلام أم خديعة

استسـلم فرعـون بعـد تلـك الآيـات، التـي يقـول الله عنهـا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، لم يؤمـن فرعـون ولا قومه.. ظلـوا علـى وثنيتهـم، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، دعـا موسـى ربـه فانزاحـت العقوبـات، أمـا فـي الحـي الإسـرائيلي فعمـت الأفراح والاحتفـالات، وبدؤوا بجمع حاجياتهـم وأمتعتهم، اسـتعدادًا للرحيل إلى الديار المقدسـة.. وضعت الأمتعة على الرواحل، وودعت

القلوب مصر الحبيبة الجميلة.. مصر النيل، مهد الصبا، ومرتع الشباب، التي أفسدها الفرعون بظلمه، وشوهها ببطشه.. تحركت القافلة الإسرائيلية مبتهجة.. متجهة نحو المسجد الأقصى.. كان مشهدًا مؤلمًا لفرعون، ليس لأنه آمن كما وعد، ولا لأنه شعر بالندم على جرائمه.. تألم فرعون لشعوره بالهزيمة، فهو لا يزال يرى موسى مجرد طفل إسرائيلي، تربى في قصره.. كيف يفعل طفل به كل ذلك؟! كيف استطاع تحرير شعبه رغمًا عن أنفه؟

شعور قاتل، يشل تفكيره، جعله يعود لطغيانه، وينكث وعده لموسى، حيث يقول الجبار سبحانه: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، بدأ ذلك النكث حين أصدر الطاغوت فرعون أمره لجنده بالتسلح، وتجهيز عربات القتال، والاستعداد لملاحقة بني إسرائيل، والقبض عليهم، وإبادتهم بشكل كامل. وفورًا بدأ التأهب، وما هو إلا يوم أو يومان، وإذا بفرعون مزهوًّا على عربته الحربية، يقود جيشًا ضخمًا مدججًا لمطاردة قافلة موسى المتجهة نحو سيناء..

لم تكن القافلة المؤمنة تعلم بغدر فرعون.. كانت تسير وتتوقف بأريحية، ففيها الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، وبعد أن قطعوا مسافة كبيرة، واقتربوا من البحر المسمى بخليج السويس، رأوا عجاجة ترتفع خلفهم.. تكبر عجاجة الغبار، وتقترب.. استطلع بعضهم، ثم جاء يرتجف خوفًا، فأخبر موسى الذي صدمه الخبر، وفجأة توقفت قافلة موسى رغمًا عنها.. أوقفها الساحل الغربي للخليج. انتهى الطريق، وما من مفر.. البحر أمامهم، وصياح جيش الطاغية المخيف يدوي، ويدنو خلفهم، فهل هي النهاية؟

طوقهم الجيش الفرعوني، وسل الوثنيون سيوفهم، وبدأ بكاء النساء والأطفال يرتفع، و﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.. وأيقنوا أنهم هالكون بالتأكيد.

قام فرعون على عربته الحربية الفاخرة مزهوًّا.. يحدق بموسى وقومه على شاطىء خليج السويس بهم، وقد قرر هذه المرة أبادتهم عن بكرة أبيهم، بينما كانت أرجل الشيوخ والعجائز والأطفال حائرة، قد غاصت في رمال الشاطىء، وقلوبهم ترتجف بين موتين.. البحر أو النحر، أما القائد موسى ﷺ فكان لا يدري ما يفعل، وسط هذا الضجيج، واستغاثات شعبه وعويلهم.. الذين يصيحون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، لكنه كان هادئًا هدوء إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار.. طمأن شعبه.. حثّهم على التماسك، والثقة بربهم.. كان ﷺ في قمة الثقة بربه، وكأنه يتذكر قوله له ولأخيه في بدايات رسالته: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، لذا صاح بشعبه: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وإذ بالوحي ينزل عليه.. يأمره بحركة.. حركة واحدة فقط، وبعصاه المتواضعة نفسها، لا لتنقلب حية، بل لشيء أكثر هولًا: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾.

مشى موسى على رمال الشاطىء، وما إن انغمست قدماه في الماء، حتى رفع عصاه، ثم ضرب بها الماء، وإذ بصوت مخيف يخلع القلوب.. انشق البحر.. انفلق أمام الكليم إلى نصفين.. من مضرب العصا إلى الساحل الشرقي للخليج.

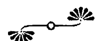


وقف موسى مذهولًا من قدرة العظيم الجبار.. اهتز كيانه إجلالًا لربه، وهو يرى أمامه ﴿طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، ناشفًا، لا طين فيه، ولا زلق، ولا طمي.. طريق واسع، منحدر نحو الأعماق، مفتوحًا على السماء، أما الماء، فالماء تحول إلى جدارين عن اليمين وعن الشمال هائلين.. يتلألآن، وكلما توغل الطريق في أعماق البحر، كلما ارتفعت جدران الماء لعشرات الأمتار.. انفلق البحر فرقين ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾. أيقظ الوحي موسى المنبهر..

يأمره بتدشين الطريق الأزرق الفاخر، ويقول له: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾.

خطا موسى أولى الخطوات، فتحركت قافلة الموحدين ثقة بالله.. الدموع تسيل، والقافلة تسير، والماء يصطف كالجبال على الجانبين، حرسًا يحمي الموحدين.

عبر المستضعفون.. عبر الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، وهم يتلفتون منذهلين مما هم فيه، وعيونهم تفيض.. تتسع، وهي تتأمل تلك اللوحتين الجداريتين الهائلتين، تتأمل هذا السرادق الأزرق، الذي يتلألأ احتفاء بهم في اليوم العاشر من شهر محرم من تلك السنة القمرية[1].



تاريخ تدشين الطريق الفاخر

في اليوم العاشر من شهر محرم من تلك السنة القمرية.. دشن موسى ﷺ الطريق الأزرق الفاخر.. خطا أولى الخطوات عليه، فتحركت خلفه قافلة الموحدين المستضعفين.. عبر الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، ورؤوسهم تدور بين الجدران الزرقاء المهيبة، وقلوبهم تلهج بالشكر لربهم، وعيونهم تفيض، وهي تتأمل هذا السرادق، الذي يتلألأ احتفاء بهم.. تتابعوا حتى عبروا إلى الشاطىء المقابل.

رست القافلة على ميناء سيناء، دون أن تبتل بالماء، بينما كان فرعون أمام بوابة الممر كالتمثال من الذهول، وفجأة أيقظه حقده الذي يسافر في قلبه

(١) صحيح البخاري (٢٠٠٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: «**فأنا أحق بموسى منكم**»، فصامه، وأمر بصيامه.

كالخنجر المعقوف، وهو يحدق في قافلة سجنائه، وهي تتحرر منه.. يحبسه الخوف من مطاردتهم، فهو يدرك تفسير ما يجري أمامه، لكنه يكابر، وأخيرًا طاش حقده على عقله.. عجز عن تحمل رؤيتهم ينعمون بأمان، فأصدر أمره للجيش، باقتحام الطريق المذهل.

علا صياح الجند، وصهيل الخيل، وتحركت العربات، وسلت السيوف، فالطريق مرصوفة وفسيحة، والمسافة ليست بعيدة، وموسى وقومه لا زالوا في متناول اليد.

كان القلق يقتل بعض أفراد قافلة المستضعفين، وهم يحدقون بالجيش الوثني مقبلًا كالموت نحوهم، أما كليم الله ﷺ، فكان قائمًا على البوابة الأخرى، وأقدامه منغمسة في رمال وماء شاطئ سيناء، ممسكًا بالعصى، وكأنه يتهيأ لاستقبال فرعون وجنده.. يراقب جيش قتلة الأطفال، حتى أصبح كله وسط الطريق، وإذ به يضرب بوابة السرادق المائي بعصاه، فإذ بدويّ انفجار مروع، يفجر الآذان.

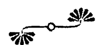
اصطك الجداران ببعضهما، فإذ بموج هائل يصطفق، يعلو في السماء.. يطوح بالعربات والجند والخيل والأسلحة والطغيان في الهواء، ثم تهوي بتلك الأشياء نحو القاع.. اضطربت أمواج البحر، وامتلأت بطون الجند بالماء.. ذاب طغيانهم وسط تأوهات وتسبيحات المتفرجين المؤمنين، ثم ساد الأجواء سكون مهيب.



سكن طوفان البحر الغاضب شيئًا فشيئًا، وكأنه يلتقط أنفاسه، ثم انقطع المشهد، واختفت البوابات، وأمحا الجيش، أما قاتل الأطفال الذي كان يقول قبل ساعات: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فهو الآن مجرد شيء، يرفعه الموج ويهوي، وهو بلا حول ولا قوة.

خارت قوى الإله المزيف، وأيقن بدنو أجله وهو يتنفس ماء وموتًا وندمًا.. أيقن بدنو أجله، وهو يغرغر ندمًا.. يحاول تدارك الأمر.. يقول بعد أن أدركه

الغرق، وأشرف على الموت، وهو يغرغر: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، آمن برب بني إسرائيل، المسلمين الذين نحرهم، من أجل أنهم آمنوا بربهم، من أجل أنهم يقولون: لا إله إلا الله.



موسى يترك قافلته

اصطك الجداران المائيان، فدكا جيش الفراعنة، وندم فرعون حيث لا ينفع الندم.. في توقيت يقول الجبار سبحانه عنه: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ابتلع الطوفان قاتل الأطفال، وأذهلت المشاهد الإسرائيليين، وهم يرون قدرة ربهم، الذي أذل من أذلهم وأغرقه.. ينظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم يقولون: من يصدق أن فرعون وجنده الوثنيين يختفون بلمح البصر؟

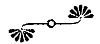
تحول البحر إلى ضريح، لكنه لم يطق جثثهم.. لفظها بعد مدة، فطفت على سطحه، ثم قذفتها الرياح على الساحلين.. قذفت بمن كانوا يملؤون الأجواء رعبًا.. تناثرت جثث من قطعوا أيدي التائبين وأرجلهم، وصلبوهم في جذوع النخل. تناثرت، فانطلق بعض الإسرائيليين نحوها، يسلبونها.. يخلعون حليها وأساورها الثمينة، وبعد مدة غادر موسى وقومه، وانطلقوا بمحاذاة الساحل شمالًا نحو الأرض المقدسة، لكن ماذا عن بقايا دولة الوثنيين؟

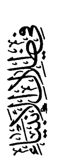
وصلهم الخبر، فأرسلوا قوة نحو ساحل الفناء، فإذا بالجثث على الساحل. قلبوها.. تصفحوها، وقد غيرتها الشمس، وأخيرًا عثروا عليه: ها هو فرعون جثة متورمة.. بلا سلطة.. بلا حرس.

رفعوا جثته المتعفنة، ثم وضعوها على إحدى العربات وعادوا، ثم أخذوها إلى معمل للتحنيط، حيث يبرع الفراعنة، ليبقى جسده حتى اليوم شاهدًا وآية، يقول عنها الجبار سبحانه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةً

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، معجزة متاحة للفرجة حتى اليوم.. تشهد بصدق القرآن، وزوال الطغيان، ونبوة موسى، الذي انطلق لبيت المقدس، لكنه اكتشف في أثناء الطريق أن فرعون ما زال حيًّا بين الإسرائيليين.

حدث ذلك حين كان رجل إسرائيلي غامضٌ متأثرًا بوثنية الأقباط، يدعى (السامري)، يتعاطى السحر.. كان السامري يتابع موسى، وإذ به يشاهد جبريل، ينزل على موسى في أثناء غرق فرعون على هيئة مقاتل، كما ينزل على بعض الأنبياء في أثناء حروبهم، ويبدو أنه بعد أن افترق جبريل وموسى، دنا السامري الغامض من المكان، وانحنى على الأرض، ومد يده، وأخذ قبضة تراب من أثر الرسول، وأخفاها في ثيابه، واحتفظ بها، بينما سارت القافلة الإسرائيلية بطمأنينة، فلا خوف بعد اليوم، ولا ملاحقة، ولا عنصرية، ولا اضطهاد.. قافلة تحلم بمستقبل واعد، وآمال تمحو الآلام. بينما كان السامري يخطط لأمر، ينسف كل جهود موسى ﷺ.





إلى أين ستذهب يا موسى؟

اكتشف موسى ﷺ بعد غرق فرعون: أن بعض الإسرائيليين قد تأثروا بوثنية الأقباط، كما تأثر السامري، الذي برع في السحر الوثني في أثناء إقامته مع الفراعنة.. اكتشف ذلك على أرض سيناء، حين مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

صدم ﷺ بمقولتهم، وغضب منها غضبًا شديدًا، ثم اكتشف أنه لم يؤمن ﴿لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، صاح بوجوههم، و﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وأخبرهم أن هؤلاء الوثنيين غاية في التخلف والغباء، حين يعبدون ما لا ينفع ولا يضر.

يعبدون أشياء هم صنعوها أو نجروها، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، ثم كشف لهم أي جحود يرتكبونه بحق خالقهم ورازقهم، الذي نصرهم، وفضَّلهم بنعم ليست عند غيرهم، وأولها التوحيد والنبوة، فقال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فضلكم بالتوحيد، فبلا توحيد تكونون أنتم والعاكفون على الأصنام سواء.. بعد ذلك التنبيه واصل موسى بمحاذاة الساحل، وبعد مسافة شعر بشوق عاصف للوادي المقدس، فلم يطق صبرًا.. أمر القافلة بالتوقف والنزول على الساحل.

توقفت المطايا، ونزل المسافرون، وأنزلوا أمتعتهم، وانتشروا في الأرض.. توجه موسى لأخيه هارون، وأخبره بوجهته، وأمره أن يخلفه في قيادة بني إسرائيل، وأن يكون حازمًا تجاه من يعبث بالتوحيد، أو يبتدع في الدين، أو ينشر فسادًا، قائلًا: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

انطلق موسى صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الوادي، وهو يسبح في نعم تقله وتظله، فقد خرج من مصر بالأمس خائفًا، ثم شقي في غربته أجيرًا لعشر سنوات، مقابل لقمة عيشه، وها هو اليوم يخرج منها نبيًّا وقائدًا منتصرًا على الطاغوت وجنده.. سار وسار، ولما اقترب من الوادي، خفق قلبه شوقًا، ولما أصبح على مشارف الوادي، تهادى نحوه، وقد غشيه إجلال لربه، ولما وصل خلع نعليه ثم مشى خطوات ثم توقف حيث توقف تلك الليلة، فإذ بنداء الجبار سبحانه يجتاح مشاعره وحواسه. الجبار العظيم جَلَّ جَلَالُهُ يكلمه؛ لتتلاشى الدنيا بأسرها، ويشعر بشغف لا يطيقه.. عجز عن كتمانه، أو السكوت عنه.. شغف موسى بأكثر من الكلام مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، طمع موسى برؤية جبار السماوات والأرض، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فإذ بموسى يصاب بشيء يعجزه، حتى عن رؤية ما حوله.

خلع موسى ﷺ نعليه، وخلع معها الدنيا بأسرها، فمن أسعد منه، والجبار سبحانه سيكلمه.. دنا من البقعة المباركة، في الوادي المقدس، فأخذته رهبة المكان، وإجلال الخالق الذي ناداه، فقال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، وإذ بالجبار جَلَّ جَلَالُهُ يخبره بأمر جلل، حدث بعد مغادرته للمعسكر الإسرائيلي، قائلًا: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

صعق موسى للخبر، ثم هدأ حين أنزل الله عليه مقدمة التوراة.. كلامًا مكتوبًا على لوحين من الصخر، ابتدأ بتوحيد الله سبحانه، ونفي أي شريك معه.. ظل موسى في الوادي المقدس أربعين يومًا، في حال لا مثيل لها: ذكر لله وخلوة وصفاء للروح.. تحلق روحه في أنوار، يعجز عن وصفها، ويشعر بحب يزداد مع كل كلمة يلهج بها، فيشعر بعطش للمزيد من هذا الشوق والحب، ويحاول أن يرتوي فيزداد عطشًا، فيرف قلبه للمزيد.. يرف قلبه لأبعد من الصوت والحرف.. يتحرق شوقًا لرؤية الحبيب سبحانه، فيعجز عن كبت مشاعره، ويقول: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾.



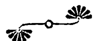
فإذ بالإجابة نور لا يطيقه موسى ولا غيره.. حتى الجبال الصم الرواسي لا تطيقه، فلا عقل موسى ولا جسده ولا قلبه ولا كل حواسه قادرة على تحمل رؤية الجبار المتعال، الذي قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

التفت موسى نحو جبل هائل، كان طودًا شامخًا قبل قليل، فلم يجده.. تلاشى.. تبخر حين رفعت الحجب، فكيف لإنسان من لحم ودم أن يصمد. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، من هول ما رأى.. أغمي عليه رهبة وحبًّا وإجلالا وهيبة..

مشاعر أكبر من أن يتحملها، أو أن يصفها، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

تاب موسى من هذا الطلب، فلن يراه أحد في الدنيا، حتى محمد ﷺ، حين سئل: هل رأى ربه؟ قال: «**نور أنَّى أراه**»[1]، فالرؤية هناك في الجنة، حين يعاد خلق الإنس خلقًا آخر أرقى وأعظم.. خلق قابل لرؤية الجبار.. خلق عظيم قابل للخلود، بلا أمراض، أو آفات، أو أحزان، أو تغير إلا إلى الأحسن، وحين يرى أهل الجنة حبيبهم سبحانه تذهلهم رؤيته وجلاله وجماله، عما هم فيه من نعيم.

أفاق موسى ﷺ وهو أكثر إيمانًا وإجلالًا لربه، ثم نهض وأخذ ألواح التوراة، وغادر الوادي المقدس، ليعالج الوثنية التي أغوت المعسكر الإسرائيلي.



المعسكر الإسرائيلي فوضى ووثنية

عاد موسى ﷺ من الوادي المقدس بعد أربعين يومًا، قال الله سبحانه عنها: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ﴾، وهي أيام لا علاقة لها بشهر ذي القعدة، ولا بعشر ذي الحجة، لأنها جاءت بعد محرم، فالله قد أنقذ موسى ﷺ، وأغرق فرعون في العاشر من محرم من ذلك العام، فلا يمكن للتاريخ أن يرجع.

عاد موسى ممتلئًا بالإيمان، لكن ما جرى داخل المعسكر الإسرائيلي أجج غضبه، فنضاله ونضال الأنبياء قبله والأنبياء بعده كان من أجل توحيد الله سبحانه

---

(١) صحيح مسلم (١٧٨).

أولًا وقبل كل شيء، ولما وصل صدم صدمة كبيرة، حيث وجد الوضع كارثيًا: المعسكر يعج بالفوضى والشرك والانفلات، فقد استغل الساحر السامري غيابه، فمارس ألاعيبه، التي تعلمها في مصر مستغفلًا الكثير من الإسرائيليين، فصدقوه، وأعطوه حليهم، والحلي التي سلبوها من جثث الفراعنة والأقباط الوثنيين، المتناثرة على الساحل، ثم قام بصهرها وصياغتها على شكل عجل أجوف، يصدر صوتًا كآلات النفخ الموسيقية، ثم قام باستخدام أثر الرسول، كما يفعل السحرة بالآثار الموجودة على الرمال والملابس والشعر.

أحاط الإسرائيليون بالسامري، وهو يمارس سحره، فانخدع به السذج، وتابعه ضعيفو الإيمان. لم يكتف السامري بالسحر.. لقد تجرأ وتمادى إلى محاولة نسف التوحيد، وإعادة إنتاج الوثنية، فبث أتباعه المتأثرين بوثنية الفراعنة، ليقولوا للناس: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، أي أن موسى نسي إلهه، فذهب للبحث عنه، وأن السامري قد عثر عليه، وها هو أمامكم، فاعبدوه.

سمع الموحدون هذا الدجل، فغضبوا، وانطلقوا نحو النبي هارون ﷺ فأخبروه، فأقبل غاضبًا نحو الجموع، التي تطوف بالعجل الذهبي، وهي تتمتم وتهمهم، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾، فأجابوه إجابة تدل على أنهم يعانون خللًا كبيرًا في العقيدة.. أصروا على أن يحسم موسى أمر العجل بنفسه، و﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾، واصل هارون المشي بينهم، محاولًا ثنيهم عن الشرك بالله سبحانه، لكن السامري شكل عصابة منظمة.. حاولوا إسكات هارون، بل والاعتداء عليه، لدرجة أنهم حاولوا قتله.

قلت حيلة هارون ﷺ فشكا أمره لربه، وانتظر قدوم أخيه وقلبه يتمزق، وبعد أكثر من شهر ونصف.. تعالت الأصوات والضجيج في المعسكر، حين انتشر خبر نزل كالصاعقة على السامري وعصابته.

موسى يلقي ألواح التوراة

أقبل موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المعسكر الإسرائيلي، والغضب يلون وجهه.. لم يتجه لأخيه هارون.. توجه كالسيف البتار نحو الجموع الغبية، التي تطوف بالعجل الصنم.. حدق بجهلهم، وصاح بهم: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

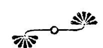
زلزلتهم الكلمات، وأسقط في أيديهم.. أدركوا أنهم وقعوا في الشرك، فاعتذروا، و﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾، فتركهم موسى، ثم انطلق نحو نائبه هارون؛ ليسأله عن موقفه مما جرى، ولماذا لمْ يتركهم، ويلحق به حين وقعوا في الشرك؟

وما إن رآه حتى تأجج غضبه، وفقد شعوره؛ لدرجة أن موسى ألقى الألواح على الأرض، دون أن يشعر، ومد يده بغضب، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، ويهزه، وأمسك بلحيته، وهو يعاتبه، قائلًا: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾؟

كان هارون لينًا عطوفًا على شعبه.. يخشى انقسامهم، بعد ما مروا به من سنوات قمع مريرة، ومجازر مؤلمة، لذا قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾، ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

رق موسى لكلمات هارون ورجاءاته، فترك رأسه، وانطلق نحو رأس الفتنة والبدعة.. نحو السامري الساحر الإسرائيلي الوثني، المزهو بين الغوغاء، ولما وقف أمامه شزره بنظرة كالموت، وصاح به: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾.

تضعضع الدجال من نظرات موسى، فبدأ يبحث عن مخرج هنا أو هناك، ويقول: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾، هنا أخبره موسى أن عقابه لن يكون اليوم، فلا مساس به في الدنيا.. حسابه يوم القيامة، قائلًا: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، ثم أشار موسى إلى عجله الأجوف، وقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، ثم خاطب موسى أصحابه المؤمنين.. طالبًا منه تحطيم هذا الإله المزيف وحرقه، ثم رميه في الخليج، كما رُمي الطاغوت، الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.



البحر يبتلع الإله المزيف الآخر

هتف موسى ﷺ بصحابته، وأمرهم بجمع حطب، وإشعال النار فيه. انطلق الإسرائيليون المسلمون يحتطبون هنا وهناك، ثم أقبلوا وقد انحنت ظهورهم تحت حزم الحطب، ولما وصلوا رموا بها على الأرض، وكدسوها فوق بعضها كومة هائلة، ثم أشعلوا فيها النار، ولما تأجج اللهب.. توجه مجموعة منهم نحو العجل الذهبي إله السامري، فحملوه وأقبلوا به نحو النار، ثم طوحوا به وسط ألسنة اللهب.

لم يقاوم ذلك الإله، بل ولم يصمد لوقت طويل.. دقائق فإذ بإله السامري والمغفلين يتغير قوامه.. يذوب، ثم يسيح مختلطًا بالرماد والتراب، ومتحولًا إلى نفايات. تركوه حتى برد، ثم حملوا الخليط فطوحوا به وسط مياه الخليج.

انتهى الإله المزيف الذي صنعه السامري.. انتهى إله لم يتجاوز من العمر أكثر من شهر ونصف.. هوى لقاع البحر، كما هوى الفرعون الذي كان

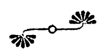
يقول لشعبه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وبعد التخلص من تلك النفاية توعد موسى الإسرائيليين الوثنيين الذين عبدوا العجل بمصير أسود، يقول الله عنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٌ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾.

شعر موسى بأن معاناته مع الطغيان الوثني قد ولت، لكن معاناته الجديدة والأطول قد بدأت، وهي معاناته من شعبه الإسرائيلي أنفسهم، فالسنوات التي قضوها في بيئة فرعونية وثنية قمعية، حولت الكثير منهم إلى مزيج من التناقضات، فبنو إسرائيل يتمتعون بأعظم نسب في العالم، ويباهون غيرهم بأنهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، بينما يتعامل معهم الوثنيون بازدراء، وكأنهم من طبقة العبيد.. الإسرائيليون ينتمون لأنبياء بشروا بالتوحيد، وناضلوا لنشره، بينما يرغمهم الوثنيون على ممارسة الشرك والركوع والسجود لأخشاب وصخور منحوتة، ولدجال اسمه فرعون.

أجداد الإسرائيليين (الأنبياء) يحملون رسالة العدل، بينما أصبحوا هم يستوحشون من الحرية، لكثرة ما تعرضوا له من القمع والظلم والتقتيل.

نفسية أمثال هؤلاء لن تكون سوية غالبًا، والأيام القادمة ستحمل لموسى سلسلة من المفاجآت الصادمة، فهي نفسيات تحمل إرثًا ثقيلًا من القمع متعبًا، مما جعلهم يتحولون إلى بيئة مناسبة للتطرف في كل اتجاه، لذا لا يمكن لموسى أن يعتمد في التعامل معهم على أسلوب الوعظ والإرشاد والتعليم فقط.. لا بد أيضًا من الصرامة والرقابة معًا.

فما الذي سيتخذه موسى تجاه من عبدوا العجل؟



بنو إسرائيل وأول عقوبة تنزل بهم

كانت عبادة العجل نسف كامل لتوحيد الله سبحانه، وكفر برسالة موسى ﷺ، وارتكاب لأعظم ذنب عند الله الذي يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، لذا توجه موسى ﷺ نحو شعبه، وقام خطيبًا في معسكره الإسرائيلي بقسميه: المسلم والوثني معًا. فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

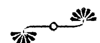
كانت تلك عقوبة واختبارًا قاسيًا للمسلمين، الذين انصاعوا للأمر، وتهيؤوا لقتال إخوة النسب، الذين عبدوا العجل.. حملوا السلاح، وشنوا عليهم هجومًا، فسقط من الموحدين شهداء، ومن السامريين قتلى، ثم أمرهم موسى بإيقاف القتال، بعد أن أعلن السامريون توبتهم، واعترفوا أن ارتكابهم للشرك ليس بالأمر الهين، بعد كل ما رأوه من معجزات لموسى ونصر وتأييد رباني، وهل اضطهدهم فرعون إلا من أجل توحيدهم لله، وهل أرسل الله أنبياءه ورسله إلا من أجل التوحيد، فكيف يقوم أبناء الأنبياء بنسفه؟ بل وصناعة الأصنام وعبادتها؟ كيف يقوم أهل التوحيد بخيانة ربهم، الذي شق لهم البحر، وأنجاهم، وأغرق عدو الله وعدوهم؟



كان الشرك مفزعًا جدًّا لموسى، لذا تبرأ منه، ودعا ربه طالبًا المغفرة، وقائلًا: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، استغفر ربه رغم أنه لم يسهم بالوثنية، ولم يرض هو ولا أخوه بها.. استغفر، لأن الاستغفار اعتراف مستمر بالحاجة لرحمة الله سبحانه، وأن ما يتلقاه موسى من تأييد وخوارق هي من الله وحده، ولو شاء لسلبها في لحظة.. النبي دائم الشكر. دائم العرفان. دائم التواضع لمن رفعه واختاره وفضله، لأنه يعرف قدْر الله وقدرة الله أكثر من غيره.

مـر ذلـك الاختبـار مريرًا على بني إسـرائيل، ثـم عفا الله عنهم، وتـاب عليهم، واسـتأنف موسـى وهـارون نشر الوعـي بينهـم مجـددًا، بتعاليـم جديـدة، تتنزل تباعًـا.. تعاليم مـن أجل تقوية إيمانهـم، لذا طلب منهم الاجتمـاع، ولما اجتمعوا انتقـى منهـم سـبعين رجـلًا ليرافقـوه فـي رحلتـه الثالثـة لجبـل طـور، وليكونـوا شهودًا.

انطلـق السـبعون خلـف موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتـى أقبلوا علـى الـوادي المقدس، وكان غيـر بعيـد جدًّا عن مـكان إقامتهم على البحر.. سـاروا حتى دنـوا منه، ولما دنـوا ارتجـت الأرض مـن تحتهـم ومـن حولهـم.. تسـاقطوا وشـعروا بالرعب، واجتاح موسـى خـوف شـديد، وظن أنـه الهلاك بسـبب العجل.



أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سيناء

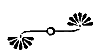
اجتـاح الخـوف موسـى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. خشـي أن تكون هـذه الرجفـة عقوبة لما ارتكبـه بعضهـم مـن وثنية.. خشـي أن تكـون مقدمة لمثـل الصيحة، التـي أبادت قـوم ثمـود ومديـن، فناشـد الغفـور الرحيـم سـبحانه اللطـف قائـلًا: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾، فخاطبـه سـبحانه وقـال: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

ثم بيّن سـبحانه أن أحق الناس برحمته ليس أولئـك المتقلبون الجاحدون، بل هـم أمة نبينـا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي يحملها المسـتقبل، وذلك لصفات يحبها الله فيهم، قائلًا: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ

﴿عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، تلك هي إحدى البشارات ببعثة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. بشارة نزلت في سيناء.. في لحظات خذلان معظم شعب موسى لموسى، وتخليهم عن التوحيد.. بشارة تكشف أن رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته هي الأمر بالمعروف، وأوله التوحيد والعدل، والنهي عن المنكر، وأشده الشرك والفساد والظلم، وقد أغرق الله فرعون قبل أشهر، لأنه ادعى الألوهية، وظلم الإسرائيليين، رغم تلوث الكثير منهم بالشرك، ولو لم يلاحقهم في البحر، ويصر على إبادتهم، لربما كان حيًّا، فالجبار سبحانه حرم على نفسه الظلم، وحرمه على خلقه.. فقال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»(١)، لا يرضى بالظلم، ولو لمن يكفرون به، ففي الدنيا: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فالحساب في الآخرة، أما الفساد والظلم، فلا تسامح فيها في الدنيا ولا في الآخرة، ولذا تنهار الأمم الفاسدة، رغم قوتها وثرائها، وتدوم الأمم العادلة، مهما كانت عقيدتها.

مفاهيم جاهد موسى لإيصالها، لكن يبدو أن قومه يحتاجون لمجاهدة أكبر، فها هم بعدما عاد موسى والسبعون.. يستقبلونهم، والفضول يقتلهم.. يحتشدون حولهم.. يسألونهم عما جرى لهم، وعن كلام الله لموسى.. يطلبون المزيد من التفاصيل. لكن حديث موسى والسبعين لم يشبع غرورهم، فلم تتوقف أسئلتهم التي لا تبحث عن الإجابة لتعمل، بقدر ما تبحث عن جمع المعلومة للمعلومة نفسها.

بدؤوا بمطالبة موسى بأشياء غريبة.. توجهوا نحوه ذات يوم، فطالبوه بشيء مستحيل.



---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧)، وهو حديث قدسي.

رغم أنه يوجد من الإسرائيليين أنبياء ورجال ونساء عظماء وعظيمات، وموحدون نبلاء، ورغم أن منهم من وصفهم الله سبحانه بأنهم: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، وأنه فضل هذه القبيلة على الأمم والقبائل، إلا أن غالبيتهم وقفوا من نبيهم موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موقفًا محيرًا.. ممتلئين بالغرور.. مغترين بحلم الله، وتفضله عليهم، وكأنهم يقولون لأنفسهم:

من مثلنا من القبائل: نحن بنو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم.. أجدادنا وآباؤنا وأعمامنا أنبياء، بل من إخوتنا، ومن بيننا من هو نبي.. نحن من جعل الله النار بردًا وسلامًا على جدنا.. نحن من بنينا بيت المقدس.. نحن من شق الله لنا البحر، وأغرق من أجلنا فرعون وجنده الأقباط الوثنيين.. منا يعقوب ويوسف والأسباط، ومنا كليم الله موسى وهارون، فمن مثلنا؟

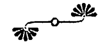
لا أحد، وما دمنا الأعظم، فلا ينقصنا سوى شيء واحد، وإن لم يتحقق فسوف نتمرد.

مشى هؤلاء الإسرائيليون نحو رسول الله موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد تورموا من العجب والغرور، معلنين تمردهم إن لم يتحقق لهم ما يريدون. قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

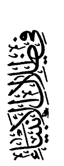
وبينما هم ينظرون إلى موسى، وينتظرون جوابه، وقبل أن يرد.. قبل أن يحرك شفتيه بكلمة.. أتاهم الرد من السماء.. دوت صاعقة مرعبة رددتها الجبال، فإذا هم جثث متناثرة أمامه.. ارتج موسى مما حوله.. كان مشهد الجثث مروعًا، وكأنما خرت من السماء.. رق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمآل هؤلاء الأشقياء، فدعا ربه، وناشده العفو عنهم، فاستجاب الرحمن الرحيم، فإذا الحياة تسري بأطرافهم.. يتحركون.. ينهضون ببطء، والذعر يجتاحهم.. يتأملون العالم من حولهم.. يتحسسون أبدانهم.. تدور أعينهم بين الأرض والسماء.

شعروا بعظمة الجبار سبحانه، فتلاشى فخرهم، وشكروه، واستغفروه مجددًا، وتاب من كان وثنيًا، واعتذروا لموسى، وعادوا لأطفالهم، الذين كانوا قبل قليل أيتامًا، ولنسائهم بعد أن كن قبل دقائق أرامل. سكنت تلك القبائل وهدأت، ومرت الأيام، فإذا بهم يطلبون من موسى شيئًا آخر.. يطالبونه بمياه عذبة، بدلًا من السقيا المرهق من الآبار، فدعا موسى ﷺ ربه، فإذا به يتلقى أمر الجبار: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾.

تقدم الكليم نحو أحد الحجارة الكبيرة، ولما وقف أمامه رفع عصاه، فضرب به حجرًا كبيرًا أمامه، فإذ بأطراف الحجر تنبجس أمامهم شلالات ماء.. اثنتا عشرة عينًا، تتفجر ماء زلالًا بعدد قبائل بني إسرائيل، لكل قبيلة شلال، فهل انتهت مناكفات بني إسرائيل؟ لا يبدو ذلك، فزمن المناكفات الإسرائيلي لم ينته، لكن يبدو أن زمنًا آخر للتحايل قد بدأ.



أنهار ومن وسلوى ونظام



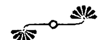
في سيناء أمر الله سبحانه موسى ﷺ: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، فرفع عصاه فضرب به حجرًا كبيرًا جدًّا أمامه، فإذ بالماء ينبجس من أطراف الحجر شلالات ماء عذب.. اثنتا عشرة عينًا اتسعت لها أعين القبائل الإسرائيلية، ومعجزة هرول بعدها الرجال والنساء والأطفال إلى رحالهم، فأخذوا قربهم وأوانيهم ومزاداتهم، ثم عادوا نحو العيون العذبة، ليملؤوها بالماء المعجزة. لكن موسى أوقفهم، حتى لا تدب الفوضى والنزاع، لا سيما وهم قد تمرسوا عليها.

هتف بهم، ولما شخصت أبصارهم أشار للعين الأولى، فجعلها لقبيلة فلان، وللعين الثانية، فخصصها لقبيلة فلان، وهكذا حتى حدد لكل قبيلة عينًا و﴿عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

بـدأت الأرض تخضـر مـن حولهـم، فـإذا بأسـراب مـن طيـور المـن تحلـق فوقهـم.. يصطـادون منها ما شـاؤوا، ويتفننـون في إعـداد موائدهم طبخًا وشيًا، ويتلـذذون بعسـل النحـل، الذي كثـرت خلايـاه لكثرة الزهـور من حولهـم. أمن وأمان، ومن وسـلوى، وسـاحل جميل، وأسـماك، ومعجـزات تتلوها معجزات، ونعيـم يتلـوه نعيم.. لتتوالـى أحكام التـوراة بعدهـا تفقههم بأمور دينهـم، وتنظم دنياهـم، فالشـعب يكثـر لا سيما، وتعـدد الزوجـات عندهـم لا حدود لـه، وهم بحاجـة لقوانيـن، لا إلـى أعـراف غيـر ملزمة، كمـا أن الأنظمـة تحتاج إلـى قيادة صارمـة، تضمـن تطبيقهـا، وإلا تحـول المجتمع إلـى غابـة، يفترس القـوي فيها الضعيف.

لـذا نـزل نظام جنائـي، بدأ بتحريـم سـفك الدمـاء، وأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، ثـم نـزل الوحي بقوانين القصـاص، التي تقرر أن ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾، وبين الله أن أحكامه وعي وتنوير، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وطالب بعدم المجاملة في تطبيق النظام، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

هنـا بـدأ الفوضويـون وأعـداء النظـام سلسـلة مـن المماحـكات.. لا يريدون عقوبـات.. لا يريـدون نظامًـا.. يريـدون مجتمعًا هلاميًـا، لا قوام له، كـي يعبثوا، ويتحايلـوا، ويفسـدوا دون حسـيب أو رقيـب، وكأنـه لا يصلحهـم إلا البطـش.. نصحهـم موسـى، وطالبهـم بعـدم التمـادي، لكنهـم تمـادوا، وإذ بشـيء فـوق رؤوسـهم، أرعبهـم، جعلهـم يهرولـون نحو موسـى.



رفع الإسرائيليون رؤوسهم للسماء، فإذا شيء أسود، لا يشبه الغيوم.. شيء مرعب، لا غيث فيه ولا مطر، ولم يروا مثله.. هرولوا كالعادة نحو الكليم ﷺ.. وقفوا أمامه يرتجفون، فزادهم رعبًا، حين أخبرهم أن الذي فوق رؤوسهم هو جبل الطور.. ملايين الأطنان من الصخور لسحقهم، إن لم يطبقوا نظام التوراة، التي يقول الجبار عنها: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

خلع المشهد قلوبهم فسجدوا لله، وأعلنوا خضوعهم لشريعة التوراة، التي بدأ موسى بتطبيقها، وأولها العدل.. أسقط في أيديهم.. أدركوا أن أي تمرد، أو خلق للفوضى، أو مجاهرة بمخالفة النظام، ستقابل بعقوبة عاجلة.. كانت المعجزات رحمة لهم، فأمثالهم يدمرون أنفسهم، لو تُركوا لغرائزهم، ومع ذلك بقيت قلة منهم، عجزت عن مقاومة غرائزها، لم ينته زمن المطالب، لكن بدأ زمن آخر للتحايل والالتفاف على النظام:



ذات يوم أنزل الله عليهم تحريم أكل الشحوم، فإذ بهم يقومون بإذابتها، ثم يبيعونها ويأكلون ثمنها.

أنزل الله عليهم تحريم صيد السمك يوم السبت، فتحايلوا.. صاروا يرمون شباكهم في عرض البحر يوم الجمعة، ثم يعودون لأخذها يوم الأحد، وقد امتلأت بالأسماك. ظلت هذه القلة المتحايلة تتمادى، فزجرهم موسى، وحذرهم من عواقب التحايل، لكنهم تمادوا مما أثار غضب الإسرائيليين المحتسبين، فوعظوهم، وذكروهم بنعم الله، التي لا تعد ولا تحصى، لكن المادة طغت عليهم، فلم ييأس المصلحون من الاحتساب، مما جعل بعض المؤمنين يلومون الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر لتكرار نصيحة أناس ميؤوس منهم، قائلين:

﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فذكر المحتسبون سببين: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

السبب الأول: أداء واجب النصيحة، والآخر عدم اليأس في حياة المصلح.

وفي أحد أيام الجمعة ذهب المتحايلون للساحل، يحملون شباكهم. وضعوها في مراكبهم، وركبوها وجدفوا، ولما أصبحوا في عرض البحر، توقفوا، ونشروها، ثم رموها، لكنهم لم يعودوا إلى الساحل، ولا إلى بيوتهم هذه المرة.. استبطأتهم عائلاتهم.. خرجوا يبحثون عنهم.. مشطوا الساحل فلم يجدوا لهم أثرًا، لكنهم وجدوا مخلوقات غريبة على الساحل.



ساحل القردة

لم يعد أحد من الصيادين المحتالين يوم الجمعة.. استبطأتهم أسرهم، فخرجوا يسألون عنهم.. لم يجدوا جوابًا، فلا أحد رآهم بعد إبحارهم.. بحثوا.. مشطوا القرية، فلم يجدوا شيئًا، لكنهم وجدوا بين الساحل والقرية مخلوقات غريبة.. قردة لها صراخ.. تنظر بحزن وخوف إلى المحدقين الخائفين منها.. الكل خائف إلا موسى ﷺ، الذي أقبل، وكأنه يقول لهم: لا تبحثوا بعد اليوم عن الصيادين المحتالين، فهم لم يغرقوا، ولم يموتوا، ولم يسافروا.. ها هم أمامكم.. هؤلاء القردة هم أخوانكم، الذين نصحتموهم بتطبيق أحكام التوراة، فلم يستنصحوا، ونهيتموهم عن الفساد فلم يأبهوا، وخوفتموهم بالله فلم يخافوا، وخالقهم سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

شكر المؤمنون ربهم على نعمة الهداية، والنجاة من هذا المصير، أما تلك القردة فظلت تتقافز، وتصرخ حزينة هنا وهناك.. لا أحد يعرف من هو أخوه،

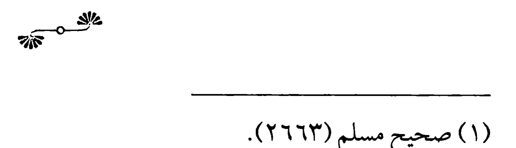
أو ابـن عمـه منها، ولا أحد يريدها فـي بيته، رغم المرارة التي تشـعر بها عائلاتهم وأقاربهـم.. ظلت القردة تائهة على السـاحل، وفوق صخـور الجبال حتى ماتت، وانقطع نسـلها، فالله «لم يجعل لمسـخ نسـلًا ولا عقبًا»[1].

ثم ماذا يا بني إسرائيل؟

كل هـذا العنـاد والتمـرد والتحايل، ثـم ماذا؟ آيـة أو معجزة واحـدة، مما جاء بهـا موسـى تكفي العاقـل، لكن معجزات الأنبيـاء كلها لن تحرك شـعرة في رأس حسـود أو حقود أو شـخص يعبد هواه.

ظـل النبي العظيم موسـى ينشـر التوحيد، ويحكـم بالعدل، لكن معظم شـعبه ظلـوا كالأطفـال.. يبحثـون عـن الخـارق والمدهـش، وليـس لديهـم أي توجـه لمسـاعدته فـي مهمتـه، ففـي أحـد الأيـام وجـد بعضهـم جثة قتيـل.. أخبـر أهله فجـاءوا وتعرفـوا عليه، وشـاع الخبر فـي القرية، لكـن أحدًا لم يسـتطع الوصول إلـى القاتـل.. بـدأت الظنـون تلقـي الاتهامـات هنـا وهنـاك، بعيـدًا عـن القاتـل الحقيقـي الـذي يبدو أنـه أصبح فـي مأمن.. بـدأت مطالبـة أهل الضحيـة بتطبيق القصـاص دون دليـل، ولما عجزوا انطلقوا نحو موسـى، واندس معهـم القاتل.. يطالبـون بإخبارهـم عـن هويـة القاتل، فظنـوا أن حياتهـم مرهونـة بالمعجزات.

سـكت موسـى حتى جاءه الوحي، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾، نظروا إليه باستخفاف، ثم قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أدركوا أنه جاد، وأن ذبحهم لأي بقرة كاف، لكن يبدو أن القتلة بدؤوا بالتشـويش والمناكفة.



(١) صحيح مسلم (٢٦٦٣).

طلب موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل القتيل ذبح بقرة.. أي بقرة. لم يحدد لونًا أو صفة.. هنا يبدو تدخل القتلة للتشويش.. أظهروا حرصهم على الظفر بالقاتل، فهتفوا بموسى، و﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾.

هيا ابحثوا عن أي بقرة في منتصف العمر، لا فارض هرمة، ولا بكر صغيرة.. إنها صفة يسهل الحصول عليها، لكن القتلة لا يريدون ذلك.. لا يريدون حتى الحصول على البقرة، لذا ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾.

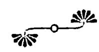
بدأت الدائرة تضيق، فالبقرة الصفراء النقية اللون، يصعب الحصول عليها، ومع ذلك شوشوا، فقالوا لموسى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾.

اطمأن القتلة أنهم لن يحصلوا على بقرة بتلك المواصفات.. خاصة الصفة الأخيرة. بقرة لم يذللها العمل أو يطوعها، ولم تستخدم يومًا في حرث الأرض، أو السقاية بالسواني، ولا يوجد في لونها الأصفر أي بياض أو سواد، وكأنهم يريدون أن تنزل عليهم بقرة من السماء.

انطلق الأهل.. يسألون.. يبحثون في الحظائر، والمزارع داخل القرية وخارجها، حتى أضناهم البحث، وفجأة عثروا عليها، فاشتروها بأي ثمن، ولما دفعوا ذلك الثمن، أخذوها نحو موسى، حتى أوقفوها أمامه، و﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾، هنا تضعضع القاتل وارتج، وهو ينظر إلى موسى، والله يقول له: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

مـد أحدهـم يده بالسـكين، واحتز من لحمهـا قطعة، ثم ضرب بهـا الجثة، فإذ بالمعجـزة الربانيـة.. القتيـل يتكلـم.. يفصـح عن هويـة قاتله.. لـوى الحاضرون رؤوسـهم، وحدقت عيونهم بشـخص منغرز بينهم.. كان يناكف نبي الله، ويحاول تعجيزه حتى لا تظهر الحقيقة.. تبين أنه من القبيلة نفسها، ربما طمعًا بإرث.. ربما حقـدًا.. ربمـا خصومة.. المهم أنه قد تم القبض عليـه، ونال جزاءه بعد أن فضحه الوحـي، الذي يقول: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

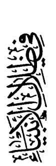
مرت أشـهر وسـنوات، وكثـرت معها مناكفات شـعب موسـى، لدرجـة أنهم بـدؤوا يتذمـرون مـن المـن والسـلوى، والعسـل ورغـد العيـش، فكانـت عاقبـة تذمرهـم كارثية.



يعشقون أرض البصل، ويرفضون الأرض المقدسة

توجـه الإسـرائيليون لقائدهـم موسـى ﷺ معلنيـن تذمرهـم مـن أطعمة متوافـرة ولذيـذة، وقالـوا لـه: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، وإذ بـه يتعجب مـن تذمرهـم مـن كل شـيء.. حتى مـن رغـد العيش، قائـلًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، ويبـدو أنهـم كانـوا يريـدون أطعمـة لا يتعبون فـي زراعتهـا، وجنيهـا.. هنا بلغ موسـى من الحلم والحدب على شـعبه مسـتوى غيـر مسـبوق، لذا دعـا ربه، فاسـتجاب له، وطلـب منهـم التوجه إلـى أي بلد في سـينا قائلًا: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾، ادخلوا أي بلد، ولا يقصد مصـر التي هربـوا منها.

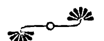
جمـع الشـعب المشـاكس أمتعتـه، ووضعهـا علـى الرواحـل، ثـم انطلقـوا بمحـاذاة سـاحل الذكريـات، متوجهيـن إلـى أي بلـد، تتوافـر فيها تلك الأشـياء،



لكنهم دخلوها كغرباء طفيليين، أذلة صاغرين بين سكانها الأصليين، حتى قال الله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، بعد أن كانوا أعزة يعيشون بين المعجزات ورغد العيش، ويتمتعون باثنتي عشرة عينًا، تتفجر ماءً زلالًا، وبعد سنوات من الشعور بالذلة والغربة والمسكنة، طلب منهم موسى الاستعداد لمغادرة هذا المصر، فإذ بهم يوافقون.

تأهب الإسرائيليون، وحملوا أمتعتهم وانطلقوا، وبعد يوم أو يومين من المسير، وفي إحدى محطات استراحاتهم، قام موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخطب فيهم خطبة بالغة الخطورة.. معلنًا عن موعد الرحلة الكبرى والمحطة الأخيرة، لكن قبل أن يحددها بدأ بتذكيرهم بنعم الله عليهم، وتفضيلهم على غيرهم، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم كشف تلك الوجهة، فإذا هي مهوى الفؤاد.. الأرض التي عليها ثاني مسجد بناه جدهم إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد بنائه للمسجد الحرام بمكة، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

نظر المناكفون إلى بعضهم، وكأنهم يقولون: ما هذا؟! أينقذنا من خناجر فرعون، ليرمينا بين سيوف الكنعانيين؟ تشاوروا، ثم صاحت تلك الأغلبية دون حياء: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾، كانوا يريدون حياة سهلة.. ثمارًا يقطفونها، ويزاحمون شعوبها. لكن يبدو أن عصر المعجزات قد ولى.



انتهى عصر المعجزات يا بني إسرائيل.

بعد كل تلك المعجزات والبراهين.. ما زال الإسرائيليون يريدون أن يعيشوا بقية حياتهم بالمعجزات.. بحر ينشق، وصخور تتفجر ماء، وها هم يريدون

مـن الوثنييـن أن يخلوا أراضيهم لهم بكل بسـاطة! لم يتحدث موسـى عن قتال.. تكلم عـن دخول.

هنـا تقـدم رجـلان مـن الأقليـة المؤمنـة الثابتـة، حتـى أصبحـا أمـام الجموع المناكفـة الرافضـة، فقـالا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

هـذا هـو الفرق بين من يسـتحضر عظمـة الله وقدرته، فإذا كل القوى تتلاشـى مـن قلبه، وبين قوم يخشـون الناس كخشـية الله أو أشـد.. هذا هو الفـارق بين من عبـروا البحـر بقلوبهم وعقولهم، وبيـن من عبروه بأقدامهم فقـط. كلمات عظيمة تكشـف مدى التوكل على الجبار سـبحانه.. كلمات لم تجد سـوى قلوب قاسـية وصفها الله، فقـال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

كـرر الجبنـاء رفضهـم، وصاحـوا بوقاحـة: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، لـن ندخلهـا أبدًا؟ إذا فالديـار المقدسـة لا تهمهم.

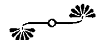


صدم موسـى من هذا الجحود.. شـعر بخذلان شـعبه له، فتولـى عنهم حزينًا، وتوجـه نحو ربـه معتذرًا إليه، ومتبرئـًا من الخونة، وهو يقـول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، وإذ بغضـب الجبـار سـبحانه يحل على ذلـك الجيل.

ليـس بعد اليوم مـن معجزات، ولا حتى تهديد بالفناء.. هي حياتكم فعيشـوها بواقعيـة.. منذ اليوم لسـتم أفضل أهـل الأرض، ولن تحظـوا بالتأييد، إلا إن بذلتم مـن أجلـه وناضلتـم.. أمامكم تيـه طويل، وشـقاء ومعانـاة، مدتها أربعـون عامًا، ولـن يغير الله ما بكـم، حتى تغيروا ما بأنفسـكم.

أما موسى فظل معهم يعاني منهم ومعهم، فمهمة الأنبياء ليست سهلة.. واصل قيادتهم وظل يعلمهم، وبينما هو معهم ذات يوم، سأله أحد تلاميذه، فقال: (أي الناس أعلم؟)

استعجل موسى الإجابة فقال: (أنا أعلم) لم يقل: أنا أعلم إن شاء الله. لم يقل: الله أعلم، فعاتبه ربه سبحانه، لأنه لم يرد العلم إليه. ثم أوحى إليه: (أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك)، خفق قلب موسى شوقًا لرؤية رجل ليس بنبي، لكنه أعلم من كليم الله، فقال: (يا رب، وكيف به؟ فقيل له: احمل حوتًا في مكتل، فإذا فقدته فهو ثم)[1] ستراه هناك.. في المكان الذي تفقد فيه سمكتك.



ليس بنبي، لكنه أعلم من نبي

أخذ النبي موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زبيلًا متوسطًا، يسمى (المكتل)، ونادى تلميذًا مخلصًا، من أفضل تلاميذه، اسمه (يوشع بن نون)، وطلب منه مرافقته.. انطلق الاثنان نحو البحر، فاصطادا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ سمكة، ووضعاها في الزبيل، ثم سارا بمحاذاة ساحل خليج السويس جنوبًا.. ظلا يسيران ويتوقفان، حتى أدركهما التعب في ملتقى الخليجين السويس والعقبة مع البحر الأحمر، فلجأا إلى صخرة على الشاطىء، فرقدا تحت ظلها، وفي أثناء رقادهما حدثت المعجزة الربانية.. اضطربت السمكة، وتقلبت داخل المكتل، حتى غادرته. أفاق النبي وتلميذه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثم واصلا سيرهما.

ظلا يسيران حتى قرصهما الجوع فتوقفا، ثم التفت موسى ليوشع، وطلب منه شي السمكة. توجه يوشع نحو المكتل، وأدخل يده فلم يجد شيئًا..

---

(١) صحيح البخاري (١٢٢).

اتسعت عيناه من الدهشة، فالسمكة ليست في داخله، فقال لنفسه: لا بد أني نسيتها هناك عند الصخرة. عاد لموسى، وقال له: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

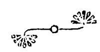
شعر موسى بالارتياح رغم الجوع، وقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، طلب من تلميذه النهوض، ثم عادا من حيث أتيا.. يتتبعان آثار خطواتهما، وبعد مسافة لاحت لهما الصخرة، فلما لاحت، إذ بالمفاجأة تنتظرهما.. لم يجدا حوتًا.. وجدا شخصًا مغطى بثوب من رأسه إلى قدميه.

وقف موسى باحترام، يتأمل هذا النائم المسجى.. يتأمل رجلًا آتاه الله علمًا ليس عنده. لم يقل الله لموسى: اذهب إلى البلد الفلاني، واسأل عن قصره، فستجده هناك، أو اذهب إلى القرية الفلانية، فهو أشهر من نار على علم، وستجد تلاميذه جيوشًا حوله.. وجده وحيدًا على الساحل، ليس معه إلا الله.. لا جاه ولا منصب ولا شهرة، ولا حاشية ولا مريدين.

وليٌّ حباه الله بشيء ليس عند موسى، رغم أنه ليس أفضل من موسى، ولا من بقية الأنبياء.. ولي يعيش مع الله.. يأنس بذكره سبحانه، ويسعد بمناجاته، ويتلذذ بالخلوة معه.. أهذا هو الخضر، الذي عاتب الله من أجله موسى، وأمره بالتتلمذ على يديه؟ يفترش رمال الشاطئ، ويلتحف قطعة قماش.



وقف كليم الله متعجبًا.. معه العصا التي ابتلعت كيد السحرة، وشقت البحر، وفجرت الأنهار بإذن الله.. يتساءل أي علم سيجده عند هذا الفقير، الذي لم يجد بجانبه راحلة تقله، أو حتى قاربًا يبحر به.



أول الدروس صدمة

وقف كليم الله موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه العصا، التي ابتلعت كيد السحرة، وشقت البحر، وأغرقت فرعون وجنوده، وفجرت الأنهار.. وقف على رمال الشاطئ، يتساءل: أي علم سيجده عند هذا الفقير؟ الذي لم يجد بجانبه راحلة تقله، أو قاربًا يبحر به.

وقف أمام الخضر المسجى على الساحل، وقال له: السلام عليكم.

كشف الخضر الثوب عن وجهه، وقال: وأنى بأرضك السلام؟ استغرب موسى من هذه الإجابة، التي تتكلم بأكثر من أحرفها، فقال: أنا موسى.

رفع الخضر رأسه، وحدق به مستغربًا، وسأله: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. (قال الخضر: أو ما كان لك في بني إسرائيل شغل؟ قال: بلى، ولكني أمرت أن آتيك وأصحبك)، فقال متعجبًا من طموح موسى: «وما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟» قال كليم الله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾؟

هنا.. حذره الخضر من علم لا يطيقه.. علم لو أصبح لدى البشر، لأفنى بعضهم بعضًا، ولكره بعضهم بعضًا، ولأصبحت الحياة لا تطاق.. حذره الخضر، قائلًا: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، «يا موسى، إني على علم من علم الله، علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم، علمكه لا أعلمه»[1]، أصر موسى على التتلمذ، وقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، وافق الخضر، ولكن بشرط هو أن لا يطلب منه تفسير أفعاله، حتى يفسرها هو له. قائلًا: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

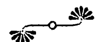
وافق موسى، دون تردد فرفع الخضر قطعة القماش المتواضعة التي كان يتغطى بها وطواها، ثم نهض، وانطلق بصاحبيه موسى ويوشع بن نون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

(١) صحيح البخاري (١٢٢) وما بين الأقواس من القصة هو جزء منه.

يتهـادون علـى سـاحل البحر.. بدأ موسـى رحلـة طلب العلـم ظنًّا أنه لـن يرتوي منـه، وإذ بسـفينة صيـد تبحـر بمحاذاتهـم. هتـف الخضـر بأصحابهـا، فتوقفـوا مستفسـرين، فسـألهم أن يحملوهـم. فوافقـوا دون مقابل.

خاض الخضر وصاحباه مياه الشـاطىء، حتى وصلوا السـفينة، وسـلموا على أصحابهـا، وصعـدوا وأخـذوا مقاعدهـم.. ابحـروا وموسـى صامت بيـن جمال زرقـة السـماء والمـاء، وفـي أثناء ذلك رفـرف فوقهم طائـر، ثم هبـط على حرف السـفينة، ثـم نقـر البحـر بمنقـاره نقـرة، ثـم رف ثانيـة فـي السـماء.. كان الخضر يتأمـل موسـى الـذي ينظـر للطير، فقـال: «يا موسـى ما نقص علمـي وعلمك من علـم الله إلا كنقرة هـذا العصفور فـي البحر».

ازداد شـغف موسـى لنقرة العلم، لكن الخضر صدمه، حيـن نهض واتجه إلى قـدوم أو فأس في ناحية من السـفينة فأخـذه، ثم توجه لجدار من جدران السـفينة فهوى بـه عليه حتى اقتلع لوحًـا من ألواحه.





صدمة الدرس الثاني والثالث أكبر

صُـدم موسـى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سـلوك الخضر..كيف يعتدى علـى ملك غيره؟! لم يسـتطع الصبـر علـى اقتـلاع الخضـر للوحـة علويـة مـن ألـواح جدار سـفينة الصياديـن الكرمـاء.. عاتبـه مباشـرة، قائلًا: «قـوم حملونا بغير نـول، عمدت إلى سـفينتهم فخرقتها لتغـرق أهلها؟»[1].

نظر الخضر إلى موسـى بهدوء، وقال لـه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟ اعتذر موسـى، وقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

(١) صحيح البخاري (١٢٢)، وما بين الأقواس من القصة هو جزء منه.

واصلت السفينة إبحارها، حتى وصلت إلى ميناء قرية ساحلية، فتوقفت ونزل الخضر، وتبعه موسى ويوشع عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وتهادوا نحو القرية، وفي أثناء سيرهم شاهدوا أطفالًا يلعبون.. كانت براءتهم وضحكاتهم تزين المكان وتبهجه، لكن الخضر قتل البهجة في نفس موسى، حين تقدم نحو أحد الأطفال، فأخذه من بينهم، وسار به وسط دهشة الجميع، ثم قتله أمام عيني موسى، الذي فقد أعصابه، وكأنه يعيد مشاهد معاناة أطفال شعبه المريرة، حين كان الفراعنة الوثنيون ينحرونهم، فهتف بالخضر مستنكرًا: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

نظر إليه الخضر بثقة متناهية، وأعاد تذكيره بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾؟ شعر موسى بالخطأ في تسرعه، فطلب منحه فرصة أخيرة، قائلًا: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾.

وافق الخضر، ثم واصل الثلاثة المشي عبر طرقات القرية وبين بيوتها، ثلاثة هم من أفضل من يمشي على وجه الأرض، ومع ذلك ليس معهم ما يشترون به وجبة لهم.

بحثوا عمن يستضيفهم فلم يجدوا وسط قرية البخلاء هذه.. قرية ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، لم يغضب الخضر.. على العكس من ذلك.. مر بأحد طرقاتها، فالتفت فرأى جدارًا متهالكًا آيلًا للسقوط ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾، بيده وأعاد له استقامته، أو أعاد بناء المائل منه، بينما كان موسى يتأمل متعجبًا.. حتى هذا العمل الجميل، لم يطق موسى صبرًا عليه، ربما لأن هذه القرية لا تستحق، فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

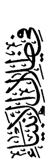
هنا توقف الخضر، ليخبر موسى بانتهاء العقد المبرم بينهما، فقد خرق موسى بند الاتفاق ثلاث مرات، وهي كافية لعدم جدوى المواصلة.. نظر الخضر إلى موسى، وقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾، لكنه لن يفارقه حتى

يخبره بسبب تصرفاته الغريبة تلك، التي لم يستطع موسى الصبر عليها. بدأ الخضر أولًا بتفسير ما فعله في السفينة.

لم لا يطاق علم الخضر؟

بدأ الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ أولًا بتفسير ما فعله في السفينة، قائلًا لموسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فهو ملك متسلط، يسطو على كل جميل في بلدته، فأراد الخضر تشويه السفينة، دون الإضرار بها، حتى يزهد بها جواسيس الملك.. كان فعله رحمة بهؤلاء المساكين، فهي مصدر رزقهم.

وأما قتل الغلام فلا عجب أن تثير احتجاجات الملاحدة، فقد احتج موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلهم، مع أن إجابة الخضر كافية، فقد أخبر موسى أن هذا الطفل مشروع طاغية، قائلًا: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، هذه الإجابة أقنعت موسى مباشرة.. إجابة تكشف عن العلم الذي لا طاقة للبشر به، فلو علموا به لسالت دماء أطفال العالم، وهل سيترك الإسرائيليون فرعون لو رأوه وهو طفل، وعلموا أنه سيذبح الرضع من أطفالهم؟



هل سيترك ضحايا العالم طواغيت أمثال هولاكو ولينين وستالين وهتلر وبشار لو وجدوهم أطفالًا؟ بل هل سيسعد البشر لو علم كل فرد منهم بتاريخ وفاته ووفاة أحبابه؟

لكن هذا العلم المؤلم، والذي لا يطاق، لا يخلو من جميل، مثل قصة الخضر مع الجدار، فقد قال الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ باليتيمين اللذين كانا سيفقدان مالهما، لو انهدم الجدار، وانكشف الكنز فسيتم نهبه. وأخيرًا كشف الخضر لموسى مصدر علمه، فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

هو علم لا يطاق، وقد أُبتلي الخضر به.. ابتلي برؤية مستقبل أسود، ومشاريع مجرمين.. هموم لو حملها البشر لأصيبوا بالاكتئاب، ولما توقفت أنهار الدماء في العالم يومًا واحدًا.

هنا افترق موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وليتهما لم يفترقا بهذه السرعة.. أمنية باح بها النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما**»[1].

افترق النبي عن الولي، فكم هي المسافة بينهما؟

المساحة بين الولي والنبي

النبي وحي لإنقاذ البشر، يحييهم به الله، ويسعدهم.. ينشر التوحيد والعدل.. النبي قدوة.. منارة.. ضوء في قلب الظُّلمة.. دونه يتيه البشر، ويضيعون.. دونه تجتاح العالم الوثنية والظلم والفساد.. النبي معاناة ومكابدة، وتضحيات وعذابات.. قد يموت مقتولًا أو مسجونًا أو طريدًا، وقد يموت حاكمًا.. النبي تجسيد للخلافة والنظام على الأرض.

أما الولي فإلهام وكرامات تنهال عليه وحده، وتهمه وحده.. تؤنس وحشته بعد أن جعل الله أنيسه.. يجد سعادته بذكر ربه بعيدًا عن البشر.. بعيدًا عن الحشود

(١) صحيح البخاري (١٢٢).

والمريديـن والاتبـاع والمداحيـن في الحل والسـفر.. الولي حالة انشـغال بالله عن الخلـق.. حب لله يجـرف القلب، فينسـى ما حوله ومـن حوله، وروحانيـة تنفر من الشـهرة والجـاه والحاشـية والمنصـب.. باطنـه أنقى مـن ظاهره، وقـد لا يكون له قـدر بيـن الخلق.. قد لا يفتقـد إذا غاب، ولا يؤبـه له إن حضر، لكنه لو أقسـم على الله لأبـره، والله يقـول: «ما يـزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتـى أحبه، فإذا أحببته: كنت سـمعه الذي يسـمع بـه، وبصره الذي يبصر بـه، ويده التي يبطـش بها، ورجله التـي يمشـي بها، وإن سـألني لأعطينـه، ولئن اسـتعاذني لأعيذنـه»[1]، لكنه لا يقدم في حياة البشـر أو يؤخر.

أمـا مـن مـن يتوسـلون بضريحـه أو يتاجـرون ويسـترزقون بكراماته.. هـؤلاء يتجاهلـون أنهـا من عند الله سـبحانه.. يتناسـون الحي القيوم، ويتمسـحون بضريح ميـت مرهـون بعمله، لا يملـك من أمره شـيئًا، فضل النبي على الولـي واضح، لأنه لا يخـرج عما جـاء به النبـي، ولا يوحى إليه بشـرع.

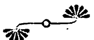
افتـرق الخضـر الولـي عـن موسـى النبـي عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وعـاد كليـم الله لشـعبه المشاكسـين، الذيـن ظلوا محصورين في سـيناء أعوامًـا، لذا اضطروا إلـى التعامل مـع أهـل المناطـق المتاخمة لهـم، ومع الأيام والأشـهر والسـنوات صـار بعضهم ثريًّـا، وكان مـن بينهـم تاجـر إسـرائيلي، بلغ ثـراء فاحشًـا، لم يصل إليه أحـد قبله، يقـال لـه قـارون.. تضاعفـت ثروتـه بشـكل هائـل، حتـى آتـاه الله ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾، أي أن مفاتيـح صناديق وأبواب مخازنه، يصعب علـى الرجـال الأقويـاء حملها، فكيـف بثروتـه، لكنه أصيب بالجشـع.

لم يكتـف بعـدم شـكر الله علـى ما وهبـه من ثـروة.. صـار يفتل الحيل للسـطو علـى أموال الفقراء الإسـرائيليين.. وإذلالهم.. تحول إلى حوت، يلتهم ضعفاءهم،

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

حتى ضجوا منه، ووصف الله فساده، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وما من عقوبة أسرع من عقوبة البغي[1].



قارون رجل أعمال برتبة مجرم

تحول التاجر الإسرائيلي الهائل الثروة (قارون) إلى حوت، يلتهم الفقراء الإسرائيليين، حتى ضجوا منه، ووصف الله فساده، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وليس هناك أسرع عقوبة عند الله من البغي.. خاصة البغي على الأقارب.. قد يمهل الله الكافر والمشرك حتى البعث، بل قد ينصره إن كان عادلًا، أما البغي فليس هناك أسرع من عقوبته.. سواء جاء من مسلم أو كافر.

ظل قارون في بغيه واستغلاله للضعفاء، حتى انقسم بنو إسرائيل حوله إلى ثلاثة أقسام:

قسم يتمنى أن يكون مثله، مهما كانت وسائل ربحه وحيله.

وقسم يئن من استغلاله وثقل فوائد ديونه، ويضج من رباه.



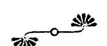
وقسم ثالث محتسب طيب ناصح.. يخشى عليه من عقوبة، قد تحل به، لذا توجه هؤلاء يومًا لنصحه، وقالوا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، لكن قارون كأي ثري مغرور.. يرى أن هؤلاء مجرد

(١) سنده قوي رواه أحمد (٢٠٣٩٨)، وغيره من طرق عديدة عن عيينة بن عبدالرحمن الغطفاني، وهو صدوق، عن أبيه وهو ثقة، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أحرى أن يعجل الله العقوبة لصاحبه في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم**».

حفنة من الجهلة بالاقتصاد، يقتلهم الحسد، لأنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه، ولذا رد عليهم ردًّا طافحًا بالغطرسة والكبر، وكأنه لا فضل لله عليه، قائلًا: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

تفرق الناصحون عن قارون بعد أن يئسوا منه تجاهله لنصائحهم، فالتف حوله الوصوليون والمنتفعون والمتسولون، وذات يوم خرج من قصره كالطاووس.. يتبختر في الأسواق، مرتديًا الحرير والحلل.. لا يكاد يرى على الأرض سوى نفسه.. وسط تأوهات المتذمرين من أوضاعهم المادية، وهم يقولون: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾، لا يهمهم كيف جمع ثروته من حلال أم من حرام، ولا كيف يوظفها.. فنصحهم العقلاء، فقالوا لهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

لكن هؤلاء المعجبين تجاهلوا نصيحة الناصحين، وظلت أعينهم تتابع الطاووس.. لم يعلموا أن جولته الاستعراضية كانت الجولة الأخيرة. عاد قارون لقصره، وقد امتلأ رأسه بالمديح والتبجيل، والهتاف والتسول، الذي أسكره عن مالك الملك، وواهب الأغنياء، الذي وهبه تلك الثروة، فلما دخل قصره.. سمع الناس دويًّا في الحي الذي يسكنه، هز المدينة. انفتحت الأبواب، وخرج الناس مذعورين.. انطلقت آلاف الخطوات نحو مصدر الصوت، فإذ بها تلتقي حول هاوية مروعة خلعت القلوب.





حين ارتجت المدينة

انفتحت أبواب المدينة على إثر دوي ورجفة هائلة هزت القلوب والمدينة.. خرج الناس من بيوتهم في حالة ذعر يتلفتون ويتساءلون.. انطلقت آلاف

الخطوات، ثم توقفت أمام مصدر الصوت.. توقفت حول حافة فوهة مرعبة، ابتلعت قارون وقصره وكنوزه، وكل المديح الذي كان يكال له.

تحلق المعجبون والحساد والناصحون والمسحوقون حول تلك الهاوية.. تبحث عيونهم عن قارون.. عن قصر قارون.. عن بقايا من كنوز قارون.. عن أي قطعة ثمينة أو حجر كريم تركه خلفه.

لا أثر لشيء.. تحول المكان إلى قبر للبغي والظلم والغطرسة.. قبر بلا غطاء، ولو غطاء من مديح أو حزن أو رثاء.. انتهى قارون بالنسبة لهم.. نفض المعجبون والمتسولون والمداحون أيديهم منه ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، أصبح ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾، يحدقون بتلاشي بغيه وظلمه أمام قوة الله وبطشه، ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

تحول قارون إلى درس قاس لرجال الأعمال، الذين يغريهم جشعهم بالتحديق في أرغفة الفقراء، ودخلهم المتواضع، وما كان ليكون درسًا لو أدرك أن الله هو من منحه العقل والقدرة على جمع تلك الثروة، وما كان ليجمعها لو أن ربه خلقه متخلفًا أو أبكم أصم.

انتهى قارون، وبقي موسى ﷺ يعاني من أمثاله حتى شاخ.. ضعف كليم الله شيئًا فشيئًا، ثم مات بعد أن أمر بوضع الألواح، وما نزل من التوراة في تابوت.. مات في سيناء، أرض الوادي المقدس والنار والنور والتيه والمعجزات، بعيدًا عن مسقط رأسه.. محرومًا من مهوى فؤاده بيت المقدس، بسبب خذلان الإسرائيليين له، فخلفه أخوه هارون ﷺ الذي ما لبث أن مات أيضًا، فبكى الإسرائيليون نبييهما العظيمين.

بكوا تضحياتهما وبذلهما، فتولى القيادة يوشع بن نون، الذي استلم تابوت التوراة، ثم مات يوشع، وخلفه أنبياء تعرض بعضهم لحروب، تسببت في

تشردهم، وضياع التابوت، وضياع التوراة معه، إلا ما علق ببعض الذاكرة العشوائية، مع العلم أنه لم يوجد من التوراة إلا تلك النسخة الضائعة، التي لم تكن متاحة إلا لشخص أو شخصين، ثم جاء جيل شعر بالندم على ممارسات سلفهم الاتكالي، الذي استمرأ الخنوع.. سلف يريد أن تقوم المعجزات على خدمته، فهل ينجح الجيل الإسرائيلي الجديد في تعويض ما فات.



جيل رباه موسى وهارون

مات هارون بعد موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وبدأ الجيل الذي خرج معهما من مصر بالأفول والانقراض.. كان جيلًا اتكاليًّا عنيدًا مناكفًا.. جيل استمرأ الخنوع والقمع.. جيل يريد أن تقوم المعجزات على خدمته، وأن تكون الكرامات رهن إشارته، حتى وهو يمارس الموبقات، فسلط الله عليهم من يشردهم ثانية داخل سيناء حتى انتهوا، ثم ظهر هذا الجيل الإسرائيلي الجديد، الذي شعر بالحسرة على ضياع التابوت الخشبي، الذي وضع فيه موسى لوحي التوراة، وأوراق الشريعة التي دونت فيها الأحكام.. جيل شعر بالخزي من خذلان آبائهم لموسى في دخول الأرض المقدسة، لذا ظل دخولها هاجسهم، فتشاور بعضهم، ثم توجهوا نحو آخر نبي لهم، وكلهم تصميم على دخول الأرض المقدسة، قائلين: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

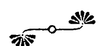
تأمل ذلك النبي حماسهم، فنبههم إلى أن القتال ليس سياحة، ولا حماسًا وبطولات خيالية في قصص تروى.. هو تضحيات وصبر، لذا أراد التأكد من عزمهم، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾.

فأجابوه مباشرة، ودون تردد، و﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، وإذ بالوحي ينزل على نبيهم، ليحدد لهم اسم ملكهم،

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وما إن سمعوا باسم الملك الجديد، حتى لاحت المناكفات والاحتجاجات.

كانت نظرتهم للأمور قاصرة.. محصورة في الوجاهة والثروة، لا في القدرات القيادية، لذا قالوا لنبيهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، فحسم الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ثم ذكر دليله على أن طالوت مختار من عند الله، وهو أن الملائكة ستقوم بإعادة التابوت الضائع، قائلًا: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

حدثت المعجزة، ورأى بنو إسرائيل التابوت بين يدي طالوت، فلم يجدوا مفرًّا من التسليم له، ومبايعته ملكًا. ومباشرة أصدر أمره بالتأهب لدخول الأرض المقدسة.. عندها بدأ أغلبهم بالمماطلة والتلكؤ، فسار بالبقية، لكن طالوت لم يطمئن لهذه البقية.. أراد التأكد، لذا قام بإجراء اختبار قاس، لمدى صمود هذه البقية الإسرائيلية، فإذ به يصدم بالنتيجة.



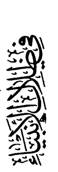
داود البطل

سار طالوت بجيشه، ولم تكن الجيوش آنذاك بالأعداد المبالغ بها في الكتاب المقدس أو كتب التاريخ، فسكان تلك المنطقة ليسوا بهذه الكثرة.. سار طالوت لمواجهة جيش أكبر منه وأقوى، يقوده فارس وثني متمرس، ومبارز شرس اسمه (جالوت)، وفي الطريق مر الجيش المؤمن بنهر، فإذ بالوحي ينزل على النبي، يأمره باختبار جيشه.

توقف طالوت، وتوقف جيشه أمام النهر، ثم استدار نحوهم، وهتف بهم طالبًا منهم عدم الشرب من النهر، أكثر من ملء الكفين، قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾، لم يأبه الإسرائيليون بهذا الاختبار. نزل الجيش حول النهر، وتسابق الجند نحوه يغتسلون، ويملؤون القرب والمزادات، ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

كان طالوت ينظر إلى المشهد على حافة النهر بحسرة.. نظر للمؤمنين الصامدين معه، فإذ بهم لا يتجاوزون (بضعة عشر وثلاث مئة)، والتفت إلى تلك الكثرة.. حدق بهذا الغثاء، فطلب منهم البقاء في أماكنهم أو العودة، فلا خير في جيش لا ينفذ الأوامر، ولا نفع في جيش لا يعرف الصبر، ثم طلب من القلة الباسلة أن تعبر النهر معه.

تحركت الجنود خلفه، وبقي المخذولون يحرسون قربهم.. ساروا حتى اقتربوا من جيش جالوت، وإذ ببعضهم يصاب بالصدمة.. إنهم أكثر من ضعف جيش طالوت، فحصل حوار جميل داخل الجيش المؤمن.. حيث قال المصدومون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

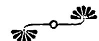


شدت تلك الثقة بالله من أزر المصدومين، فعزموا على القتال.. بدؤوا بالدعاء، فلا مفر من الله إلا إليه، وما خرجوا إلا نصرة لدينه، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وفجأة دوى صوت مخيف.

صاح جالوت الشجاع، طالبًا المبارزة، وإذ بفتى مؤمن متواضع يتخلل الصفوف.. فتى جسور، لا يهاب جالوت ولا الموت، اسمه داود.. كان الوثنيون يحدقون بالفتى، وكأنما يحدقون بمتهور باع نفسه.

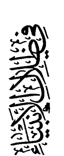
دنا داود من جالوت، وسـل كل منهما سـيفه، فإذ بسيف داود يعاجل جالوت، فـإذا هو يتلبط على الأرض.

خـر القائـد الوثنـي، فانهارت معنويـات الوثنييـن، وهـم يرون فتـى يجهز على قائدهـم وأشـجعهم.. نصر لم يحمل داود نحـو الغرور.. حمله إلى شـيء أرقى.



داود بين الجبال وأسراب الطيور

انهـارت معنويـات الجيـش الوثني، بعد سـقوط قائـده جالوت علـى يد الفتى داود.. تحولـوا إلـى شـظايا.. انقشـع غبـار المعركـة، فـإذا هـم بين قتيل وأسـير، وفلـول هاربـة.. لم يتبختـر داود، كمـا تبختـر قـارون.. لم تـزده ميادين الفـداء إلا تواضعًـا.. ظـل جنديًّـا مخلصًـا لملكـه طالـوت.. يتهـادى خلفـه نحـو بيـت المقـدس فـي موكـب.. يحمـل التابوت الخشـبي، الـذي يحتوي الألـواح وبقايا التـوراة، التـي ضـاع معظمها.



لم يسـتغل داود منصبـه في التسـلط، بل سـخر قدراتـه في حماية دينه وشـعبه وديـاره المقدسـة.. ظـل فتـى عابـدًا مخلصـا لله.. صوامًـا قوامًا، حتـى أثنى عليه نبينـا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقـال: «**أحـب الصيـام إلـى الله صيـام داود، كان يصـوم يومًـا ويفطر يومًـا، وأحـب الصـلاة إلـى الله صـلاة داود، كان ينـام نصـف الليـل، ويقـوم ثلثه، وينام سدسـه**»[١].

أحبـه شـعبه حتـى شـيدوا له عروشًـا فـي قلوبهـم، وبايعوه ملـكًا عليهـم بعد رحيـل طالوت، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، فبسـط حكمـه على القـدس والديـار الفلسـطينية حولهـا، وظـل متواضعًـا نزيهًـا لدرجة

(١) صحيح البخاري (٣٤٢٠).

أنـه كان «يـأكل من عمل يـده»[1]، فاصطفـاه الله نبيًّا، وأنزل عليـه الوحي، وأجرى سـبحانه علـى يديـه معجـزات، لم تكن لأحـد من الأنبيـاء قبله.

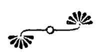
كانـت معجـزات داود تذهل البشـر.. تخطـف قلوبهم.. تحلـق بأرواحهم في عالـم غيـر العالـم، فقد أنـزل الله عليه كتـاب (الزبـور)، ووهبه صوتًـا تماهت فيه القـوة بمنتهى العذوبـة والجمال، فكان يتغنـى بتلاوة الزبور، و«ما أذن الله لشـيء مـا أذن لنبي حسـن الصوت يتغنـى بالقرآن، يجهـر به»[2].

زادت ابتهـالات داود روحانيـة، بعدمـا أمـر الله الجبـال والطير أن تـردد معه، فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾، إذا شـدا عَلَيْهِ السَّلَامُ بيـن الأودية والجبال وتغنى.. رددت الجبـال معـه تسـبيحًا لله وتقديسًـا، فإذا الكـون لوحة تأخذ شـغاف القلب وتذهـل العقـل.. تحلـق فيهـا الطيـور فـوق داود.. تحـوم حوله أسـرابًا سـارحة وبارحة، مسـبحة لله حين شروق الشـمس، وحين الغروب.. في أعذب الأوقات، وأكثرهـا روحانية.

كلمـات وأجنحة وأصـوات عذبة، تشـهد بنبوته.. يقـول الله عنها: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، عالـم حالـم، يأسر المشـاعر، فتفيـض العيـون، وكأن الكـون محـراب لا حـدود لـه، وكأن السـامع والمشـاهد يحلقان فـي معـراج نوراني مهيب.



لـم تكـن معجـزة الصوت السـاحر، المعجـزة الوحيدة لـداود.. هنـاك خارقة أخـرى، لا تقـل إبهارًا.



(١) صحيح البخاري (٢٠٧٢).

(٢) صحيح البخاري (٧٥٤٤).

لم تكن معجزة الصوت الساحر المعجزة الوحيدة لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ.. هناك خارقة أخرى لا تقل إبهارًا تنثال بين يدي هذا النبي الأواب.. تماهت لديه العذوبة الأخاذة بالقوة الجبارة.

لان له الحديد في معجزة يراها المرء، فيوقن أنه أمام نبي.. كان يمد يديه نحو الحديد الصلب، فيمسكه ويعالجه، فإذا به يلين بين أنامله، كالعجين أو الصلصال، دون عناء أو جهد.. دون قفازات أو لهب أو أفران.. معجزة من معجزات الخالق سبحانه، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون. والذي يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

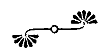
أمره الله بصنع دروع سابغة، تغطي أطراف جنده وتحميهم، وألهمه صنع المسامير بدقة، تتناسب مع الحلقات، حيث يقول سبحانه: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ورغم أنه كان حاكمًا وعابدًا وقاضيًا عادلًا، إلا أنه تعرض يومًا لما يتعرض له البشر.

فتنه يومًا من الأيام عارض من عوارض الدنيا، فمال في حكمه إلى عاطفته، فإذ به يفاجأ، وهو في أنقى لحظات اتصاله بالله، وأهدأ أماكن عزلته.. في غرفة تعبده المغلقة، التي تسمى المحراب.. والتي يبدو أنها كانت غير مسقوفة.. يفاجأ في لحظات الخلوة تلك بشخصين يتسوران المحراب، ويتسلقان جدرانه، دون أن يشعر بهم الحرس.

ارتجف قلب داود، وهو يراهما أمامه.. يقطعان عليه خلوته دون إذن أو موعد أو سابق إنذار.. شخصان غريبان ليسا من أهله، ولا من ساكني القصر، بل ولا حتى من أهل مدينة القدس أو مملكته. يقبلان عليه.. يحدقان به، فيقرأان في نظراته ارتباك الخوف ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾،

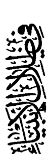
اطمأن نبي الله، وهدأت مشاعره، فعرّف الغريبان بنفسيهما، وقالا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

وقبل أن يسألهما داود عن قضيتهما، استرسل أحدهما، وترافع عن نفسه، قائلًا: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾. لم يأخذ الأمر كثير تفكير من الملك العادل، فقال للمترافع: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وبعد أن أصدر داود حكمه انتبه.. أدرك أن هذين المتسللين ملكان، بعثهما الله إليه؛ لتنبيهه إلى خطئه.



إنابة داود وتوبته

انتبه داود.. تذكر ﷺ خطأه، وأدرك أنهما ملكان، بعثهما الله إليه لتنبيهه، حيث يقول الله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، سجد ندمًا وتوبة وإنابة إلى ربه.. ابتهل إلى الجبار العظيم، الذي منحه ما لم يمنح غيره طالبًا الصفح والغفران، فقال الرحيم الرحمن: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.



ليس هناك من لا يخطىء، وارتكاب الخطأ من طبيعة البشر، والنبي ﷺ يحلف قائلًا: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[1]، ولذا فمهمة الأنبياء تتلخص بأمرين: تصحيح العقائد بالتوحيد، لكن من غير إلزام أو جبر، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فالحساب على العقائد يوم الدين.. يوم البعث

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٤٩).

والهول والحساب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

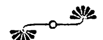
أما المهمة الأخرى للأنبياء، فإلزامية لا خيار، ولا استثناءات فيها، وهي إقامة العدل، ولذا ألزم الله داود بتنفيذ هذه المهمة، قائلًا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

ظل داود ينشر العدل، ويحارب الظلم والفساد، حتى قويت دولته.. يعاونه ابنه الأكبر سليمان، الذي قال الله عنه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وأنزل عليه الوحي في حياة والده، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد مارسا مهمة القضاء جميعًا، بل أحيانًا يترافع الخصوم عند داود ثم عند سليمان.

كانوا يأتون داود أولًا، ثم يترافعون عند سليمان، وكأنها عملية استئناف.

ففي أحد الأيام وفي البرية.. كان هناك امرأتان تتنزهان، وربما ترعيان الغنم، ومعهما طفلان صغيران.. كان الطفلان يلهوان، بينما انشغلت الأمان بأمر ما، وفي لحظات الانشغال تلك اقترب مخلوق مخيف من الطفلين.. دنا فإذا هو ذئب، قد كشر عن أنيابه.. هاجم الذئب أحد الطفلين واجتره بعيدًا.

التفتت المرأتان على الصراخ، فإذ بالفاجعة.. الذئب يجتر الصغير ويمزقه، ويمزق معه قلب الأم، التي صرخت وصرخت، ولكن بعد فوات الأوان.. فقدت الأم المفجوعة صوابها، لدرجة ذهبت معها لداود تدعي فيه أن ابنها لم يمت، وأن المأكول هو طفل تلك المرأة.

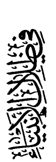


افتـرس الذئـب أحد الطفليـن واجتره بعيـدًا، فكادت أمه أن تفقـد صوابها، بل فقدتـه، حيـن توجهـت نحـو داود ﷺ تدعـي فيـه: أن الطفل الذي افترسـه الذئـب هو ابن صاحبتهـا. فحكم داود لها، فاسـتأنفت الأم الحقيقيـة الحكم عند سليمان ﷺ.

وقفـت المرأتان أمامه، فتأمـل تصرفاتهما في أثناء مرافعاتهمـا، فأصدر حكمًا مفجعًـا.. هتـف بحاجبـه، وأمره بأمر اتسـعت لـه عيونهما، وارتجف لـه قلباهما، وهو يقول: «ائتوني بالسـكين أشـقه بينهما».

سـكتت المدعية، وانهـارت الأخرى.. لا تريد لـه الموت.. ناشـدته الرحمة، وهـي تقـول: «لا تفعل، يرحمـك الله هـو ابنها»[1] سـكت الجميع، وإذ بسـليمان ينطـق بحكـم مفاجـىء.. أمـر بتسـليم الصغيـر للمـرأة، التـي ناشـدته ألا يـؤذي الصغيـر، لأن الأم لا يمكـن أن تضحـي بطفلهـا، ولـو كان سـيؤخذ منها.

وفـي قضية أخـرى حدثت ذات ليلة، حيـن أهمل أحدهم غنمه، فسـاحت في الأراضـي المجـاورة، حتـى انتشـرت داخل بسـتان عامـر بالثمار.. نفشـت الغنم فـي الـزرع، وأكلت الثمـار، وعاثت حتـى أصبحت المزرعـة حطامًا.



أشـرقت الشـمس، واسـتيقظ صاحب المزرعة، فهاله ما جـرى لمزرعته فهرع إلـى داود يشـكو صاحـب الغنـم، فحكم له حكمًـا، جعلـه يتوجه نحو سـليمان، الـذي حكم لـه حكمًا آخر، فلم يعاتـب الله داود على اجتهاده، بـل جعل للقاضي المجتهـد أجـرًا وإن أخطأ، مـا دام لم يحكم بهـواه، أما إذا انحاز إلـى طرف على طـرف، فيكـون القضاء وبـالًا على صاحبـه، فـ«القضـاة ثلاثة: قاضيان فـي النار، وقـاض فـي الجنـة، رجل قضـى بغيـر الحـق فعلـم ذاك فذاك فـي النـار، وقاض

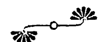
---

(١) صحيح البخاري (٦٧٦٩).

لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة»[1].

كانت مدة حكم ونبوة داود وسليمان حافلة بالعدل والعجائب والخوارق، وبالقوة الهائلة في جسد كل منهما وسلطته، لكن سنة الله ماضية.. كبر داود وشاخ، ثم مات، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، ورثه في الحكم، وليس في المال، فالأنبياء لايورثون: ميراثهم يوزع صدقة على شعوبهم، وقد قال النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث»[2] «لا نورث ما تركنا صدقة»[3].

تولى سليمان الحكم بعد وفاة والده، وسار على نهجه في العدل والقوة، واصطفاه الله نبيًّا، وآتاه ملكًا يفوق ملك والده، وحباه بمعجزات، خاطب شعبه عنها يومًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، وفي أحد الأيام كان يتفقد خيله المحببة.. يتأملها معجبًا بها، لكن هذا الإعجاب أدخله في عالم من الحزن والندم.



توبة سليمان

سار سليمان ﷺ على نهج والده في العدل والقوة، وآتاه الله ملكًا يفوق ملك والده، فذات يوم كان مشغولًا، بتفقد خيله ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، معجبًا بجمالها وأصالتها وحسنها.. قد صفت أمامه..

---

(١) سنده قوي رواه الترمذي (١٣٢٢) وغيره من طرق عن سليمان وعبد الله ابني بريدة عن والدهما أن النبي ﷺ قال. وابني بريدة ثقتان.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٩٩٧٢) حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قال قال رسول الله ﷺ. وكيع وسفيان إماما ثقتان، وأبو الزناد وشيخه عبد الرحمن بن هرمز ثقتان أيضًا. والحديث في الصحيح كما في الحديث الذي يليه.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٣٣).

يتأملها، ويتحدث لمن حوله عنها.. يمسح نواصيها وأعرافها.. ظل كذلك لا تشبع عيناه من تمليها والشغف بها، حتى توارت الشمس بالحجاب، وغابت خلف الأفق.

أفاق سليمان من عالمه، فإذا إحدى الصلوات المكتوبة آنذاك قد فاتته، فحزن حزنًا شديدًا، وأمر بإبعاد الخيل عنه، وهب للصلاة والدعاء والإنابة طويلًا، وبعد أن فرغ التفت لمن حوله، فباح لهم بذنبه، ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾.

كان ذكر الله زاد الأنبياء على كل حال وفي كل حين.. ذكر الله هو غذاء أرواحهم.. ذكر الله هو الشلال، الذي يغسل همومهم ومعاناتهم، ويخفف من ضغط المسؤوليات الثقيلة عليهم.

هدأ غضب سليمان، فطلب من الجند إعادة الخيل، وقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، ظل يمسح قوائمها الرشيقة وأعناقها.. تلامس أنامله أعرافها الناعمة برفق، وكأنه يعاتبها، ويعاتب حبها.



لم تكن فتنة الخيل الفتنة الوحيدة، التي مرت بسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن لأنه ولد ملكًا ابن ملك.. كان شغفه وحلمه بدولة قوية، تخدم التوحيد لا حدود له.. كان يحلم بسلطة تذل لها قوى الشر، لذا دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾، هكذا كان حلم سليمان.. ملكًا لا يدانى في نشر التوحيد والعدل.

لم تكن تلك الدعوة الوحيدة، فقد قام سليمان بإعادة بناء المسجد الأقصى، وبعد أن بناه سأل الله ثلاثة أشياء.. سأل الله:

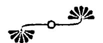
«حكمًا يصادف حكمه، فأعطاه الله إياه.

وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه.

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه».

ولذا علق النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دعوته الثالثة، فقال: فنحن نرجو أن يكون الله عَزَّ وَجَلَّ قد أعطاه إياه»[1].

هطلت زخات الهبات الإلهية على سليمان.. لا تدري أصبح ملكًا في السماء أم ملكًا على الأرض، أم ملكًا في البحار؟.. إنها باختصار نفحة من كرم مالك الملك، الذي يقول: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، عطاء بلا حدود، وملك بلا مقاييس، ما زاد سليمان إلا تواضعًا للجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



عجائب مملكة سليمان

ناشد سليمان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه عَزَّ وَجَلَّ ملكًا فريدًا.. ملكًا استثنائيًّا في قوته وهيبته، لا ليباهي به، بل لينشر به التوحيد، ويحقق به العدل.. دعا الله، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، وإذ بزخات الهبات الإلهية تهطل على سليمان، ففي السماء ﴿ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وكأن الآية تحدد أبعاد دولة سليمان بالمسافة، التي يقطعها المسافر تلك الأيام في مدة شهر.. كان سليمان يتحكم في الريح، ضمن تلك المساحة.

ليست الريح فقط.. الطير سخرت له أسرابًا وأفرادًا، ومن التسخير أن ألهمه

---

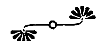
(١) سنده صحيح رواه أحمد (٦٦٤٤) وغيره من طرق عن الثقات ربيعة بن يزيد و أبي زرعة السيباني وغيرهم عن الثقة عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا.

الله القـدرة علـى التواصـل معهـا، وتوجيههـا حيـث يريد، أمـا علـى الأرض فلم يكـن لسـليمان من الجنـود الكثير، نظـرًا لقلة الإسـرائيليين وتلكئهـم، لذا عوضه الله بقـوى خارقة.

سـخر له الجـن.. حتى الكفـار ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾، أمـا مـردة الجـن فتم تقييدهـم، وإرغامهم علـى الانقياد لـه، وأعطاهم الله القـدرة على الظهور والبناء والتشـييد لـه: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، بل إن الجبار سبحانه حذرهم من التمرد على نبيه، وتوعدهم، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وكمـا ألان الله الحديـد لوالـده داود، فقـد ألان الله لسـليمان النحاس، بل أسـاله لـه كي يصنع به ما يشـاء، فقال: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾.

هـذا هـو ملـك سـليمان: عالـم مـن العجائـب والمعجـزات، يمتد مـن لجج البحار إلى ذرى السـماء.. قوى بسـط سـليمان مـن خلالها العدل والنظام ونشـر التوحيـد. لم يتعـرض هـذا النبي لمـا تعـرض لـه بقيـة الأنبيـاء مـن الاضطهـاد والتشـريد والفقـر والمعانـاة.. كان مهابًـا تجلـه الممالـك المجـاورة، وتخطـب وده وتتـودد إليـه، فلا أحـد يسـتطيع الصمود أمامـه أو اسـتفزازه، فمـا زاده ذلك إلا تواضعًـا مـع الصغيـر قبـل الكبيـر، ومـع الضعيف قبـل القوي.

ذات يوم ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾، ويتم ترتيبهـم، بحيـث لا يتقـدم أحد، أو يتأخر عن موقعـه، الذي وضع فيه، وفي أثنـاء الترتيبات رصـد سـليمان لغة لا تنتمـي لعالم البشـر.. لغـة خائفـة مرتبكة، تتوجس خشـية جيشـه المهاب، وما إن رصدها حتى انصدع قلبه خشـوعًا وامتنانًا لله سـبحانه.



رصد سليمان ﷺ في أثناء تفقد جيشه لغة خائفة، وحركة مرتبكة.. لغة لا تنتمي لعالم البشر.. صادرة من قرية للنمل قريبة من موقع الجيش.. نملة تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

انصدع قلب سليمان امتنانًا لله، وهو يرى ما حوله من عوالم، خصه الله بتسخيرها من بين جميع الأنبياء، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فالذي منحه هذه النعم قادر على أن يسلبها منه.

تفقد جيش الإنس وجيش الجن، ولما توجه للجانب المخصص للطير، الذي يبدو أنه قد حضر عن كل نوع من الطير طائر يتواصل معه.. رأى مكان الهدهد شاغرًا، فهتف غاضبًا: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.



لم يجبه أحد، فلا أحد وسط هذه المملكة مشغول بغير وظيفته، أما سليمان فكما هو أواب وشاكر.. هو حازم جدًا، لأن مملكته تمتد من أعماق البحر إلى ذرى السماء.. مملكة تجمع المتناقضات.. إن لم يكن الحزم والعدل نهجها، تتفلت شظايا، لكن غضبه هدأ حين رأى الهدهد يرفرف نحوه بعد مدة.. يقبل بكل ثقة، ودونما ارتباك أو اعتذار، فقد وقع على مشهد شده وأشغله، وما إن هبط حتى قال مباشرة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾، ثم استرسل، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾، ثم بين عقيدتها وعقيدة قومها الوثنية، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾.

لم يتوقف عند ذلك.. ظل يتكلم مبينًا استهجانه لوثنيتهم، وقائلًا: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

كان الحضور يحدقون بهذا الطير الجميل، وتاج الريش الملون، الذي يزين رأسه دون أن يفهموا شيئًا.. كانت لغة ثنائية بينه وبين سليمان ﷺ، الذي لم يصدقه ولم يكذبه، بل قرر التحقق من أقواله قائلًا: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، هتف النبي الملك سليمان بخدمه طالبًا إحضار قلم ورقعة للكتابة. ثم كتب فيها: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.



بلقيس أحكم من وزرائها

استدعى سليمان ﷺ كاتبه فأتى، ووضعت المحبرة والرقعة أمامه، فغمس القلم في المحبرة بانتظار ما يملى عليه. نظر سليمان إليه، وبدأ الإملاء: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، سطر واحد فقط، لكنه يغني عن خطب لأنه من سليمان.



جف الحبر، فطويت الرسالة، ونظر سليمان للهدهد، وقال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، ثم وضعت الرسالة بطريقة تُمكن الهدهد من حملها وإلقائها.. رفرف الطير الجميل، أيامًا فوق الأودية والصحاري، بل وفوق الجبال، فقد أعطي القدرة على الارتفاع لمستويات شاهقة.. يتوقف لشربة عند نبع، أو يأوي لغصن فينام، حتى أشرف على معبد الشمس وقصر بلقيس.. يتنقل من بستان إلى فناء، حتى رأى الملكة التي

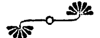
تهادت، وحولها حاشيتها، ثم ارتقت الدرج العريض، نحو عرشها العظيم، المرصع بالأحجار والمعادن الثمينة.

رفرف الهدهد، فألقى الخطاب. فاهتزت الملكة من المشهد، وهي التي تعيش في بيئة لا تخلو من السحر والشعوذة.. مدت يدها نحو الرسالة، وحلت رباطها وفتحتها. ارتجف قلبها من سطر واحد.. من اسم المرسل.. من طريقة إيصاله، ثم هتفت بمستشاريها ووزرائها، وقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

تصفحت الوجوه المأخوذة والأعين حولها.. كانت امرأة عاقلة، وملكة حكيمة.. لا تنفرد برأيها، ولا تتعصب له.. كانت تقود شعبها عن طريق المشورة، لذا قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، فإذ بردة فعل عنيفة، تصدر منهم.. أبدوا استعدادًا للقتال والحرب، قائلين: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

ثمنت بلقيس حماس وزرائها، لكن هذه المرأة التي خرجت للتو من غرفة تبرجها، ومن أمام مرآتها وأدوات زينتها وكحلها، كانت أحكم وأكثر اتزانًا من مستشاريها، فهذا الملك الذي استطاع إيصال كتابه بهذه الطريقة، قادر على أن يفعل بمملكتها العجائب، لذا فلن تقامر بحكمها وبشعبها أمام ملك كهذا، حتى مع افتراض أن قوتها مثل قوته، ففي الحرب يخسر الجميع حتى المنتصر، لذا قالت لهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، حكمة أيدها الجبار سبحانه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

تجاهلت بلقيس خيار الحرب، وقررت القيام بخطوة لجس نبض سليمان، علها تكتشف المزيد عن شخصيته وأهدافه وسر جرأته.



بلقيس في الطريق

قررت بلقيس القيام بخطوة لجس نبض سليمان ﷺ واكتشاف شخصيته وأهدافه وسر جرأته. فقالت لوزرائها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

أمرت على الفور بإعداد هدية ملكية فاخرة، علها تشتري بها أمن دولتها. أحضرت الهدية لها، فعبرت عن رضاها عنها، فوضعت على راحلة أو رواحل، ثم انطلقت القافلة تحمل الهدية وسط حراسة عبر الجبال والأودية.. انطلقت شمالًا نحو الشام.. عبرت الأرض المقدسة الأولى في الحجاز، وظلت تسير وتتوقف، حتى حطت ببيت المقدس.. سأل قائد القافلة عن مقر الحكم، فدلوه، ولما أصبحوا أمام بواباته، كشفوا عن هوياتهم، وطلبوا مقابلة الملك.

سمح النبي الملك سليمان ﷺ لهم بالدخول، فتهادى الرجال يحملون هدية فاخرة، ثم وضعوها بين يديه. قاموا بفتحها، وقلوبهم مفعمة بالسرور.. ظنًّا منهم أن سليمان طالب دنيا، وقد يطلب المزيد، وقد يبتزهم.. كل شيء وارد.. كل شيء مقبول.. المهم أن لا يشن حربًا.

حدق ﷺ بالهدايا.. جالت عيناه بين بريقها، ومهارة صنعها وصياغتها، فإذ به يشتاط غضبًا، ويقول لمبعوث بلقيس: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

ارتجف المبعوث، وتحولت نظرات الوفد المسرورة إلى نظرات خوف، وإذ بسليمان يزيدهم رعبًا، ويقول: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

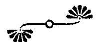
ارتجفت القلوب، واهتزت الأيدي، وهي تغلق الصناديق، ثم تضعها على ظهور الدواب التي أحضرتها، ثم انثنت القافلة عائدة من حيث أتت.. مرت



الأسـابيع طويلـة ومملة على القافلـة الحزينة، حتى دخلت أرض سـبأ.. توجهت نحـو القصـر، ولما وصلت طلب المندوب مقابلة سـيدته.. كانـت الملكة بلقيس تنتظـره على أحـر من الجمر، فـإذ به يرعبها بجـواب الملك سـليمان وتهديده.

تماسـكت الملكة، وظلت علـى رأيها في عدم المجازفة بمكتسـبات دولتها.. فكـرت وفكـرت، فقـررت تجنيـب دولتها ويـلات الحـرب وخرابهـا، مهما كان الثمـن الذي سـتدفعه، لـذا قررت اكتشـاف عالم سـليمان بنفسـها، وعلـى الفور بـدأ الموظفون بإعـداد الرواحـل والمركبات، وحملـت الصناديق المليئـة بأزياء الملكـة وعطورهـا وأدوات زينتهـا، وبعد أيـام أصبح كل شـيء جاهزًا.

الرواحـل.. الـزاد.. الجنـد. القافلة، كلها رهن إشـارة الملكـة، التي عينت من ينـوب عنهـا فـي إدارة الدولة، ثـم انطلقت نحـو الشـام.. هذا مـا كان يحدث في سـبأ، أما الأرض المقدسـة.. في بيت المقدس فالحركة هناك أشـد سرعة ورعبًا.



أسرع الجن وأقواهم

كانـت ملكة سـبأ في مركبهـا محفوفة بموكبها فـي طريقها للشـام.. تحف بها قافلة مهيبة، محاطة بالجند المدججين.. سـارت بيـن جبال الجنوب، وتجاوزت جبـال الحجـاز، وحـاذت السـاحل مرات.. هـذا ما كان يحـدث فـي الطريق، أما فـي بيت المقـدس، فالوضع غايـة في الاسـتنفار، فقد وصل الخبر لسـليمان، لذا أراد أن يسـتقبلها بمشـهد، يريها شـيئًا من آيات الله المبهرة، التي تكرم بها سبحانه عليه، وسـخرها له.

أراد أن يريهـا قـدرة الله، الـذي تركـت عبادتـه، واتجهـت هـي وقومهـا لعبادة الشـمس، التـي لا تسـتطيع تغييـر اتجاههـا ولا مواعيدهـا.. لا تسـتطيع حتـى التخفيـف من حرارتهـا، التي تتفجر وتضطرم في جوفها. من أجل ذلك اسـتدعى

سـليمان أقوى الجن وأسـرعهم، وربما اسـتعان بملك من الملائكـة معهم، وهم الآن أمامـه، ورهن إشـارته.

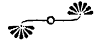
حـدق ﷺ بتلـك القوى الخارقـة، المصطفـة أمامه، والمسـخرة له، ثم هتـف بهـم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، هنـا نطـق عفريت مـن عفاريت الجن، مبينًا سـهولة الأمـر، وقائـلًا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، سـكت سـليمان بانتظـار عـرض آخـر، فالخيـارات أمامـه في بداياتهـا، وهـي عديـدة، وإذ بشـخص قـد يكـون مـن الملائكـة يحسـم الأمـر.. شـخص تتلخـص قدرتـه في جملـة واحـدة، هـي أن ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وقد عـرض استعداده لإحضـار عرش بلقيـس في فتـرة زمنية قياسـية، وهـي أقل من مـدة إرسـال شـخص إلى أقصى مـكان يـراه سـليمان بوضوح، ثـم عودته.

قال هذا الشخص: ﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾.

وفـي دقائـق معدودة رأى سـليمان عرش بلقيـس أمامه، فانصـدع قلبه إجلالًا للجبار سـبحانه وتواضعًا وشـكرًا، فسـليمان نبي وولي يشـعر بالقرب من الله مع كل نعمـة، ولـذا لمـا رأى العـرش ﴿مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾، تأمـل سـليمان العـرش، فبـدت لـه فكرة قد تسـهم في إيقـاظ بلقيس من خرافـة الوثنية، فطلـب من خدمه أن يضعـوا بعـض اللمسـات على شـكل العـرش للتمويه، قائـلًا: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾.



أخذ العرش إلى ورشة ما.. وبدأ العمل عليه، بينما كانت صاحبته قد تجاوزت مدائـن صالـح ووادي القرى، حتى أشـرفت على تلك التلة المقدسـة. هنا توقفت القافلة، ونزل المسـافرون، وعسكر الجند، وضربت خيمة كبيرة للملكة.



وكشفت عن ساقيها

عسكرت قافلة الملكة بلقيس في الأرض المقدسة.. قرب قصر النبي سليمان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي كان يعد لها المفاجآت، وبعد أن استراحت، قامت بالاستعداد لدخول القصر.. اغتسلت من وعثاء السفر، وتزينت، ولبست أزياء ملكية فاخرة، وتهيأت للقاء أعظم ملك على الأرض، وقلبها ممتلىء بالهيبة.

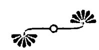
أقبلت وحولها حاشيتها، والانبهار يلون وجوههم، مما يحيط بهم من تماثيل وجفان ضخمة، وحدائق ساحرة.. ظلوا يسيرون، حتى أصبحوا أمام بوابات القصر فتوقفوا، حينها نزلت وتهادت، فاستقبلها الخدم بكل احترام.. دلفت البوابة، فإذ بالفخامة تصدمها وتسحرها، وبعد تجاوزها للمر المبهر، أوقفوها بكل ذوق أمام عرش عظيم، وضعوه في مكان زاده عظمة.. التفت إليها الخادم، وقال لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾؟

تأملته، وقد حيرها المشهد، وأذهلها السؤال، ثم قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، ثم استأذنوها بالمواصلة، وبعد خطوات من الذهول، دلفت قصرًا آخر، أو بهوًا هائلًا، يسمى الصرح.. تأملته، فإذ بالمياه تتلألأ في سقفه.. تنساب في جدرانه، وتستقر على أرضيته.. أجواء تعصف بقلبها وعقلها، وهي ترى كل شيء يتلألأ فوقها وحولها ومن تحتها، ترددت في خوض النهر.. أبهرتها رؤية سليمان على عرشه في أقصى الصرح، وهي تتساءل: كيف تطفو قوائم عرشه على الماء، ولما همت بالتقدم، مدت يديها إلى فستانها السابغ، ورفعته بهدوء، وكشفت عن ساقيها، كي لا يتبلل الفستان بالماء.

وقبل أن تخطو قدماها توقفت.. أفلتت مقدمة فستانها.. حينها هتف سليمان طالبًا منها عدم الحاجة لرفع ثوبها، فهو لن يتبلل بالماء، لأنه لا وجود للماء أصلًا.. أذهلها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال لها: إنها أمام ﴿صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾، الجدران والممرات والسقف، وكل شيء حولها ممرد من زجاج.. فن أخاذ،

يوحي للمشاهد بأن القصر مشيد من الماء.. براعة وإعجاز انهارت أمامه بلقيس.. تلاشت وثنيتها، ولمعت عيناها، إجلالًا للخالق الجبار.. للواحد الأحد، الذي منح عبده سليمان ذلك، ثم انصدع قلبها، حين علمت أن عرشها هو ذلك الذي رأته في مقدمة القصر.. تهدج صوتها، خشية لله، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

كان نبي الله يرقب المشهد، دون أن يتسرب الغرور إلى قلبه.. مشهد زاده إيمانًا وامتنانًا، وشكرًا لله، وعدلًا وتواضعًا مع خلقه، فهو الذي أعطاه، وهو القادر على سلبه إياه.. مملكة من يراها يظنها خالدة، لكنها مملكة عظمى، اختفت بلمح البصر.



مملكة سليمان مملكة استثنائية

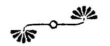
حكم سليمان مملكة عادلة قوية، لكنها كانت استثنائية في كل شيء، لأنها لم تكن، ولن تكون لغيره.. كانت مختلفة تمامًا عن أي مملكة على الأرض.. مختلفة حتى عن مملكة والده داود، حيث إنه لم يكن للشعب أي دور في تمددها الخاطف والمبهر، أما سر هذا التمدد الكبير والخاطف لمملكة سليمان، فليس لقوة البشر دور يذكر فيه، فشعبه هم بنو إسرائيل وهم قلة.

السر كان في المعجزات والخوارق والجنود غير البشرية، التي سخرها الله لنبيه: الريح.. الطير.. الجن.. إسالة النحاس.. الإبهار في الصناعات المختلفة، حتى قصره المسمى (الصرح)، لم يكن لليد البشرية دور في بنائه.. كان عامرًا بزعماء الجن، لا برؤوس البشر.. كانوا مسخرين له.. يوكل إليهم المهام الشاقة في داخل مملكته، من أقصاها إلى أقصاها.. مهام صعبة، ليست ضمن طاقة البشر.. كانوا مذللين لا يجرؤون على التحدث، قبل أن يحدثهم.

تلاشت في عهده خزعبلات شياطينهم، التي يلقونها على السحرة، ويخدعون السذج بها، ومن تلك الخزعبلات ادعاؤهم علم الغيب.. اتضح كل ذلك حين جلس سليمان على عرشه، وهو يشعر بتعب شديد، وحوله خدمه من كبار الجن، وإذ به يغير من طريقة جلوسه، فانحنى على عصاه، التي تسمى المنسأة، واتكأ عليها، وفجأة شخص بصره، وسكن جسده.. صعدت روحه إلى بارئها.

مات سليمان، والجن تجول خارج القصر.. لا أحد ممن في الداخل، يستطيع الاقتراب منه أو مبادرته.. معتقدين أنه يفكر أو يتأمل، أو أنه سابح في مناجاة قلبية مع الله، ولا أحد ممن في الخارج يجرؤ على الدخول.. مرت الأيام تلو الأيام، وبنو إسرائيل خارج القصر منشغلين بدنياهم كالعادة، بينما كان الجن يعملون بجد دون توقف.. يعانون من تلك التكاليف، التي لا يدرون متى تنتهي، وفي أحد الأيام دبت إلى عصا سليمان حشرة الأرضة، التي تسمى دابة الأرض، التي تنخر الخشب.. تمدد نخرها ببطء، حتى تفتت أسفلها، وفجأة تردد في الصرح دوي ارتطام بالأرض.

حدق الجن بمصدر الصوت، فإذ بسليمان ممدد على الأرض.. نهاية قال الله عنها: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، فتحت أبواب القصر، ودخل أبناؤه وزوجاته، وتفرق المردة والجن.. هنا بدأ تآكل الدولة العظمى، دون أن يسل عليها سيف أو ترمى بسهم.



انهيار مملكة سليمان

فتحت بوابات القصر المهيب، فدخل أبناء سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وزوجاته الصرح يبكون.. لم يعد الصرح مبهرًا كما كان.. أصبح خواءً بلا روح، فسليمان لن

يعود إليه.. لن يتهادى بعد اليوم في ممراته الفاخرة، خلا عرشه من التسبيح والتهليل والامتنان لله الواحد القهار.. خلا من إلقاء الأوامر على الجن والطير والريح.

مات سليمان، فارتخت قبضته، وانفلتت خيوط الدولة الهائلة.. بدأت تتآكل.. تنهار بسرعة، كما ظهرت بسرعة.. ها هي أطراف مملكته تتفكك.. تنفصل عن العاصمة، فور معرفتها بموته، وليس لدى بني إسرائيل جيش قادر على حمايتها، أو قوة تستطيع بسط نفوذ خليفته.. رحل سليمان فبكاه بنو إسرائيل.. بكاه المؤمنون من الإنس والجن، وافتقدته الطير، وبعد أن انتهوا من دفنه، تفرق كل شيء.. تفرق المردة وكبار الجن، واحتفظ الهدهد ببقايا رسائله، وشعر الشعب بفراغ هائل.. فراغ لم يستطيعوا ملؤه، لأنهم لم يشاركوا يومًا في تشييده.

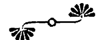
انهارت تلك المملكة العظيمة فجأة، لأنها لسليمان فقط.. هو من طلب ذلك، حين قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾، انهارت، لأن جندها ليسوا من البشر، وإنجازاتها ليست من البشر، ولا يمكن أن تكون لغير سليمان، حتى النبي محمد ﷺ الذي مكنه الله يومًا من عفريت من متمردي الجن، سرعان ما أفلته، حين تذكر دعوة سليمان، وقال: «إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ فرددته خاسئًا»[1].

انكمشت مملكة سليمان داخل الأرض المقدسة، فخلفه ابنه رحبعام، وسرعان ما دب الخلاف بينه وبين أجنحة بني إسرائيل، فانقسمت الدولة



(١) صحيح البخاري (٣٤٢٣).

الصغيرة إلى دولتين شمالية وجنوبية، حيث أصبح شمال فلسطين للأغلبية من بني إسرائيل، الذين حولوها إلى دولة وثنية، تتناوب الدول على غزوها، حتى محاها الآشوريون، بينما حكم رحبعام القدس، وجعلها عاصمة لدولة جنوب فلسطين. وقد تعرضت هي أيضا لعدة غزوات حتى محاها نبوخذ نصر فدمر الصرح، وبيت المقدس، وأحرقها، وأحرق التوراة معها، وأخذ بني إسرائيل عبيدًا، وكان من أسباب تلاشي الدولتين: فشو الشرك والظلم.. أي التخلي عن رسالة داود وسليمان: التوحيد والعدل.



أيوب والابتلاء

سُلب أحفاد داود مملكتهم، لأنهم تخلوا عن التوحيد والعدل، لكن نبيًّا من بني إسرائيل اسمه (أيوب)، لم يسلب الملك فقط.. سلب كل شيء.. خسر ماله، وجاهه، وكل ما يملك، ثم سلبه الله نعمة الصحة، فبدأت الأمراض تدب إلى جسده، حتى ضعف، وأصيب بالهزال، وغدا ناحلًا جدًّا، وكأنه هيكل عظمي مغلف بجلد.. نفر منه أهله وأصحابه، ولم يعد أحد يطيق الاقتراب منه أو خدمته.

وحدها زوجته الوفية ظلت تحن عليه.. تطعمه وتنظفه وتعتني به، ظلت على ذلك أسابيع وأشهر وسنوات، حتى جاء ذلك اليوم، الذي كانت فيه شاردة الفكر.. مهمومة تفكر بحاله وبحالها، إذ بدا لها شيطان من شياطين الإنس أو الجن.. اقترب منها كالمشفق الحاني، ثم أخبرها أن بإمكانه شفاؤه مقابل أمر ينفذه زوجها.. عرض عليها أن يشفي حبيبها، مقابل أن يذبح قربانًا له.

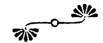
كانت الزوجة في حالة اكتئاب شديد، وكأن أبواب السماء والأرض سدت في وجهها، وفي لحظات القنوط تلك تقبلت الفكرة الكارثية.. نهضت من

مكانها تقتلع خطواتها، حتى أشرفت على مكان حبيبها.. أقبلت عليه، فإذا هو يفطر القلب.. منطو على آلامه وأوجاعه.. لا شيء فيه يوحي بالحياة.. لا شيء يغري بالبقاء معه ورفقته، سوى ماض جميل، ولسان يذكر الله ويناجيه، وكأنه لم يفقد شيئًا من جاهه، فالله جاهه ووجاهه.

اقتربت من إلفها المبتلى، وحيته وجلست بجانبه.. واسته، واعتنت به، ثم نظرت إليه بعين باكية، راجية ومحبة، وذكرته بشبابه، ونضارته السابقة، وسط استغرابه من هذه اللغة الجديدة، وإذ بها توقف استغرابه، باقتراح الذبح لغير الله.

صدم أيوب من هذه الدعوة الصريحة للشرك، وغضب رغم ما به من آلام، وكأن حبيبته تعلن انفصالها عنه.. عاتبها عتابًا شديدًا، فهي وإن كانت حبيبته، إلا أن الله أحب إليه منها.. فحلف رغم تلاشي قواه: أن يعاقبها على دعوتها للشرك. أدركت الزوجة الطيبة فداحة الأمر، فسكتت، ثم نهضت حزينة وغادرت، وكأن كل شيء بينهما قد هده ذلك الشيطان.

عادت تجر خطاها، ويقتلها الندم. نظر أيوب إلى حبيبته، وهي مقفية، وتأمل حاله، وقد أمسى وحيدًا، ليس له سوى الله، فتوجه إليه بقلب باك، وهو يقول: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، و﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وإذ بالرحمة تنزل، والوحي ينزل، ويقول له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.



جزاء أيوب

نزل الوحي على أيوب الناحل من شدة المرض، المنطوي ككومة من العظام، تلتحف الحزن والألم.. نزل الوحي يأمره أن يضرب برجله

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾، ضرب أيوب ببقايا قوة رجله الناحلة الهزيلة على الأرض، فإذ بالمعجزة تتفجر تحتها ماء.

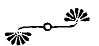
ابتسم أيوب، وامتلأ قلبه بالسعادة، وهو يرى الماء يترقرق تحت قدميه.. قاوم ضعفه، وحاول الجلوس حتى اعتدل، ثم مد يديه المرتجفتين نحو الماء، وغرف غرفة، وغسل وجهه، فإذ بالمعجزة تسري مع كل قطرة تنساب على جلده الرقيق، والانتعاش يسري في كل عضو يغسله.. غرف بيديه وشرب. ويومًا فيوم شعر بقوة تنعشه.. تغسل آلامه وأوجاعه، وتذهب أنينه وصداعه.. بدأ جسده يعود للحياة شيئًا فشيئًا.. مرت أيام حتى شفاه الله وصح بدنه، وعادت له نضارته، لكنه لم يعد لبيته.. ظل في مكانه، وكأنه لا يريد ترك نبع الحياة هذا.

في أثناء ذلك كانت الزوجة الحانية تتململ.. تقتلها خناجر الندم على تركه وحيدًا.. قررت العودة لخدمته، حتى وإن رفضها، فحبه يملأ قلبها، رغم ما به من بلاء. نهضت وأخذت طعامًا وشرابًا، وأدوات للعناية به، كانت تأخذها عادة.. تهادت خلال الطرقات، تفكر بردات فعله، ومفاجآت استقباله.. متوجسة من صد الحبيب.. شرقت بها الهواجس وغربت، حتى أقبلت على المكان، فإذا هو غير المكان.. لا رائحة، ولا عفن، ولا أنين.. تغير المكان، فأين الحبيب؟

تلفتت فلم تجده، لكنها وجدت شخصًا غريبًا هناك.. اقتربت من الغريب، وسألته عن مالك قلبها، وهو ينظر إليها بعينين تفيضان بالعتاب. تساءلت عيناها عن سر نظراته، فعرفها بنفسه، فأجهشت بالبكاء، شكرًا لله وفرحًا وندمًا، لكن هل هي نظرات الوداع يا أيوب؟

كان عتابه بحجم حبه لها وحبها له، وإذ بالوحي ينزل عليه، ليعيدها إليه.. الرحمن الرحيم، يقول له: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾.

انطلق أيوب يبحث عن شمراخ.. عن مجموعة أعواد، يجمعها ضغثًا، ولما وجد مبتغاه، قبض عليها جميعًا بكفه.. كان أحد منها، ثم ضربها بها ضربة عتاب وكفارة وشوق، حتى لا يحنث بيمينه، ثم أخذ بيدها، وعادا لبيتهما، بعد أن تجاوز النبي المبتلى الامتحان، ونال شهادته من الرحمن، الذي أثنى عليه، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وبالقدر الذي كان فيه أيوب صبورًا، كان أحد الأنبياء في مكان آخر عاجزًا عن التحمل، فحلت به كارثة لا تطاق.



يونس غاضب

انتشر الشرك والظلم في مدينة نينوى، الواقعة في شمال العراق، فبعث الله فيهم نبيًّا منهم اسمه يونس بن متى.. يدعوهم للتوحيد والعدل، وترك الوثنية والخرافة، فالله خالق السماوات والأرض ومالك الملك، ولا يرضى معه شريكًا، لكن قوم يونس كبقية الأمم، ظلوا على تراث آبائهم وأجدادهم.. لا يريدون فتح عقولهم، والتأمل في تفاهة آلهتهم، التي يصنعونها بأيديهم.. أصنام لا تتكلم، ولا ترى، ولا تسمع.

طال الأمر بيونس، فيئس من قومه، وقرر الهجرة من قريته ومغادرتها.. فعل ذلك قبل أن يأذن الله له.. شاهده أهل القرية، وهو مقف قد بلغ به الحزن والغضب منتهاه، فانكسرت قلوبهم، وهم يرونه يختفي خلف السراب.

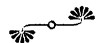
غاب يونس، ومرت أيام ولم يعد، فشعر أهل بلدته بحزن شديد، واجتاحهم خوف أشد، فهم يعرفونه جيدًا.. لم يكذب عليهم أو يغشهم يومًا.. تذكروا مصير الأمم التي حدثهم عنها: أقوام نوح وهود وصالح، فتعقلوا، ثم عقدوا اجتماعات دار فيها نقاش جاد وهادف.. توصلوا بعدها إلى أخذ الدرس من تلك الأمم، فيونس لم يتركهم إلا لأنه يدرك أن كارثة ستحل بهم، كما حلت بمن قبلهم.

قرروا العودة للتوحيد، ونبذ الوثنية والخرافة، وترك الظلم والجور، فإذ بالمدينة مع مرور الأيام تتغير.. أصبحت أكثر سعادة وأمنًا وألفة.. غدت مدينة للتوحيد والسلام والعدل.. لا ينقصها سوى شيء واحد.. هو درة تاجها ورأس مالها.. لا ينقصها سوى ابنها البار (يونس بن متى).

لكن أين هو يا ترى؟ لقد هام على وجهه أيامًا وليالي وحيدًا حزينًا، لا يؤنسه سوى ذكر الله، حتى حطت به قدماه ببلدة ساحلية.. لم يتوقف للتمتع بزرقة بحرها وأجوائها، التي قد تنسيه أحزانه.. قرر أن يقطع البحر بعيدًا.. رأى إحدى السفن الصغيرة مزدحمة تستعد للإبحار.. دنا منهم وسألهم أن يحملوه.. لا يهمه أين وجهتهم، ولا ما ميناؤهم اللاحق.. المهم أن يبعدوه عن ذكرياته المرة مع قومه. وافق ربان السفينة، فركب وانحشر في فراغ داخل المركب.

أبحر كما تبحر مراكب اللاجئين والمشردين.. لا مكان فيه للابتسام أو الاسترخاء أو حتى النعاس.. الكل خائف.. الكل متشبث.. تعلو الشهقات مع الأمواج وتنخفض.. الكل خائف متوجس في عالم أزرق، اتصلت فيه السماء بالماء.

قطع المركب الثقيل أميالًا في عمق البحر، وإذ بالريح تهب، والبحر يضطرب، فأدرك الربان أن مركبه غارق لا محالة، إلا إن تخلص من بعض الركاب.



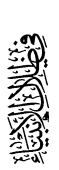
يونس خارج المركب

ركب يونس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السفينة ﴿أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، الذي يوشك على الغرق لثقل حمولته، فكلما مالت به الأمواج أو انخفضت، غمرته المياه.. تأمل الربان مركبه، وأدرك أنه غارق لا محالة، إلا إن تخلص من بعض الركاب..

هتف بهم، وواجههم بالحقيقة، فإذ بالوجوه المبللة تتجهم؟ وإذ بالأيدي تزداد تشبثًا بالمركب والحياة، فلا متبرعون على ظهر المركب، ولا فدائيون ولا حتى منتحرون.

هنا تقرر إجراء قرعة، ومن تصيبه سيقفز في الماء، أو يرمى في البحر. لم يكن هناك وقت، فالموت يطل عليهم مع كل موجة.. يبلل وجوههم مع كل طشة ماء.. أجريت القرعة بطريقة ما، وقلب يونس معلق بالله، ولسانه يلهج وهو يرى القافزين، وفجأة حدق الركاب به.. حاصرته عيونهم.. تأمل وجوههم، فأدرك أن القرعة وقعت عليه، فأصابه الفزع ونهض من مكانه ثقيلًا، والتف نحو حافة المركب، وسلم أمره لمن أنجا نوحًا وفلق البحر لموسى. قام على حافة المركب ثم قفز.. انغمس في الماء، ثم طفى، وحاول السباحة قرب المركب، لكن الموج فرق بينهما.. غاب المركب عن ناظريه، وهو يصارع الأمواج ويعانق الموت.

لم يعد يرى سوى الماء والسماء.. لا هو الذي يطال تلك، ولا هو الذي يستقر على هذا.. ظل يصارع، وفجأة انتزعته موجة.. رفعته، ثم هوت به داخل فوهة عملاقة وسط البحر.. انزلق نحو أعماقها، حتى ابتلعه الظلام، وكأنه داخل كهف وسط البحر.. لا يدري ما الذي حدث له، ولا أين هو.

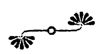


الشيء الذي يعلمه هو: أنه حي غارق في ظلام دامس.. يتحسس بيده أرضية وجدرانًا لينة.. مر اليوم الأول وهو ينتظر الموت. مر اليوم الثاني كالأمس مظلمًا، لا شمس، لا أرض، ولا حتى بحر.. يتقلب بين خرير ماء، وأصوات نوافير ماء وهواء مخيفة.

ظل يونس جنين الظلمة، ثم أدرك أنه داخل جوف حوت مهول، أرسله الله ليريه قدرته عليه، حين ترك قومه، فعج لربه بالتسبيح والتقديس، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ظل يناجي خالقه، ويبكي ويعتذر، ويردد: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، حتى أنهكه الجوع والعطش، وفجأة انفتحت البوابة العملاقة، وإذ بموجة من أعماق الحوت تقذف به على رمال الشاطىء.

رفع يونس رأسه منهكًا من الجوع والخوف والإعياء، فرأى الحياة من جديد.. رأى الشمس والنور، ولامس وجه الأرض.. وتأمل هذا المخلوق العملاق، وهو بعد أن أدى مهمته.. يلتف نحو البحر لينغمس فيه محدثًا تلاطمًا هائلًا.



وعاد يونس

كان يونس صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقذوفًا على الشاطىء، بعد أن تلقى ذلك الدرس القاسي من الله.. كان في حالة إعياء من شدة الجوع وقلة النوم، وإذ بمعجزة إلهية، يراها قربه.. شجرة من يقطين، يقول الله عنها: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾.

استعاد يونس شيئًا من قوته ومعنوياته، فزحف نحو تلك اليقطينة، ومد يده، وبدأ يأكل.. نام ثم صحا، وتناول مجددًا منها حتى تعافى، ونهض على قدميه.. كان في خلوة مع ربه، على ذلك الساحل.. يناجيه يتوب إليه.. يعتذر عما بدر منه، وإذ بملاك الوحي يهبط عليه.. يأمره بالعودة لدياره وقومه، فهم قد تابوا من بعده، لكن توبتهم لا تكفي، فهم بحاجة إليه، كي ينشر الوعي والعدل بينهم.

نهض يونس ومشى على الساحل، وواصل السفر حتى أشرف على الديار.. أقبل عليهم، فإذ بالوجوه غير الوجوه، تلاشى التجهم والإكفهرار عن ملامحها، وإذ القلوب غير القلوب.

ابتهجت المدينة بعودة ابنها الحبيب، ونبيها الكريم.. التفوا حوله يعانقونه.. يحيونه، ويعتذرون إليه، ويعتذر منهم، ويقص عليهم قصته مع الحوت.. كان قومه حالة فريدة، قال الله عنها: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، انتشر التوحيد على أرضهم، وظلوا ينشرونه، وينعمون بالعدل سنوات وسنوات، في الوقت الذي تناسلت فيه ذرية سليمان، وبنو إسرائيل في الأرض المقدسة، تتناوب الأمم في غزوهم وتشريدهم، كلما أخلوا بالتوحيد، وتركوا العدل، وتطبيق شريعة ربهم.

غزاهم الأقباط الوثنيون والفرس والفرس، وكاد البابليون أن يبيدوهم، وأخيرًا اجتاحهم الروم الوثنيون، واحتلوا بيت المقدس وما حوله، فأرسل الله نبيًّا اسمه زكريا، يدعو للتوحيد والعدل، ويعاني صلف الوثنيين، لكنه لم يكن يعاني من الوثنيين فقط، فمعاناته الأشد كانت مع قومه، وبالتحديد من منافقي بني إسرائيل، كانوا عملاء للسلطة الرومانية الوثنية، لا هم لهم سوى المال وجمعه، بل إن بعضهم تحول لنصرة الوثنية على التوحيد.

كان المؤمنون قلة حول زكريا، وكان من تلك القلة صديق له اسمه عمران، وقد توجه عمران وزكريا إلى إحدى الأسر الإسرائيلية المؤمنة، ليخطبا فتاتين شقيقتين صالحتين.. اسم أحدهما حنة، والأخرى إليزابيث. تزوج زكريا من اليزابيث، وعمران من حنة. مرت السنوات فلم يرزق زكريا بذرية، بينما رزق عمران بولد سماه هارون.. ثم حملت زوجته وفي أثناء حملها توفي عمران.

شعرت حنة بالحزن على حبيبها وحملها، فتوجهت لربها تستودعه جنينها.



اليتيمة والصالحون

بعد وفاة سليمان ﷺ وتفتت دولته بمئات السنوات، وبعد غزوات وثنية متكررة على فلسطين من الجنوب والشرق والغرب.. جاء الروم

الوثنيـون مـن الشـمال، فاجتاحـوا كل فلسـطين، واحتلوا بيت المقـدس، فرضخ لهـم بنو إسـرائيل.

وفـي إحدى تلك السـنوات المريرة تزوج النبي زكريـا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصديق له اسـمه عمـران من فتاتين إسـرائيليتين مؤمنتين، يقـال لإحداهمـا إليزابيث، ويقال للأخـرى حنة.. مرت السـنوات والشـباب الأربعة يعيشـون حياة سـعيدة مع الله، ومعانـاة من الوثنييـن، لـم يرزق زكريـا وزوجته خلالها بـأي مولود.

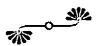
أمـا عمـران وحنـة فرزقهمـا الله ابنـا سـمياه على اسـم نبيهما هـارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبعـد سـنوات من ولادتـه حملـت زوجته مـرة أخرى.. كانـت سـعيدة بحملها، لكـن الأقـدار فجعتها بوفـاة حبيبها وزوجهـا عمران، أشـعرتها بـآلام لا تقل عن آلام الحمـل.. شـعرت بغيمـة اليتـم، تخيـم علـى حملهـا، فعاشـت حزنًـا ثقيلًا، لـم يخففـه سـوى مناجـاة الله، واللجـوء إليه.

لم تجـد أرحم منه سـبحانه، لـذا نذرت جنينهـا لله وحده، والقيـام على خدمة دار العبـادة.. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وبعـد تسـعة أشـهر مـن المعانـاة، دوت صرخـة بريئـة في بيت عمـران.. تأملت حنـة مولودها، فإذا هي فتـاة عذبة كالمطر.. تنازعتها المشـاعر، فقـد كانـت تحلـم بصبـي، يخـدم بيـت الله، ويتفـرغ لعبادتـه، وهي مهمة ليسـت للإناث.

ثـم ما الـذي سـتفعله فتـاة للديـن، وقـد أدخـل الحاخامـات فـي الكتـاب المقـدس، نصوصًـا كثيـرة تضطهـد المـرأة.. ما الذي سـتضيفه مريـم، والكتاب المقـدس يحـرم علـى الأنثـى حتـى الـكلام فـي دار العبـادة.. يحرم عليهـا حتى طرح السـؤال.

تلاطمـت أمـواج الحيـرة بحنـة، فنـادت ربهـا وهو أعلـم بهـا، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا

بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، بعد تلك الدعوات الباكية، أشرقت مريم اليتيمة على دنيا حنة، فأمطرتها بالسعادة.. عوضتها فقد والدها عمران، كما أن توكل أمها على ربها سبحانه، انتشلها من حيرتها، وذلك حين ابتهجت ذات يوم، حين رأت زوج أختها النبي زكريا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه بعض أقاربها المؤمنين، يفدون على بيتها، يريدون كفالة يتيمتها، التي قال الله عنها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، كلهم يريد مريم ابنة له.. تنافس لم تحله سوى القرعة.



أفضل يتيمة على الأرض

كانت مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ طفلة كالقمر.. تملأ بيت أمها بالبراءة والجمال، اجتهدت في تربيتها، فألقى الله في قلوب الخلق محبتها، حتى تطلع الصالحون من أقاربها، وفي مقدمتهم النبي زكريا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إلى كفالتها. تحيرت أيهم أولى: كلهم أولى، وأمام هذا النقاء من الرجال الأتقياء، لم تجد أمها أعدل من القرعة.

اجتمع الكرماء في مكان واحد، وكتب كل واحد اسمه، ثم ألقوا أقلام قرعتهم في وعاء، أو مكان محدد، ثم أتى شخص، ومد يده دون تحديد إلى تلك الأقلام، فأخذ بطريقة عشوائية واحدًا منها. رفعه وقرأه، فإذا بعيني زكريا تلمعان فرحًا، وهو يفوز بكفالة أفضل يتيمة على وجه الأرض.

بدأ كفالتها، فواصل تعليمها، وخصص لها غرفة للتعبد، تسمى المحراب، فنشأت بين أم وخالة مؤمنتين، وزوج خالة نبي تقي. كبرت مريم، وشاخ زكريا، واشتعل رأسه شيبًا، وأصبحت مريم في ريعان شبابها، وبلغت سن الزواج، لكنها ظلت بتولًا، كثيرة المناجاة لله والأنس بذكره، وإذ بالكرامات تنهال

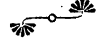
عليها.. كرامات أدهشت زكريا وزوجته، وحيرتهم. رغم أن الله وصف زكريا، فقال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

اكتشف زكريا كرامات مريم ذات يوم.. حين مر بها، وهي في محرابها في حالة مناجاة لله، فإذ به يرى طعامًا عندها، لم يشتره، ولم تحضره زوجته أو أمها.. تكرر مشهد الطعام عدة مرات، ومريم لا تفشي أسرارها مع ربها، ولا تفخر على غيرها بكراماتها.. كانت مشغولة بما هي فيه من نعيم روحي، زادها تواضعًا. زادتها الكرامات شكرًا، فلم تنسب شيئًا لنفسها.

ازداد فضول زكريا، فتوجه نحو محرابها وحياها، فردت التحية.. نظر إلى الطعام، ونظر إليها وقلبه يرتجف، وقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ هنا أجابته إجابة الأولياء العارفين الشاكرين، فقالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أخذته الكلمات بعيدًا.. تعلم وهو المعلم من فتاة يتيمة يكفلها ويعلمها. أن السر في الله، وليس في العبد. السر في عطاء الله، الذي لا حدود له، لا في عبادات الإنسان المحدودة. أدرك أن سر الأولياء هو الثقة بالله، والاعتماد عليه، وعدم التطلع إلى ما في أيدي خلقه.

خرج من محراب مريم البتول، وقلبه يبكي، ويتمنى مثلها، ويقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، وإذ بصوت يناديه، يقشعر له بدنه.



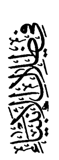
زكريا يشكو لربه

خرج زكريا ﷺ من محراب مريم البتول الطاهرة، بعد أن أيقظته إجابتها. توجه نحو محرابه. دخله وبقي وحيدًا، منزويًا عن العيون، منكسرًا

بين يدي خالقه، ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، أفصح عن أمنيته، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، وإذ بصوت مهيب بين جدران المحراب، تقشعر له الأبدان، حوّله إلى شخص آخر تمامًا.

نادته ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

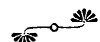
ذهل زكريا وارتبك، ومن شدة ارتباكه سأل سؤالًا هو من طرحه قبل قليل، فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، ما زال زكريا منذهلًا.. لم يكتف بنداء الملائكة وبشرياتهم.. أراد علامة زكريا بنداء الملائكة. أراد علامة أخرى، وإذ بالإجابة تصدمه. آية كالعتاب حين قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.



خرس لسان زكريا، ولم يعد قادرًا على الكلام. وبعد مدة خرج من المحراب.. مشى في الأسواق يحييه الناس، فيرد بالإشارة.. يكلمونه، فيهز رأسه، ويحرك يديه، وسط استغرابهم. كانت علامة وآية ومعجزة خاصة به، لذا ظل الغموض يلتف حوله، حتى مرت الأيام الثلاثة، فانطلق لسانه، وواصل تعليم بني إسرائيل، ونشر التوحيد بينهم، وسط أجواء الاحتلال الوثني، وبعد أشهر شعرت زوجته بأعراض الحمل، فاجتاحته السعادة، وبعد تسعة أشهر داهمتها آلام المخاض، فزادت من ضعفها، ثم ولدت غلامًا جميلًا، سماه الله قبل أن يخلق.

كانت سعادة زكريا وزوجته لا توصف.. ملأ يحيى بيتهما بالحياة والأنس. احتفت به خالته، وحملته ابنة خالته مريم ودللته.. أصبح الرضيع يتقلب بين دلال ثلاث من أطيب نساء الدنيا.

مـرت الأيام ومريم لم تتزوج، أشـغلتها العبـادة عن التفكير فـي الزواج، حتى جـاءت اللحظـة التـي غيرتهـا، حين نهضت إلـى غرفـة مفتوحة باتجاه الشـمس، دخلتها، ثم أسـدلت سـتر البـاب. وما إن أصبحـت لوحدها، حتـى ارتجف قلبها خوفًـا.. طيـف غريب يدخل عليها دون اسـتئذان. رجل لا تعرفـه، يقتحم خلوتها بربهـا.. أصابهـا الرعـب والهلـع، فـلاذت منه بربهـا، وخوفتـه بالجبار سـبحانه، وقالـت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.



مريم أفضل امرأة

اقشـعر بـدن مريـم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ حيـن رأت رجلًا غريبًـا، لا تدري من هـو، ولا من أيـن أتى؟ يقتحـم غرفتها. شـعرت بالذهـول، فلم تجـد مهربًا وملاذًا سـوى الله، وقالـت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾، وإذ بصوتـه المهيـب، يزيدهـا قلقًـا، ويقـول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾، تحيرت: هل سـيعتدي عليها، أم ماذا سـيفعل؟

لـم يعطهـا الغريـب مهلـة للتفكيـر، سـرعان ما فاجأهـا بشـيء آخـر.. فاجأها ببشـارة لم تتصورها يومًا.. بشـرها بمولود وهي التي لم تعاشـر رجلًا في حياتها، بـل زاد على ذلك حين حدد جنس مولودها، ونسـبه أيضًـا، قائلًا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، ثـم أذهلهـا حيـن أخبرهـا أن طفلهـا هـذا سـيحمل معجزاته معـه لحظـة ولادته، قائـلًا: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.



مريـم الآن في أشـد حالات الذهول.. كيف سـيحدث هذا، وهـي التي نذرت نفسـها، ونذرتهـا أمها لله؟ كيف سـتصبح أمًّا، وهي لم تتزوج، ومن سـيصدقها؟

نظـرت إلـى جبريل بعينيـن باكيتيـن، خشـية الفضيحة، وقالـت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

﴿غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾، لكـن الـروح القـدس أزال خوفهـا، وطمأنهـا وزادها إيمانًـا، و﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾.

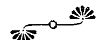
إذا فطفلهـا معجـزة تحـدث كمـا تحـدث أي معجـزة ربانيـة.. بكلمـة (كن)، فيكـون.. المسـيح مخلـوق بكن..

امتزجـت المشـاعر داخـل قلـب العـذراء البتـول عليها السـلام، ثـم ما لبثت أن رفرفـت روحهـا فـي السـماء مسـرة، وشـكرًا لله حيـن بشـرها بأعظم بشـارة، مـرت بهـا امـرأة فـي الدنيـا قائـلًا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هـذا الاصطفـاء لا تعني رفع التكاليـف عنها.. إنهـا نعمة وابتلاء مـن الله لهذا النقـاء، لـذا طالبهـا الملاك بمواصلـة التقرب مـن الله، فقـال: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، بعدهـا نفـخ الـروح في رحمهـا عَلَيْهَا السَّلَامُ، ثـم صعد للسـماء، أمـا هي فظلـت علـى الأرض مذهولـة.. تتلون جـدران غرفتهـا بالفرح، بالهواجـس، بقائمـة التهـم التي تنتظرها مسـتقبلًا حين يظهـر حملها.

أمضـت العـذراء ليلتهـا في مناجاة، وشـعرت بعد شـهر بانقطـاع الحيض، ثم مرت الأسـابيع، وإذ بها تخفض رأسـها، وتمد يديها نحو بطنها، وتتحسسـه، فإذا هـو قـد كبر.. لم يعـد خصرها نحيلًا، فشـعرت بالخـوف من نظـرات كالخناجر، تنتظرها فـي الطرقات.

ضاقـت القـدس بمريم، وهـي لا تضيق، وكأنهـا بلا شـوارع.. فتوجهت نحو غرفتهـا ودخلتهـا، ومدت يديها نحو الأوتـاد وخزانتها، فأخذت ثيابها ومشـطها، ومـا تحتاجه، ثـم وضعتها في مزودتها، وحملتها وخرجـت، وهربت من المدينة.



البتول تهرب من بيت أهلها

مريم الطاهرة تهرب حياء من الناس، وخوفًا من سكاكين ألسنتهم، حين يعلمون بحملها.. غادرت تحملها الثقة بمعية الجبار سبحانه.. مشت بين جدران القدس الحبيبة، وطرقاتها المزروعة بجنود الاحتلال الروماني الوثني، حتى توارت عن الأنظار ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾، بحثت في ذلك المكان العامر بالبساتين والنخيل عن ملجأ، حتى وجدت.

ظلت هناك أشهرًا تعاني الغربة.. يقتلها الشوق لأمها.. لمربيها زكريا.. للأهل والديار، ولمحرابها وغرفتها الشرقية. وتحن إليها صديقاتها وقريباتها.. يستفسر الحاخامات عن سر اختفاء البتول سليلة الأنبياء.

أصبحت في الشهر التاسع، وأصبحت ثقيلة الحركة والخطوات، وذات يوم كانت تتهادى ببطء بين النخيل، وإذ بها تئن فجأة، وتضع يدها أسفل بطنها، وتتوقف من شدة الألم: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾.

مدت يدها نحو الجذع، واتكأت عليه، ثم ثنت ركبتيها بصعوبة، حتى لامست الأرض، واستقرت عليها وجلست، وما إن جلست حتى تفاقم وجعها، وارتفع أنينها.. تصبب عرقها، وفاضت عيناها من شدة الطلق. تلفتت، فلم تر أحدًا حولها. لا أم. لا أخت. لا صديقة، بل لا أحد من البشر يسعفها، فتمنت الموت من شدة الألم، وهي تبكي. تصرخ، وتقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾، وفي غمرات الموت أشرقت الحياة.. أشرق حبيبها على الدنيا بلا صراخ.

أشرق الوليد المعجزة، فالتقطت أمه العذراء أنفاسها، والتقطته، وضمته، وأمطرته بدموعها وعرقها، وإذ بالصوت الذي بشرها بعيسى، يزيح حزنها، ويناديها: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾.

تلفتت الأم العذراء -صلى الله عليها وسلم- تبحث عن السري، فإذا المعجزة.. جدول ماء، يجري بجانبها. مدت يديها، وبدأت تغرف منه،

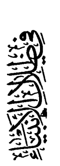
وترتشف، وتغسل طفلها ووجهها، وإذ بالملاك الذي لا تنتهي بشائره، يسعدها بخارقة أخرى، فيقول: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾، مدت يدها الناعمة المتعبة للجذع ودفعته، وإذ بالمعجزة:

الجذع الثابت يهتز بكف العذراء الضعيفة، والشماريخ فوقها تتأرجح، فتتساقط حبات الرطب الحلوة الملونة بين يديها. تبهرها الرحمة، فتلتقط الحلوى وتغسلها بماء السري وتأكل دون أن تنهض من مكانها، ثم تحني رأسها، فيتناثر شعرها المبلل على القمر، الذي يزين حجرها، فتزيح بعضه عن وجهه، وترضعه، فيقبل على نهر الحياة حتى يرتوي، ويغفو.

فتمهده بثوب من ثيابها، وتتأمله، فينسيها جماله كل ما مر بها من آلام، وبعد أيام تتذكر قول الملاك: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فتنهض وهي تحمله لتهديه إلى القدس الحبيبة.



طريق الصمت



استردت مريم عليها السلام بعض عافيتها ونشاطها، فخفق قلبها للقدس الحبيبة.. نهضت فجمعت متاعها، ووضعت خمارها على رأسها، وودعت جدول الماء ونخلتها، والمكان القصي الذي احتضن غربتها، ومهدت قرة العين، وحملته لتهديه للقدس.

ارتفعت مع الدروب، وانخفضت، وهي تتذكر قول الملاك لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، تهادت حتى أقبلت على مدينتها الحبيبة، فإذ بأمواج المشاعر تصطفق في قلبها.. الشوق والخوف.. الاتهام والبراءة.. مشت صامتة تتحاشى العيون والتجمعات، حتى صادفت أشخاصًا أو شخصًا لم تستطع تحاشيه.. تعرف عليها.. أأنت

مريـم؟ ومريـم لا تـرد. ما هذا الطفـل؟ ومن هو؟ ومـن هو أبـوه؟ لـم لا تجيبين؟ لـم تسـتطع البتـول التخلـص مـن حصـار الشـك والقـذف والاتهـام ولا التفلت مـن حصـار الأسـئلة والعيـون، فتوقفـت: لـم لا تجيبيـن؟ تداعـى الإسـرائيليون الفضوليـون حولهـا، يتهمونهـا بالرذيلـة، والوثنيـون يتفرجـون دون اكتراث.

أتـى الحاخامـات، فأخضعوهـا لمحاكمـة علنيـة فـي طرقـات القـدس. هـذا ما كانـت تخشـاه أفضـل فتـاة علـى الأرض:

بـدأت المحاكمة: مـا هذا الرضيـع الملفـوف يا مريم؟! نحـن لا نعلم أن لك زوجًـا.. أمك لا تعرف لـك زوجًا.

فاضـت عيناها، وهي تتلقى الطعنـات حين ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، كيـف تشوهين سـمعة آل عمران؟

رفعت مريم رأسـها، واحتضنـت رضيعها بيد واحدة، ورفعت الأخرى لتشير بإصبعهـا نحـوه.. كلمـا طرحـوا عليها سـؤالًا أشـارت إليـه.. تعجبـوا منها؟ هل جنـت الفتاة؟

أجل.. نحن نسألك عن هذا الملفوف في المهد؟

وفجأة توقفت إشاراتها، وأصيب القاذفون بالخرس.

سكت الجميع. سكت كل شيء، ونطق الرضيع.. تكلم وهو بين لفائف المهد، وقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

اتسعت الأعين، وفُغرت الأفواه.. أسقط في أيدي المحاصرين.

وذهـل القضـاة.. زادت مريم طهرًا في عيونهم، ومكانة في قلوبهم، فأفسـحوا الطريـق لهـذا الأمير كـي يمـر.. سـاروا خلفه، وخلـف أمـه، كالحاشـية، بعد أن أوقفوهمـا كالعسـكر. ألجمتهـم المعجزة المبهـرة، وكأنها ذكرتهـم بمعجزة أكبر منها .

فلئن خلق الله عيسى بلا أب، فإن أباه آدم خلق بلا أب وبلا أم.



الله يحدد هوية عبده عيسى

اتسـعت أعين اليهـود حول مريـم.. خرس الذيـن قذفوها واتهموهـا بالخنا.. ابتلعـوا ألسـنتهم حيـن تكلـم الطفـل فـي مهـده، وأفصـح لهم عـن هويتـه، وأنه عبـد لله الذي خلقـه ويميته ويبعثـه،، فارتفعت مكانـة مريم بين الناس، فأفسـحوا لهـا الطريـق، كي تمـر مبجلة.

سـار الحشـد خلفهـا، وخلـف رضيعهـا، وأدرك المؤمنـون بـأن خلق عيسـى معجـزة كمعجـزة أبيهـم آدم، الـذي خلقـه الله بلا أب وبـلا أم، فقـال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وحـدد الله هويتـه، فقـال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

أصبحت مريم ملء السـمع والبصر، واسـتأنفت تبتلهـا ورهبانيتها ومناجاتها، وعيسـى يزين محرابها وحياتها بجماله وبراءته.. يكبـر فيكبر حبه في قلبها، ويبدأ بالوقـوف وهو ينتفض ويسـقط، ثم ينهض ويدرج وهـو يتأرجح ويتعثر.

تلاعبـه ويلاعبهـا، يكبر عيسـى فتأخذه إلـى خالته، أو تزورهـم خالته، فيلعب مع ابنها يحيى، وتزداد صداقتهما، وهما يمضيان سـنين المراهقة، وسـط إعجاب

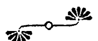
الناس بأخلاقهما، وبرهما لوالديهم خاصة يحيى الذي آتاه الله الحكم صبيًّا، ويبلغان سن الرجولة، فينشغلان مع نبي الله زكريا بنشر الوعي والتوحيد بين الإسرائيليين والوثنيين، فيضيق الروم المحتلون بالثلاثة، وتبدأ المضايقات، ويتم القبض على يحيى، ويودع السجن، ويتلقى ألوانًا من التعذيب.

وفي أحد أيام المعاناة تلك، يسمع يحيى وهو في زنزانته قرع أحذية من بعيد.. يرتفع الصوت شيئًا فشيئًا في الممرات الصخرية، حتى توقف أمام زنزانته، أدخلوا المفتاح في القفل وأداروه، وفتحوا الباب، ثم أقبل الجلادون عليه، وسحبوه عبر الممرات بعنف، ثم أدخلوه في مكان ملطخ بالدماء.

وضعوا رأسه على شيء صلب، ثم رفع أحدهم منشارًا، فوضعه على رقبته، وبدأ ينشرها حتى هوى رأسه على الأرض. مد أحدهم يده إلى رأس النبي الشاب، ثم التقطه يقطر دمًا، وأخذه نحو حاكم فلسطين الوثني. ابتسم الطاغية الوثني، وأمر بوضعه على طبق من فضة، ليقدمه هدية لعاهرة.

خيم الحزن على القدس.. رحل النبي الشاب يحيى بن زكريا شهيدًا، فبكاه الإسرائيليون الموحدون، وانفطر قلب أمه، وبكته مريم، وبكاه صديقه ورفيق دربه، وابن خالته عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وعاد زكريا كما كان فردًا، أُنتزع ابنه البار منه.

لكن مهلًا؟ كيف يموت يحيى قبله، وقد استجاب الله دعاءه بأن يرثه يحيى؟



الحزن يخيم على القدس

أُنتزع يحيى الابن البار من أبيه زكريا، وهو في عنفوان شبابه.. حرمه الوثنيون رؤية أحفاده، فانفطر قلبه، وبكى حبيبه، وسلم أمره لربه، لكن مهلًا؟ كيف يموت يحيى قبله، وقد استجاب الله دعاءه، حين قال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

أجل قد استجاب الله له، فورث يحيى والده وهو حي.. ورثه النبوة، فالأنبياء لا يورثون مالًا، حيث يقول النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»[1].

لم يسكت زكريا.. احتج لدى السلطة الوثنية على تلك الجريمة بحق ابنه وفلذة كبده، فعلم الحاكم الوثني، فأصدر أمرًا بالقبض على الشيخ النبي الحزين.. خيم الحزن على تلك العائلة المؤمنة، وضاقت بها الأرض، حين سمعوا لغط الشرطة الوثنية، وهي تطرق الباب للقبض على الشيخ الحزين، لكنها لم تجده.. بدأ الجلادون بتمشيط شوارع القدس وأزقتها، وتفتيش بيوت اليهود الموحدين وبساتينهم، وكأن زكريا مجرم، أو قاطع طريق.

قلبت الشرطة القدس حجرًا حجرًا، وأخيرًا تمكنت من القبض على النبي الطاعن في السن، الذي وهن عظمه، واشتعل رأسه شيبًا، واحترق جوفه حزنًا على فلذة كبده وأمنيته. اقتادوا نبي الله للسجن، مصفدًا بالحديد.. يترنح وهو يقاد بعنف، وتردد ممرات السجن الحجرية صلصلة السلاسل، التي تثقل يديه وقدميه وشيخوخته.

أوقفوه أمام الزنزانة، وفتحوا بابها ثم رموه فيها، وبعد مدة نفذوا حكم الإعدام فيه.. استشهد الشيخ بعد استشهاد ابنه في ظل حكم روماني وثني، لا يطيق التوحيد ولا العدل، أعدم زكريا، وهل هناك أشد من قتل نبي، أو قتل آمر بالعدل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

سال دم نبيين يهوديين كريمين، والأشنع أنه قد شارك في سفك دمائهما حاخامات خدمة وتزلفًا لسلطة رومانية وثنية.. تغير بنو إسرائيل كثيرًا، فبعد أن مارسوا المناكفة والتحايل مع موسى وهارون وغيرهما.. سلط الله عليهم

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٩٩٧٢) وقد مرمعنا وهو عند البخاري لفظ آخر.

(البابليون والفرس وأخيرًا الروم)، وها هم يتورطون أكثر، فيسهمون مع الوثنيين في محاولة للقضاء على آخر نبي يهودي.

مطاردة آخر نبي يهودي

تغير بنو إسرائيل كثيرًا، فبعد أن مارسوا المناكفة والتحايل مع موسى وهارون وغيرهما.. ها هم يتورطون أكثر، فيسهمون مع الوثنيين في قتل نبيين إسرائيليين منهم.

جرائم كبرى أغضبت الجبار سبحانه، فحكم عليهم بالذلة والمسكنة، بحيث لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا التصدي لأعدائهم إلا بحبل من الله، أو عن طريق أمم أخرى، تحميهم أو تدافع عنهم، فقال سبحانه ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

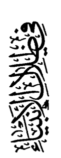
وها هم يشعرون بنجم عيسى يرتفع بالنضال، ونشر التوحيد، ورفض الظلم، ليبدؤوا التخطيط لنحر آخر أنبياء اليهود عيسى ابن مريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. كان عيسى قد تجاوز الثلاثين، لكنه كبقية الأنبياء من قبله.. بدأ بأهله وأسرته، ثم بشعبه الإسرائيلي، الذي انحرف الكثير منهم، وأصبحوا في صف الوثنيين.. توجه إليهم في شوارعهم وأسواقهم ودكاكينهم، وداخل المسجد الأقصى.

هتف بهم، مبشرًا المؤمنين منهم بالجنة، ومبشرًا أيضًا ببعثة رسول، يأتي من بعده هو نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومؤكدًا على أنه يؤمن بكل ما جاء به موسى من التوحيد في التوراة، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

نظـر بعـض اليهود إلـى بعض بتعجب، فهذا الشـاب في نظرهم لا يسـتحق أن يكـون معلمًا لحاخاماتهـم الكبار، الذين يتاجـرون بالدين، حتـى اتخذهم الناس أربابًـا من دون الله: يحرمـون عليهم الحلال، ويحلون لهم الحـرام، فيطيعونهم.. لم تعجبهم دعوة المسـيح، لذا هـددوه، وذكروه بمصير زكريـا ويحيى ودمائهما، التـي لم تجـف بعـد إن لم يتراجع، لكنه لم يتراجـع.. مضى يقـدم الدليل لهم تلو الدليل..

ذات يـوم وقـف أمامهم يناديهـم، فلما تحلقوا حولـه.. انحنى ومـد يديه نحو التربـة، فأخـذ قليـلًا منهـا، ثم سـكب عليـه بعض المـاء، ثم بـدأ يعالجـه بأنامله، حتـى تحول إلـى طين، ولما أصبح الطين متماسـكًا، قام بتشـكيله على هيئة طير، ثـم رفعـه لهم، ولما ركـزوا أبصارهم فيه، إذ بلـون الطين يتغير، وإذ بالطين نفسـه يتحـول،. قربـه مـن فمه، ثـم نفخ فيـه.. خيـم الصمت علـى الحضـور، ينتظرون نهاية المشـهد.





المسيح والمعاناة

رفـع المسيح ابـن مريـم ﷺ تمثالـه الطينـي؛ ليـراه الإسـرائيليون والوثنيـون، ولمـا غرزوا فيـه أبصارهـم.. قربه من فمه، ثـم نفخ فيـه، وفجأة تغير لـون الطيـن.. تغيـر شـكله.. كسـاه الريش، ثم دبـت فيه الحيـاة، فانتفض ريشـه، وتحـرك رأسـه، وفتح عينيـه الصغيرتيـن، وبدأ يتلفـت، وكأنه يقـول للمتفرجين: آمنوا.

رفـع المعجـزة عيسـى معجـزة ربـه بيديـه أكثر، فـإذ بالطيـر يرفـرف بجناحيه ويطيـر.. يحلـق بعيـدًا، لتحلـق خلفـه عقـول وأرواح، إلا عقولًا صدئـة.. عقول حاخامـات الظـلام وسـدنتها.. شـعروا بزلـزال يصـدع دجلهـم.. شـاب صـادق

ونزيـه، يفضـح اسـتغلالهم للديـن وللنـاس، لـذا رمـوه مباشـرة بتهمـة تتناسـب والمشـهد.. التفتـوا لجمهورهم وصاحـوا كما صاح فرعون مـن قبل: هذه خدعة قديمـة.. هذا سـحر مبيـن وواضح.

سـكت المسـيح.. أسـكته الحزن، ثم غادر المكان ثقيلًا، فالقدس وسـاكنوها يشـهدون أنـه ما كذب يومًا.. طفولته تشـهد وشـبابه.. غادر عيسـى المكان، لكن لم يكـن لوحـده.. أخذ معه بعض القلـوب، التي هزتها المعجـزة فآمنت.. أصبح لـه صحابة، وأصبـح له أعداء، من تجـار الدين.

بدأ المسـيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجـدد التوحيد في نفـوس أتباعه، ويأمرهـم بعبادة الله وحـده فقـط، ويأمرهم بالقسـط والعـدل، فلم يتعرض لـه الوثنيون بدايـة.. الذين واجهـوه هم من قبيلتـه بني إسـرائيل، وبالتحديد هم حاخامات تربطهم بالسـلطة البيزنطيـة الوثنية والنائب البيزنطي مصالح مادية، لذا شـرعوا بالتخطيط، لتحطيم المسـيح حيـن رأوا أتباعـه يكثرون شـيئًا فشـيئًا، لأنه كلمـا آمن به رجـل أو امرأة خسـر هـؤلاء الحاخامـات أتباعًا ودراهـم يأخذونها منهم بغير وجـه حق.. بدؤوا تكـرار المماحـكات التي مارسـها أسـلافهم مع موسـى والأنبياء قبلـه، بينما كان المسـيح يفحمهم بالمعجزات.

ذات يـوم مـر علـى ميـت ينـوح أهلـه عليـه، فمسـحه ودعا ربـه سـبحانه، فإذ بالميـت ينهض مجـددًا.. مر بأبرص فشـفاه الله علـى يديه، ناداه أعمى وسـأله أن يدعـو له بالشـفاء فدعـا الله، فإذ بالنور يمزق سـتار الظـلام عن عينيـه، لينتقل إلى عالـم تزينه الأشـكال والألوان.

لم ينسـب عيسـى شـيئًا من تلك الخوارق المعجزة لقدراته الذاتيـة.. بين لهم أن كل الـذي يجري على يديه كان بأمـر الله قائلًا: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أدهشـت المعجـزات طلبـة المسـيح

الحواريين، بل أغرتهم بالمزيد، فتوجهوا يومًا إليه، طالبين منه معجزة تخرس الجميع، وتشمل الجميع، ويلمسها بنو إسرائيل بأيديهم.

مائدة من السماء

توجه الحواريون نحو عبدالله ورسوله عيسى ابن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطلبوا منه طلبًا غريبًا، وكأنهم يريدون أن يغروا أهلهم اليهود بالتوحيد والإسلام لله، ولما وقفوا أمامه قدموا مطلبهم بصيغة مؤدبة. قدموه على صيغة استفهام: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟.

لم يقولوا: أنزل علينا، ولم يقولوا: اطلب من الله، ومع ذلك أغضب طلبهم عبدالله عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنهرهم، وقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وكأنه يقول لهم: أما يكفيكم ما رأيتم من الآيات والمعجزات، ما يثبت لكم أني عبدالله ورسوله، وأن التوحيد هو الحق. ألم تؤمنوا بعد، أم أنكم تنهجون منهج الحاخامات والكهنة المرتزقة، الذين يخشون الحق، لأنه سيوقف تدفق أموال المساكين والمغفلين باسم الدين إلى جيوبهم؟



غضب المسيح ابن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الطلب، فخاف الطلبة من غضب الجبار سبحانه، وقدموا اعتذارهم لله سبحانه، ثم لعبده عيسى ابن مريم، وبينوا أنهم لم يطلبوا ذلك شكًّا في أنه عبدالله ورسوله، ولكن لتقوية إيمانهم، ورفع معنوياتهم، وسط أجواء الإحباط، التي زرعها الروم الوثنيون، وتجار الدين من الحاخامات. قال الحواريون: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

سكت المسيح عبدالله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لم يجبهم، فالأمر ليس بيده، بل بيد خالقه ومرسله، لذا توجه إليه وحده، ودعاه وحده سبحانه، وناشده أن ينزل

عليهم مائدة من السماء تسعدهم. ويجعلونها هم وذريتهم عيدًا يحتفلون بذكراها كل عام. ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

لم تنزل المائدة مباشرة. نزل وعيد شديد من الجبار سبحانه، لكل من يكفر من اليهود والنصارى، بعد أن يأكل من تلك المائدة ثم يرتد. وعيد شديد يخلع القلوب، حيث قال سبحانه لعبده ابن مريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محذرًا: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفي اليوم الموعود كان المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المكان الذي حدده له خالقه، وحوله الحواريون وكلهم شوق لمعجزة ربهم، وحول هؤلاء تكدس النصارى المؤمنون واليهود الفضوليون، وفجأة ارتفعت الرؤوس نحو السماء. وارتفعت التأوهات والأيدي، وأشارت الأصابع نحو شيء مذهل يهبط عليهم.

ارتجفت القلوب وفاضت العيون، وهي تتملى مائدة ملونة فاخرة، بما لذ وطاب. مائدة لم تمسها نار، ولم تخرج ثمارها من بين التربة والسماد، ولم يقدد لحمها من ظهور البهائم. مائدة هضيم. ليس فيها عظام، ولا نوى، ولا قشور، ولا جلود، ولا شيء، لا يمكن أكله والتلذذ بطعمه.

مائدة من السماء. أبدعها الله وخلقها كما خلق عيسى ابن مريم. بكلمة واحدة: (كن فيكون).

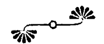
استقرت المائدة على الأرض. لم يكن هناك تزاحم لاهتبالها. إنها فاخرة جدًّا، وكافية لأولهم وآخرهم، لذا لا داعي للهلع وخشية النفاد.

جلس الجميع حولها. يأكلون والطعم يسافر بهم مع كل لقمة. واللذة تحلق بهم مع كل مضغة، والهمهمات ترتفع، والالتفاتات تعبر عن الدهشة لا تتوقف. سكتت الأفواه المشغولة عن الكلام. تركت التعبير للحواجب

التـي ترتفع إعجابًـا، وللعيون التي يبتسـم بعضها، ويفيض بعضهـا. مائدة جعلت قلـوب المؤمنين ترتجـف. تثني على الكريم سبحانه على هـذه اللوحة الأخاذة، وكان أكثرهـم شـكرًا هـو عبـدالله ورسـوله عيسـى ﷺ، وكيـف لا يكـون كذلـك، وربـه يمطـره بمعجـزات لم تكن لمـن قبله.

شبع الجميع وهم يودون لو لم يشبعوا، أمـا المائدة فلم ترفـع، ولـم يكن لها فضـلات أو بقايـا أو نفايات. تلاشـت بعد أن شـبع الجميـع، وامتـلأ الجميع، ثم نهض المسـيح، وهو يشـكر خالقه وخالـق المائدة، وتوجه لقومـه راجيًا إياهم أن يؤمنـوا، ويلتزمـوا بتوحيـد ربهم، ثـم أخبرهم بمصير مـن يكفر بالله، بعـد أن رأوا ولمسـوا وأكلوا معجـزة لم تكن لغيرهم، وكأنـه يقول لهم: إن موائـد الجنة أفخر وألـذ. فأطاعه المسـلمون النصارى، وانسـحب الكثير من الإسـرائيليين، وكأنهم يقولـون: يا له من سـاحر.

حـزن المسـيح لكفرهم، لكنـه لم ييأس ظـل يدعوهـم للتوحيـد، يفقههم في دينهـم. لكن عيونًـا كعيون الشـياطين كانـت تلاحقه وترصـد حركاته.





المسيح وأمشاط الحديد

ظـل عيسـى ابن مريـم ﷺ يفقه شـعبه الإسـرائيلي في دينهـم.. يأمرهم بتطبيـق التوراة.. ينهاهم عن الشـرك بـالله وعبادة غيره.. ينهاهم عـن صنع تماثيل للمخلوقـات، التـي تـدب علـى البر، أو تسـبح فـي البحـر، أو تطير في السـماء. حذرهـم من عقـوق الوالدين والربـا والزنـا وأكل الخنزير.

كان المسـيح باختصـار مصدقًا للتـوراة، متبعًا لأحكامها، فبـدأ التضييق عليه، حيـث لاحـظ الحاخامـات تزايـد صحابتـه، وانتشـار دعوتـه.. لم يكونـوا ضـد انتشـار التوحيـد.. كانـوا ضـد تفعيل أحـكام التـوراة، التي تنهـى عن الزنـا والربا

والمكـوس وأكل أمـوال الناس بالباطل، لأنهم يتعايشـون على جيـوب المغفلين والأتبـاع السـذج، لذا قـرروا إزاحة المسـيح عـن طريقهم.

اتهمـوا أمـه، وقذفوهـا فلـم يفلحوا.. شـوهوا سـمعته فلـم يفلحـوا.. لـم يبق لديهـم سـوى حـل واحد، هو اسـتعداء الحاكـم البيزنطـي الوثني السـفاح، الذي قتـل زكريـا ويحيى، ولما بـدأت المضايقات قرر المسـيح أن يشـكل من أصحابه فريقـا، يعتمـد عليـه بعد الله في نشـر الدعـوة، فقـال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟

سـكتت الأغلبيـة خوفـا، ونطـق اثنـا عشـر رجـلا، وقالـوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لم يكتـف هـؤلاء الحواريـون بذلـك.. توجهـوا نحـو الله، يشـهدونه علـى بيعتهـم، ويقولـون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، لكـن عيونـا كعيون الشـياطين كانت تلاحقهـم، وترصد حركاتهم وتدرسـها، ثم تتوجـه لنائب الإمبراطـور البيزنطي، لتقـدم تقاريرهـا الشـيطانية له.. قدمـوا تقارير تديـن المسـيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتتهمه بالسـعي للسـلطة، وإذ بالحاكـم الوثنـي يصـدر أمـرا بالقبـض عليـه لإعدامـه.. انتشـر العسـكر يسـتجوبون أنصـار المسـيح الموحديـن، فخلت شـوارع القدس مـن عيسـى.. اختفى المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتوارى عـن أعين الحاخامات وسـياط العسـكر.. لـم يعـد يـراه أحـد.. فقد جمـع تلاميـذه الحواريـين وأخبرهـم بعزمه علـى الانسـحاب مـن المشـهد، ريثما يخـف الضغـط، أو يجد بلـدا بديـلا، فهو بشـر، ولا طاقـة له بهـذا البطـش الوثنـي، لذا أخـذ تلاميـذه، وصعد بهـم مرتفعا يتناوبـون في النـزول والتـزود بالطعام.

بكـت القـدس أطهـر شـبابها، وبكت مريـم حبيبهـا وابنهـا، فلم يـرف للجند جفـن، ولم تلن قلـوب الحاخامات، التـي وصف الله أسـلافها، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ظـل الأشـرار يراقبـون ويبحثـون، حتـى عثـروا علـى خاصـرة رقيقة، يمكن تسـديد طعنة للمسـيح مـن خلالها.

مـر عبـدالله ورسـوله المسـيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باضطهـاد، مر بـه المـوحـدون قبله، اضطهـاد بلـغ درجـة مفزعة لا تطـاق، وهي كشـط الجلـد واللحم بأمـواس على شـكل أمشاط، حتى قال النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن المؤمن منهم **«ليمشط بأمشاط الحديـد، مـا دون عظامـه مـن لحم أو عصـب، ما يصرفـه ذلك عن دينـه، ويوضع المنشـار على مفرق رأسـه، فيشـق باثنيـن ما يصرفه ذلك عـن دينه»**[1].

اختفـى المسـيح لكـن الوثنييـن لم يقبضـوا علـى تلاميـذه، فهـم الوسـيلة الوحيـدة للوصـول إليه.. ظل الأشـرار يرقبون بعض تلاميذ المسـيح، يتسـوقون هنـا أو هنـاك.. حاولـت إغراءهـم وتهديدهـم، فلم تجـد آذانا صاغيـة، وفي أحد الأيـام صادفوا تلميذًا من تلاميذ المسـيح، اسـمه يهـوذا الإسـخريوطي.. اقتربوا منـه.. هـددوه فلم يلن للضراء، وأغـروه فانهار للإغراء.. سـال لعابه للمبلغ الذي قدمـوه لـه، فوافق بعـد إلحاح علـى أن يدلهـم على مكان المسـيح.

لم تـرق فكـرة الوصف والإحداثيـات للحاخامـات والروم الوثنييـن.. أرادوا خطـة لا تثيـر التلاميـذ، ولا تلفـت انتباههـم. فطلبـوا أن يقودهم (يهوذا) بنفسـه نحـو المسـيح، بحيـث يدخل الغرفـة التي يختبـئ بهـا، فيداهمونها بعـده، فوافق تحـت إغراء بريـق الذهب أو الفضة، وفـي اليوم المحدد تجهـزت فرقة المطاردة العسـكرية، فجـاء يهـوذا، وطلب منهم أن يسـيروا خلفه، بمسـافة حتـى لا يراهم التلاميـذ، ثـم بدأ بالمشـي في سـاعة من الليـل متأخرة.



سـار وسـار والجنود يرصدونه.. تسـللوا كالحيات بين الصخور والأغصان.. يكمنون هنا، ويتهامسـون هنـاك.. ظلوا يصعدون، ولما أشـرفوا على المكان كان المسـيح ابـن مريـم وأصحابـه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد نامـوا.. لم يـدر بخلدهـم أن صاحبهم

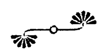
(١) صحيح البخاري (٣٦١٢).

قـد وقـع ضحية إغـراء المال.. لـم يـدروا أنه الآن فـي الطريق يقود فرقـة مطاردة، للقبض على نبيهم المسـيح، وتسـليمه للسـلطة الوثنية.

دبـت الوحـوش الشـريرة نحـو الغرفـة كالعناكـب السـامة. هنـا تقـدم يهـوذا وحـده كـي لا يثير ذعرهـم.. تقـدم ليعانق نبيـه، فيدخـل الجند، فيقبضـون عليه، أما المسـيح سـاعتها فـكان على الأرض، لكنـه كان في عالم آخـر. لـم يكن نائمًا. كان عالمًـا من المشـاعر.

اختلطـت لديه مشـاعر الحزن على فراق أمـه الحبيبة، وصحابتـه المخلصين، وأتباعه المضطهدين.. بمشاعر مختلفة تمامًا.. مشاعر السعادة والاستعداد لرحلة المعـراج النورانيـة المذهلة، فقد هبط الملاك، الذي بشـر أمه والعالم به.

هبـط جبريـل دون أن يشـعر بـه التلاميذ.. نظـر إلى المسـيح نظرة مـن يقول: حـان موعـد الرحلة يا ابـن مريم، ونظر المسـيح نظرة المـودع لأحبابـه النيام، ثم اقتـرب منـه جبريل، وأخذه، وعرج به عاليًا نحو السـماء، وفجأة اسـتيقظ التلاميذ وهـم في حالة خـوف وفزع.



وداعا أيتها الأرض

اسـتيقظ التلاميـذ واحـدًا واحـدًا علـى وقـع أقـدام شـخص، يمـد يـده نحـو وجوههـم، يتصفحهـا واحـدًا واحـدًا، على وميض السـراج. لكن الـذي أصابهم بالذهـول هـو أن المسـيح كان ينـادي نفسـه بصـوت منخفض.

لـم يكـن المسـيح.. إنه يهـوذا، والتلاميـذ ينظرون إليـه باسـتغراب. لا يدرون ما سـر تأملـه لوجوههم وهمسـه لنفسـه. تصفـح كل الوجوه، إلا وجه المسـيح، لم يعثـر عليـه.. لم يـدر أنه في الملأ الأعلى في السـماء، وبيـن الملائكة، وأن الله أنقـذه من كيـد الحاخامات وسـيوف الوثنيين.

انتهى يهوذا من تصفح الوجوه، بعد أن استيقظ الجميع.. لكن التلاميذ حدقوا به باستغراب.. لا يدرون سر تأمله لوجوههم، وهو قد رقد معهم قبل قليل.. كان الوضع مرتبكا.. ساد الصمت، وتكلمت العيون.. هم يحدقون به، دون أن يتكلموا إجلالًا له وهيبة، وهو يتساءل عن سر صمتهم.

وفجأة علا الضجيج.. داهم الجلاوزة الوثنيون المكان.. تصحبهم صلصلة السلاسل والسلاح والصراخ، يبحثون عن يهوذا الذي سيعانق المسيح المطلوب الأول للإمبراطورية البيزنطية.. علا صراخ قائد الجند، وهو ينادي يهوذا، ويبحث عنه فلا يجده، ويهوذا ينظر إليه وهو يكاد يجن، والتلاميذ ينظرون إلى يهوذا، فيزداد جنونه، وهو ينصت لصراخ التلاميذ، يقولون له: اهرب يا رسول الله، اهرب. اهرب يا عيسى، ويهوذا يقول: لست المسيح.. أين ذهب المسيح أنا يهوذا؟

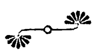
تعقد المشهد، فهناك أحد عشر شاهدًا يشيرون إليه على أنه المسيح، فأين اختفى يهوذا الخائن؟

قبض الجند على المسيح الذي أمامهم، وهم لا يدرون أنهم يقبضون على دليلهم الخائن (يهوذا الإسخريوطي)، الذي عاقبه الله، فألقى عليه آخر معجزات نبيه عيسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. ألقى عليه صورة المسيح، فتم اعتقاله، على أنه المسيح، أما المسيح الحقيقي، فعرج به جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورفعه نحو السماء، ليبقى هناك حتى الموعد المحتوم.

حزنت أمه مريم البتول، لكن الله سبحانه ربط على قلبها، ولا بد أنها قد علمت بحقيقة ما جرى فأخفته، لكن شوق الأم لحبيبها ظل حتى ماتت.. تتذكره كلما رأت محرابه وغرفة نومه.. كلما رأت ثيابه وبقايا طفولته.. كلما مرت بغرفتها الشرقية، أو بتلك النخلة التي تساقطت عليها رطبًا جنيا في ذلك المكان القصي، حيث ولدته.

عبر هذا الطريق حملته، وفي هذا الطريق المقدسي حاصرتها الألسن والاتهامات، وهنا نطق رضيعها، فانقشعت عنها غمامة الظلم والاتهامات.. هنا كان يلعب المسيح مع يحيى، وهنا كان يدرسهم زكريا.. من هنا كان يصحبها إلى بيت المقدس، وهنا فاضت عيناها، وهي تراه نبيًّا ينشر التوحيد ويدعو للعدل.

رحل عبدالله ورسوله عيسى.. توفاه الله، لكنه لم يمت، فما الفرق بين الوفاة والموت؟



المسيح بين الوفاة والموت

رحل عيسى ابن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. رفعه الله إلى السماء.. توفاه الله، لكنه لم يمت، فما الفرق بين الوفاة والموت؟

الوفاة حالة من الغياب تشبه النوم أو الإغماء، أما الموت فحالة مفارقة تامة للروح للجسد الذي يتحلل بعدها، فخالق الأنفس والأرواح سبحانه، يقول: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، ثم يبين الفرق بين الحالتين، فيقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

اختفى عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عن وجه الأرض، وبكاه تلاميذه المخلصون، وبكاه أتباعه، وأُسدل الستار على آخر أنبياء اليهود بني إسرائيل، بينما كان الجنود يسحبون يهوذا الخائن، نحو السجن على أنه المسيح.. أدخلوه في زنزانة بانتظار الحكم عليه، وبعد أيام صدر الحكم بإعدامه صلبًا.

وفي اليوم المحدد أخذ نحو الموقع، ثم شـد على الصليب، ودقت المسـامير فـي يديـه وقدميـه، ثم أنـزل في اليـوم اللاحق، ثم وضـع في غرفـة تحت الأرض على أنها قبر، ليكتشـف النـاس أن جثته اختفت.. هنا تحيـروا.. أين ذهبت جثته؟

هـل اكتشـف الرومان أنه الرجل غيـر المطلوب، فأخرجوه خشـية الفضيحة.. لا أحـد حتى اليوم يستطيع إثبات شـيء من ذلك.

اختفـى عيسـى عـن الأرض، واختفـى معـه الإنجيـل، فهـو لم يحـدد تلاميذًا يكتبـون الإنجبـل والوحـي، كمـا فعـل النبـي محمـد ﷺ مـع القـرآن، والمسـيح أيضـا لـم يأمـر بحفظ الإنجيل فـي الصدور والسـطور، كما فعـل النبي محمـد ﷺ مـع القـرآن، كمـا أن المسـيح لـم يجعـل للحافـظ الأولوية في إمامـة الصـلاة، كمـا فعـل النبـي محمد ﷺ.

اختفـى عيسـى ﷺ وهـو يعبـد الله وحـده، ويصلـي ويصـوم لله حـده لا شـريك لـه.. ويعتـرف أن معجزاتـه منـه سـبحانه.



كان مختونـًا، ولم يأكل الخنزير، كما نهـى أتباعه عن صنع التماثيل والأصنام، فمـا الـذي حـدث بعد رحيـل المسـيح وجعـل النصـارى يكدسـون التماثيل في الكنائـس ويأكلـون الخنزيـر؟ مـن الـذي أمرهـم بترك الختـان؟ وقبل ذلـك كله، والأخطـر علـى الإطلاق: مـن الذي أمرهم بعبادة المسـيح نفسـه وعبـادة جبريل معه؟

أسـئلة يجيـب عليهـا ذلـك المخبـر والسـفاح اليهودي الـذي تقطر يـداه دما، وهـو يسـوق مجموعة من الأبريـاء النصـارى، ليعدمهم بأمر من الدولـة الرومانية الوثنيـة.. مجـرم أزعجه انتشـار التوحيـد النقي.. لم يشـف غليله اختفاء عيسـى، والهـدف مـن اختفائـه قد فشـل، فها هـو التوحيـد ينتشـر، والمتآمرون يشـعرون بالإحبـاط.. هنـا لا بد مـن الانتقال للخطـة البديلة.

اختفى المسيح، ومع ذلك ظل التوحيد ينتشر، والمتآمرون يشعرون بالإحباط بعد فشل مخططهم.. هنا كان لا بد من الانتقال للخطة البديلة، وهي خطة، لا تستهدف الأشخاص، فقد ثبت أن استهداف الأشخاص واضطهادهم، يكسبهم شعبية وأتباعًا جددًا، ويحرض الناس على السؤال والاستقصاء عنهم، ثم اعتناق أفكارهم.

الخطة البديلة كانت من إبداع مجرم من شعب المسيح.. من بني إسرائيل أنفسهم اسمه (شاءول)، وهو عميل للروم، وكانت مهمته هي التجسس وملاحقة الحواريين وبقية المسلمين من أصحاب عيسى ﷺ.. يتتبعهم في فلسطين.. يلاحقهم في القدس.. في أي مكان يسمع بهم، ثم يقبض عليهم، ويشحنهم ليتم إعدامهم في دمشق، ثم ماذا؟

تعب شاءول، فكلما أعدم نصرانيًّا موحدًا على دين المسيح أسلم عشرة.. ضاعت جهود شاءول، فاجتمع مع أسياده، وقرر تنفيذ خطته البديلة، وهي نسف دين عيسى ابن مريم ﷺ من الداخل، ولن يكون ذلك إلا بنسف التوحيد، وسينفذها على خطوات:

الخطوة الأولى مرحلة يمارس فيها النفاق والتظاهر بالتقوى والورع لمدة أشهر، حتى صدقه بعض النصارى، فأقبلوا عليه يسألونه: ما الذي غيرك يا شاءول؟ ما الذي حولك من مجرم سفاح إلى ملازم للمحراب؟

هنا بدأ شاءول بالخطوة الثانية، وأزاح الستار عن مسرحيته، التي غيرت العالم.. وأطلق كذبته التي دمرت التوحيد في نفوس الملايين من المسيحيين.. قال لهم: إنني كنت ذات ليلة في الطريق إلى دمشق، أسوق مجموعة من أتباع عيسى الموحدين الأبرياء لإعدامهم، وفجأة دوى هزيم رعد، وبرق أصابني بالعمى، وزلزلني، وشلني عن الحركة، فسقطت على الأرض، وإذ بصوت يصيح بي: يا شاءول.. يا شاءول لماذا تضطهدني وأنت نبي؟

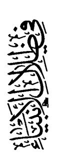
رفعت رأسي نحو مصدر الصوت، فإذ به يطلب مني أن أذهب إلى قس اسمه حنانيا.. نهضت خائفًا، ومشيت حتى وجدت من يدلني عليه، فذهبت إليه، وأخبرته بما جرى لي، فمسح عيني، فسقط منها مثل القشور، وعاد لي بصري!

انطلت هذه الكذبة على الجهلة والسذج، بينما ظل كثيرون متشككين مرتابين، هنا.

بدأ شاءول بممارسة النفاق، أي التظاهر بالتخلص من ماضيه الأسود، وكان أول ما تخلص منه هو اسمه. استبدل اسم (شاءول) باسم جديد هو (بولس الرسول). خطوة تعاطف البعض معه بعدها، وصدقوا أنه رسول.

بعدها.. بدأ بتنفيذ خطوته الثالثة، وهي الأخطر، لأنها دمرت العقيدة المسيحية حتى اليوم.





الخطوة الأخطر لشاءول

في أحد الأيام دعا شاءول النصارى المصدقين له، والمرتابين منه للاجتماع، فانطلقت الخطوات نحوه.. كانت العيون مشدودة، والقلوب تخفق بانتظار جديده، وإذ به ينطق كفرًا بكل رسالات السماء.. كفرًا بكل رسالات الأنبياء.

بصق (شاءول بولس) أمام الجمهور المتحلق حوله أكبر أكذوبة في التاريخ، فقال لهم: إنه مر بطريق دمشق مرة أخرى. ذلك الطريق الذي ادعى أن المسيح ظهر له فيه، وكان الوقت ليلًا أيضًا، وإذ بالرعد يقصف في الأجواء كتلك الليلة أيضًا، وإذ بالمسيح يظهر أيضًا ويقول له:

يا شـاءول.. يا شـاءول. اذهب لأتباعي وأخبرهم أني نسـيت، وأن كل الأنبياء قبلي نسـوا أيضًا. كلنا نسـينا أن نخبر العالـم أنني ابن الله.

انفجـر المـكان بالاحتجـاج.. بصيحـات الاسـتهجان عـلى هـذه الوثنيـة، ودبـت الفوضـى حول الدجـال، وكفر الحواريـون بهذا الإفـك، الذي ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾، لكـن النصـارى كبقيـة شـعوب الأرض.. منهـم المؤمن قـوي العقيدة، ومنهم السـاذج والأبلـه، الذيـن صدقوا هـذا الأفـاك المدعوم مـن الوثنيين، وحاخامـات اليهود، فأصبحـوا أتباعًـا له.

مـرت الأيـام فبدأ (بولس. شـاءول) الدجـال يواصـل تنفيذ مخططـه في غيبة الإنجيـل الصحيـح.. بـدأ بالعبث بأحـكام التـوراة والإنجيل.. أبـاح لأتباعه أكل الخنزيـر.. أبـاح لهـم تـرك الختـان، وفي النهايـة تمكن شـاءول مـن تصميم دين جديـد.. صمـم دينًا أقرب للوثنية، فهـو متعدد الآلهة.. دين لا يبالي بالذبح باسـم الله، ولا بـأكل الخنزيـر، الذي حرمه المسـيح نفسـه، ولـم يبال بسـنن الأنبياء منذ إبراهيـم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهـي الختان، لا سـيما والكتاب المقـدس كثيرًا ما يعيـر الوثنيين بأنهـم (غلف).

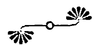
ظـل (شـاءول. بولـس) يتوسـع في البـدع لدينـه الجديـد، ليختـرع لهـم إلهًا جديـدًا، ويضيـف إلهًا ثالثًا هو المـلاك جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل وتتكاثـر الأناجيل يومًا بعـد يوم مـن إنجيل واحـد إلى أكثـر من مائتـي إنجيـل متناقضة.

الكارثـة هنـا أنها تحتوي على أكثر من عشـرين ألف خطأ باعتراف القساوسـة اليوم[1].

---

(١) أجل (٢٠٠٠٠ خطأ) في كتاب يُفترض أن يبقى نقيًّا كما أقرت بذلك هيئة من الخبراء الإنجليز قامت عام (١٧٢٠) بإحصاء عدد الأخطاء في (الكتاب المقدس)، فقدرتها بأكثر من عشرين ألف خطأ. ذُكر ذلك في مقال نشر في مجلة (Awake) عدد سبتمبر من عام ١٩٥٧م. انظر تفاصيل أخطر حول تلك الأخطاء في كتيب: (خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس).

استمر الحواريون تلاميذ عيسى الأنقياء على منهجه بعد رحيله.. استمروا بنشر التوحيد هم وتلاميذهم، وقد كانوا يشكلون الأكثرية النصرانية الساحقة لأكثر من ثلاث مئة عام، حتى جاء ذلك اليوم الأسود، الذي حكم فيه إمبراطور بيزنطي، اسمه (قسطنطين)، وهو الذي بنى القسطنطينية، وسميت المدينة باسمه، فقد كانت أمه المسماة (هيلانة) قد اعتنقت عقيدة (شاءول بولس)، وإذ بابنها قسطنطين يقلب المسيحية، ويغيرها بحد سيفه.



الدين الذي أطفأ الأنوار في أوروبا

ظل (قسطنطين) على عقيدته الوثنية، يعبد آلهة وأصنامًا متعددة.. إلهًا للحرب، وإلهًا للمطر، وإلهًا للخصب، وهكذا، لكنه تعاطف مع عقيدة أمه وهي عقيدة (شاءول)، وبدأ يناصر اتباعها، لأنها لا تتناقض مع وثنيته ذات الآلهة المتعددة.

وفي أحد الأعوام، وبالتحديد في عام ثلاث مئة وأربع وعشرين (٣٢٤م)، وبعد أن انتشرت النصرانية الإسلامية التوحيدية (عقيدة المسيح وعقيدة كل الأنبياء) انتشارًا كبيرًا قرر هذا الإمبراطور أن يفرض عقيدة أمه (الأرثوذكسية) بالسيف، ولكن بطريقة ذكية توحي بالإنصاف، لأنه يشعر بالقلق تجاه الأكثرية المسيحية، التي تؤمن أن الله واحد أحد، سبحانه لا شريك له.. لم يلد ولم يولد، وأنه ليس كمثله شيء.

قرر قسطنطين أن ينصر عقيدة أمه، لذا أصدر أمرًا بجمع قساوسة الأرض في مدينة (نيقية) الواقعة على بحيرة نيقية على أرض الأناضول، ليتباحثوا ويدرسوا ويتناقشوا، ثم يقرروا أي العقيدتين أصح: عقيدة المسيح، أم عقيدة بولس الدجال؟ انطلق رسل الدولة البيزنطية.. يعبرون الفيافي والقفار، ويشقون

البحار والأنهار.. يحملون رسائل الإمبراطور إلى كبار قساوسة ورهبان العالم في ذلك الوقت.

وصلت الرسائل، فرحب بها القساوسة النصارى، وشدوا الرحال نحو نيقية ظنًا منهم أن مؤتمرًا علميًا حرًا في انتظارهم.. أمضوا أيامًا وأشهرًا للوصول.

وفي شهر مايو من عام ٣٢٥ للميلاد، وصل أكثر من ألف ومئتين من قساوسة الأرض، فبدأت جلسات المؤتمر في العشرين من مايو، وأدلى كل عالم وراهب بدلوه في أخطر قضية مسيحية وهي هل المسيح إله أم بشر؟

تكلم أتباع (شاءول بولس) وهم الأرثوذكس وكان ق بثرثرة عجزوا فيها عن تقديم دليل على ألوهية المسيح، ثم تكلم أتباع عيسى ابن مريم فأفحموهم، وأثبتوا أن المسيح مجرد نبي ورسل كريم، ولا يتميز عن بقية الرسل إلا بمعجزة خلقه. وكان إمام هؤلاء الموحدين هو العالم والقس (إريوس).

ظن الجميع أن المسألة قد حسمت للتوحيد، ولكن.

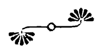
صُدم قسطنطين بنتائج المؤتمر، فقد كان ألف قس، وهم الأغلبية الساحقة على دين المسيح، يقولون: إن الله واحد أحد، لا شريك له، ولا ولد له، وأن عيسى نبي من الأنبياء، وخلق من مخلوقاته، وكان إمام هؤلاء الموحدين قس اسمه (إريوس)، أما الأقلية فكانوا على دين (شاءول بولس) الأرثوذكسية، أي يقولون: إن عيسى ابن الله. وكان قائدهم هو بابا الإسكندرية، واسمه (الكسندروس الأول).

صدم قسطنطين الوثني بنتائج مؤتمر نيقية.. تلفت فوجد أن الأغلبية الساحقة عكس توقعاته.. كلهم موحدون على دين التوحيد.. دين عيسى ابن مريم، وحدق بالأقلية، فإذا هي على دين شاءول، الذي اخترع فكرة أن عيسى ابن الله، وسمى نفسه (بولس الرسول).

غضب الإمبراطور وهو يرى دين أمه دينًا للأقلية، وبعد انتهاء المؤتمر قرر إرغام الأكثرية على دين (بولس)، وكأن النصرانية اختراع بشري، يخضع لمزاج الحاكم.

أصدر أمرًا بملاحقة الأكثرية، الذين لا يعترفون بألوهية المسيح، وأشهرهم القس (إريوس)، فانطلق الجند لمطاردتهم، وبدأت محاكم التفتيش الفظيعة، تبحث عن كل من يقول: لا إله إلا الله. لتبطش به سحلًا ونحرًا، وطالت المطاردات والتصفيات اليهود والفلاسفة أيضًا؛ لتدخل أوروبا عصور ظلمات وقمع، لا مثيل لها، حتى في العصور الوثنية.

عصور لم تفق منها إلا على يد محمد ﷺ.



عصور أوروبا المظلمة

على يد الطاغية الوثني (قسطنطين) ولدت أول دولة مسيحية شاءولية، وبقوة السيف بدأ فرض دين (شاءول بولس) الأرثوذكسي، ومعه بدأت عمليات إحراق الكنائس المخالفة للأرثوذكسية، ونفذت الإعدامات بحق المثقفين والفلاسفة، وسالت دماء الأبرياء، فقسطنطين هو أول حاكم لأول دولة تحكم باسم المسيح. هي أول دولة تنفذ أمر المسيح الذي يقول في أحد الأناجيل: (أعدائي هم الذين لا يرضون أن أكون ملكًا عليهم. هاتوهم واذبحوهم قدامي).

بل إن قسطنطين قام عام (٣٣٥م) ببناء عاصمة مسيحية أرثوذكسية على أنقاض مدينة (بيزنطة) الوثنية، وسماها (القسطنطينية) حيث هدم كل المعابد فيها، ولم يسمح إلا ببناء الكنائس الأرثوذكسية، التي تدين بدين أمه، وهو دين (شاءول بولس).



في هذا التاريخ بالتحديد، وانطلاقًا من القسطنطينية. قامت هذه الدولة بإدخال أوروبا في عصور الظلام، التي تسمى القرون الوسطى. عصور امتدت لألف عام، فاضطر المسيحيون الموحدون إلى الانزواء في الصوامع والانكفاء على الذات، أو الهروب، أو التظاهر بالأرثوذكسية.

ظل هذا الحكم مرعبًا للمسيحيين الموحدين ولليهود وللفلاسفة، حتى بعث الله النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، حيث اعتنق الكثير من الموحدين الشرقيين الإسلام، وشعر اليهود بالأمان. أما في أوروبا، فأوروبا ظلت غارقة في الظلام، ولم ترفع رأسها منه إلا بعد عام ألف وأربع مئة وثلاث وخمسين للميلاد (١٤٥٣م) على يد حملة القرآن.

هذا العام بالضبط هو الذي حدده المؤرخون، والمثقفون الأوروبيون لبدء عصر النهضة الأوروبي، وهو بالتحديد تاريخ تحول القسطنطينية، من أول عاصمة للمسيحية، إلى عاصمة إسلامية، حيث تحولت إلى منار لكل أوروبا، بعد أن كانت قبوا لمحاكم التفتيش الأرثوذكسية.. كانت نفقًا كنسيًّا قبعت فيه أوروبا أكثر من ألف عام.

ولذا أرخ المؤرخون الأوربيون عصر النهضة بدخول القرآن للقسطنطينية، حيث انطلقت ثورة على المسيحية للمسيحية نفسها. ثورة قادها قس ألماني يدعى (مارتن لوثر)، والذي تأثر بتعاليم الإسلام.

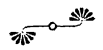
تأمل (لوثر) الإسلام فلم يجد فيه رجال دين. لا بابا ولا حاخامات أو كرادلة أو بطارقة أو قساوسة، أو حتى رجال دين يبيعون صكوك غفران. أو كهنة يغفرون لمن يشاءون ويحرمون من يشاءون.

هنا تمرد لوثر على رجال الدين، فرفض وجود بابا.. رفض أن يكون للقس الحق في أن يغفر للناس، بل أراد أن تكون قراءة الكتاب المقدس متاحة للجميع، كما يتاح القرآن للجميع، وليس حكرًا على القساوسة.

لكن هذا الإنجاز العظيم كان ناقصًا.. كان قاصرًا على نقد آلية عمل الكنيسة، لكنه لم يصل إلى أعماق الدين المسيحي. لم يحاول البحث عن الإنجيل الأصلي، أو الأقرب للصواب، فالله أنزل إنجيلًا واحدًا، وهم الآن لديهم أكثر من مائتي إنجيل، يناقض بعضها بعضًا، وكل إنجيل منسوب لمؤلف من البشر غير الآخر. فسبحان من حفظ القرآن بنفسه، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

إنه القرآن الذي أيقظ أوروبا، فتخلت عن سلطة رجال الدين والتخلف. الذين يأكلون أموال الشعوب باسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يقولون، وحاشا المسيح الذي عاش مناضلًا أن يكون كما يصوره هؤلاء.

المسيح هو أخو محمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وربهما واحد، ودينهما واحد، وهو التوحيد، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ورسالتهما بعد التوحيد هي العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.





محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فترة من الرسل

على يد الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين) وبقوة السيف، بدأ فرض دين (شاءول بولس) الأرثوذكسي، ومعه بدأت عمليات إحراق الكنائس المخالفة للأرثوذكسية، كما نفذت الإعدامات للمثقفين والفلاسفة، وسالت دماء الأبرياء على يد أول دولة للمسيحية، ولم يسمح إلا ببناء الكنائس الأرثوذكسية.

في هذا التاريخ بالتحديد، وانطلاقًا من القسطنطينية.. قامت هذه الدولة بإدخال أوروبا في عصور الظلام، التي تسمى القرون الوسطى.. عصور امتدت لألف عام، فاضطر الموحدون إلى الانزواء في الصوامع والانكفاء على الذات، أو الهروب، أو التظاهر بالأرثوذكسية.. ظل هذا الحكم مرعبًا

للمسيحيين الموحدين ولليهود وللفلاسفة، حتى بعث الله النبي محمدًا ﷺ، حيث اعتنق الكثير من الموحدين الإسلام، وشعر اليهود بالأمان، وذلك بعد فترة من الرسل، أي بعد فترة دامت أكثر من ست مئة عام من رفع آخر الأنبياء الإسرائيليين إلى السماء، وهو المسيح ﷺ.

وقد كان ذلك بعد أن بشر أصحابه وشعبه الإسرائيلي بنبي يأتي من بعده، هو النبي محمد ﷺ فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

رفع المسيح وهو حزين لجحود قومه وتكذيبهم له.. بعده خلت الأرض من الرسل، وازداد تشظي الديانات السماوية، حتى اختلط بعضها بالوثنية.. نسي أهل الأرض خالقهم العظيم.. خالق السموات والأرضين، وتعلقوا بأخشاب وأحجار وأشجار وفئران وحيات وأبقار، يعبدونها من دون الله،

كانت الجزيرة العربية قد تحولت إلى الوثنية بالكامل.. حتى مكة معقل التوحيد.. أصبحت أسيرة للوثنية، أما كعبتها التي بناها إبراهيم ﷺ، فكانت تئن من الشرك، حيث قام الوثنيون بتحويلها إلى طاولة، توضع على ظهرها أصنامهم، التي بلغت ثلاث مئة وستين صنمًا.

في تلك الفترة كان في مكة فتاة حزينة على فراق حبيبها، وزوجها الذي توفي وتركها وهي في أشهر حملها الأول، مما جعل حزنها يزداد على جنينها الذي سيولد يتيما، ولن يرى في هذه الدنيا أباه، لكن وفي إحدى لياليها تلك رأت في نومها شيئًا أبهجها.

رأت نورًا عظيمًا ينبعث منها، وكأنه شمس، أشرقت على الجزيرة العربية، حتى أضاءت قصور الشام وقلاعها[1].. استبشرت الفتاة (آمنة بنت وهب)

---

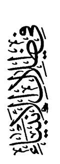
(١) وهو حديث قوي، له عدة طرق، رواه أحمد (٢٢٢٦١)، وغيره بألفاظ منها: «رأت أمي أنه يخرج منها نور، أضاءت منه قصور الشام».

بتلك الرؤيا، واطمأن قلبها على حملها، ولما أصابتها آلام المخاض القاتلة.. أذهلها الألم عن الدنيا، ولم يخفف تلك الآلام إلا رؤية طفلها الجميل محمد بن عبدالله بن عبد المطلب.. يوضع بين يديها الحانيتين.

من المولد إلى التكذيب

انزاحت آلام (آمنة) بجمال محمد، كما انزاحت آلام مريم عند نخلتها، وكان من عادة بعض بيوت مكة استرضاع أطفالهم في البادية، فأرسلوه مع مرضعة طيبة اسمها حليمة السعدية، حيث بادية هوازن الجميلة، ثم عاد إلى آمنة ليؤنس وحشتها، لكن فرحته بها لم تدم.

ماتت آمنة مخلفة جرحًا في قلبه لم يندمل، فتولى رعايته جده عبد المطلب، ليتجاوز سن المراهقة دون أن يعرف بطيش أو سفه أو وثنية.. اشتغل برعي الغنم في شبابه مقابل دراهم معدودة، ومارس في شبابه السفر للتجارة.



لكن سفره الأبعد، والأطول، والأجمل، فكان عبر معارج التأمل، والسياحة في الكون، والتفكر في خلق الله سبحانه. كان محمد موحدًا ينفر من الأصنام، ويأبى عبادتها، ولما تجاوز العشرين بسنوات، أعجبت به أعقل امرأة في قومه.

امرأة اسمها خديجة بنت خويلد، وكانت أكبر منه سنًّا، فعرضت عليه الزواج أو عرض عليها، وتحققت أمنيتها فرزق منها بأربع زهرات: رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة.

اقترب محمد من الأربعين، فأصبح أكثر تأملًا، وحبًّا وتوقًا للخلوات بربه.. يبث مناجاته لله وحده، بعيدًا عن ثقافة الأصنام، وإذ به يرى أشياء، ويسمع

أصواتًا لا يجد لها تفسيرًا، مما حدا به إلى البحث عن مكان يمارس فيه مناجاة خالقه، بعيدًا عن لوثات الوثنية.

وجد غارًا في جبل اسمه حراء، فجعل منه مكانًا للتعبد، يقضي فيه أيامًا وليالٍ، وفي ليلة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين قبل الهجرة، وبينما كان في الغار، إذ به يرى طيفًا يدخل عليه، ويعانقه، ويأمره قائلًا: ﴿اقْرَأْ﴾.

كررها هذا الزائر الغامض ثلاث مرات، ومحمد ساكت لا يدري ما يقرأ، ثم تلا الشخص الغريب عليه كلام ربه قائلًا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ثم أفصح له عن هويته وعرفه بنفسه وأخبره أنه الملاك جبريل، ثم بشره بالنبوة!.

انحدر محمد ﷺ خائفًا من الجبل، يتصبب عرقًا وحيرة، ولما دخل على حبيبته، طلب أن تغطيه، وأخبرها الخبر، لكن الزوجة العاقلة استبشرت خيرًا، وقدمت له أكبر دفعة معنوية. حين بشرته بأن الله لن يخزيه، لأنه رجل فذ في أخلاقه. صادق في حديثه. يكرم الضيف، ويغيث الملهوف، ويعين الناس على مصائبهم. قائلة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1].

غفا محمد ﷺ على تلك الوسادة الفاخرة من الخلال، والصفات الحميدة، لكن خديجة لم تكتف برفع المعنويات، فقد نهضت في الصباح، وأيقظت زوجها وطلبت منه أن يصحبها، فوافق فتوجهت به إلى شيخ كبير من أقاربها، وكان من العباد النصارى الموحدين، واسمه ورقة بن نوفل، فأخبره محمد ﷺ بما جرى له، فبشره ورقة أن الذي هبط عليه.. هو الملاك الذي نزل على النبي موسى ﷺ.

---

(١) صحيح البخاري (٣).

بعـد أيـام. ظهر المـلاك جبريل ثانيـة لمحمد، وبشـره بالنبوة مجـددًا، فانطلق ﷺ إلـى بيتـه، وأخبـر زوجتـه الطيبة خديجة فأسـلمت رضي الله عنها، وأسـلمت بعدهـا بناتـه، وابنه بالتبني زيد بن حارثـة، وصديقه أبو بكر الذي سـمي بالصديق لتصديقـه مباشـرة، فهـو لم يعـرف عنـه كذبًا، وبعد أسـابيع نـزل المـلاك جبريل فأمـره بإعـلان نبوته والبدء بقبيلتـه، وتلا عليه قـول الله تعالى له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

نهـض النبـي محمـد ﷺ مباشـرة وتوجـه نحو المسـجد الحـرام، لكنه لـم يذهـب للكعبـة، بـل توجه إلى جبـل صغير على ضفاف المسـجد اسـمه جبل الصفـا، ثـم صعـده وأشـرق عليـه كالشـمس، وبـدأ يهتـف بفـروع، وأسـر قبيلته قريـش ويقول:

«**يا بني فهر.. يا بني عدي**». إلخ. إلخ.

أنصـت النـاس للصـوت المرتفـع، فتداعـوا نحـوه وأقبلـوا، فـإذا هـو صوت الرجـل الصادق الذي كانـوا ينادونه بلقـب انتزعه من احترامهـم وقلوبهم.. لقب الأميـن، ومـا دام الأمين هو مـن يهتف، فلا بـد أن الأمر خطير، لـذا أقبلوا وكلهم شـوق لخبره، وتحلقـوا حول الجبل، لدرجة أن (الرجل إذا لم يسـتطع أن يخرج، أرسـل رسـولًا لينظر ما هـو) وعندما اصطك الجبـل بحلقة من العيـون المفتوحة والقلـوب المرتجفـة والآذان المنصتـة. لم يخبرهـم محمـد الأمين بالأمر؟

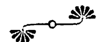
بل طرح عليهم أولًا سـؤالًا، لينتزع من إجابته اعترافًا موثقًا بمئات الشـهادات أنـه أصدقهـم علـى الإطلاق، فهتـف بهم وقـال: «**لو أخبرتكـم أن خيـلًا بالوادي تريـد أن تغير عليكـم، أكنتم مصدقي؟**».

عندهـا هتفـوا جميعًا: (نعـم)، ولـم يكتفوا بنعـم.. قدموا لابنهم محمد سـبب ثقتهـم به. قدمـوا له تزكيـة بالإجماع قائليـن: «ما جربنا عليـك إلا صدقًا».

هنا أعلن النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطورة رسالته والأمانة التي يحملها، فقال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». وإذ بعمه الشقي أبي لهب، والذي زكى قبل ثوان ابن أخيه محمدًا أعظم تزكية. إذ به يصرخ كالأحمق، ويقول: «تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟»[1].

انتفض بعده عشاق الظلام وسدنة الأصنام فرفضوا التوحيد، وأولهم عمه هذا. صاحب الاسم الوثني: (عبد العزى بن عبد المطلب) الملقب بأبي لهب، وتابعه حاقد من أقرانه، يكنى بأبي جهل، لكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكف عن الدعوة.. أمضى معهم ثلاث سنوات مريرة من الدعوة والمعاناة، لم يسلم خلالها إلا عشرات.

حينها أدرك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن بيئة مكة الوثنية طاردة، فتوجه في دعوته للخارج.



أول شخص يشيد دولة بعقد

أدرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ثلاث سنوات مريرة من الدعوة للتوحيد والعدل: أن بيئة مكة الوثنية طاردة، فتوجه بدعوته للخارج عن طريقين.

إما التوجه بنفسه للمدن القريبة من مكة كالطائف.

أو انتظار القادمين من خارج مكة، لأداء الحج أو العمرة.

كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يبصر الجميع بالتوحيد.. ينشر الوعي بينهم، لكن عمه (أبا لهب) لم يتركه، ولم يكتف بتكذيبه.. ظل يلاحقه كظله.. يشوش عليه.. يكذبه، ويؤذيه بألفاظ بذيئة، وهو لا يلتفت إلى ذلك الظلامي الحاقد.

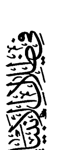
---

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٠).

يئس أبو لهب وأمثاله من الطغاة من إيقاف دعوته، فعرضوا عليه المال والمنصب والنساء، كي يتراجع، لكنهم كمن يطلب من الشمس أن تعود من حيث أتت.. ظل صامدًا، حتى تفاقم حقدهم؛ لدرجة أن حاول طاغوت اسمه عقبة بن أبي معيط أن يقتله خنقًا بثوبه، وهو ساجد لربه عند الكعبة، فأنقذه أبو بكر، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾.

ومرة أراد الطاغوت الآخر (أبو جهل) إهانة النبي ﷺ، فطلب إحضار مشيمة ناقة، ليلقوها على ظهره وهو ساجد داخل المسجد الحرام، فعلمت ابنته فاطمة بذلك، فأقبلت حزينة حتى أزاحتها عن ظهره[1].

هكذا أفقدهم حقدهم احترام ميزتهم بين العرب وهو المسجد الحرام، وبعد عشر سنوات من المعاناة والتكذيب كثر أتباع النبي ﷺ، لكنه لم يشكل منهم ذئابًا منفردة، ولا كتائب للانتقام، وتصفية الخصوم، ولم يحاول القفز على السلطة.. ظل يستخدم سلاحه الوحيد.. الكلمة.. القرآن.. الإقناع.



بعد عشر سنوات ظهر النور في نهاية النفق الوثني.. قدم رجالات من مدينة يثرب للحج بعد عام أسود كبدتهم الوثنية فيه خسائر فادحة.. جراء الشحناء بينهم والثارات، وكانوا قد رفضوا التوحيد على مدى العشر سنوات الماضية، لكن جراح الجاهلية جعلتهم ينصتون للنبي ﷺ هذه المرة بقلوبهم، فوجدوا رسالة الإسلام رسالة تصالحية ستلتئم بها جراحهم النازفة.. رسالة تدعو للتوحيد والعدل والسلم الاجتماعي، مما جعلهم يبايعونه، ويعقدون معه اتفاقًا ملزمًا له ولهم.

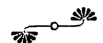
اتفاق بنى محمد ﷺ على أسسه دولة الإسلام، ليكون أول شخص في التاريخ يشيد دولة بالكلمة.. بالعقد بالمواثيق، دون أن يحمل حتى سكينًا.

---

(١) قصة أبي بكر رواها البخاري (٤٨١٥)، وقصة فاطمة رواها مسلم (١٨٩٤) والبيهقي (٢-٢٨).

بايعـه أهـل يثـرب علـى أن يكـون زعيمهـم، ولكـن بشـرط أن يهاجـر إليهم، واشـترط عليهـم أن يدافعوا عنه وعن دينه ورسـالته، التي لـم تكـن للتوحيد فقط، بـل رسـالة للتوحيد والعـدل والسـلام الاجتماعي.

وبعد عامين من ذلك اللقاء.. جرى أعظم حدث بعد البعثة.



الإسلام يجعل يثرب الثارات مدينة للحب

عـاد زعمـاء يثـرب إلى يثـرب، بعـد اتفاقهـم مـع النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخاطبوا قومهـم بالاتفـاق والمعاهـدة معـه، فاقتنـع أكثرية أهل يثـرب من قبيلتـي الأوس والخـزرج ووافقـوا علـى اسـتقباله ونصرته، فقـام النبي القائـد محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعـداد الخطـة والترتيبـات لمغـادرة مكـة، برفقـة صاحبـه أبي بكـر الصديـق، وبشـكل سـري، لأن طواغيـت قومه الوثنيين علمـوا بأمر الهجرة، فقـرروا اغتياله قبـل أن يهاجـر، لكـن خطة الهجـرة العظيمة كانـت خطة بالغة الإحكام، طاشـت بسـببها ضربـات قريش فـي الهواء.

فـي البدايـة انتقى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبلًا يقـال له جبل ثـور للاختباء.. انتقـاه بطريقة ذكيـة، فطريـق يثـرب يقـع فـي الشـمال، والجبـل فـي الجنـوب، ولمـا انطلـق لم يسـلك طريـق القوافل، بل سـلك طريق السـواحل، وهكذا حتـى وصل، ولما وصل اسـتقبله المسـلمون بالسـلاح تعبيرًا عن الفداء، لكنه ظل متمسـكًا بسـلاح الكلمة، ورسـالة التسـامح.

بداية غير اسـم يثرب الكئيب إلى اسـم صـار علمًا على كل المدائن.. سـماها (المدينـة)، لـم يبـدأ ببنـاء قصر له، بل بـدأ ببناء المسـجد.. منبع التوحيـد، ومنارة الوعـي.. يجتمـع فيـه الرجال والنسـاء خمس مرات، بعـد أن يتطهـروا، ويطهروا

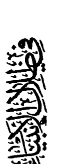
ثيابهم.. يتلقون فيه دروسًا عقدية وأخلاقية وتربوية واجتماعية واقتصادية، بل كان المسجد بيت من لا بيت له، ومأوى من لا مأوى له من المهاجرين الفقراء.

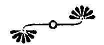
كان النبي ﷺ بلا زوجة بعد رحيل خديجة لأكثر من سنتين، لذا بنى له غرفة متواضعة ملاصقة للمسجد.

قام النبي عليه السلام بعد ذلك بخطوة غاية في الرحمة والعظمة، وهي المؤاخاة بين أهل المدينة والمهاجرين.. إخوة فاقت إخوة النسب، لدرجة أن المهاجر يرث الأنصاري، والعكس، فهل كان ذلك يعني إهمال بقية الشعب من الوثنيين واليهود، وإقصاءهم؟

إطلاقًا، فتلك إخوة عقيدة، أما بقية الشعب فكانوا محط اهتمامه، حيث قدم ﷺ ثقافة تسامحية، تجاه مكونات شعبه المتنوعة، فهناك أقليات وثنية، وقبائل يهودية عديدة، متحصنة في حصون منيعة.

وإذ بالنبي ﷺ يشكل منهم نسيجًا وطنيًا متناغمًا ومتآلفًا، ليقدم ولأول مرة في التاريخ مفهوم (المواطنة)، حتى قال أحد الصحابة: (كان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون،.. فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم)، لكن ذلك أجج غضب طواغيت الوثنية الإقصائيين في مكة.





حكمة قيادية لا مثيل في احتواء الآخر

قال أحد الصحابة: (كان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاطًا: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ، ومنهم المشركون

الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون،.. فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشرك)[1].

أراد القائد الحكيم ﷺ استصلاحهم لا تفريقهم.. استصلاحهم لا زرع العداوة بينهم، بل كان النبي القائد محمد ﷺ. يتعامل مع اليهود في شأنه الشخصي بطريقة بالغة الود، لدرجة أنه كان يسرح شعره على طريقتهم، ومع ذلك قابله هؤلاء الوثنيون واليهود بالأذى والسب والتطاول، حتى قال أحد الصحابة: (كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جل ثناؤه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

بل بلغ القرآن درجة غير مسبوقة في بث روح التسامح بين شعب دولة القرآن، وذلك حين أمر نبيه بالصفح، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثقافة رائعة، أشرقت على يثرب.. أنستها دماءها، التي فجرتها الثارات الوثنية الجاهلية لقرون، من أجل كلمة أو بعير أو حصان.

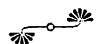
---

(١) سنده صحيح. أرسله البيهقي (٣/ ١٩٧)، ووصله أبو داود (رقم٣٠٠٠)، ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك، عن أبيه. والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٠٠)، فالزهري وعبدالرحمن تابعيان ثقتان وشعيب ثقة ثبت من أثبت الناس في الزهري. التهذيب (٤/ ٣٥١): وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين. التقريب (١٧٦)، وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور (الذهلي).

إنجازات راقية ومتمدنة، أصابت زعماء قريش بالجنون.. خاصة حين تجاهل ﷺ مراراتهم وقمعهم له على مدى ثلاثة عشر عامًا، فمنذ أصبح قائد دولة لم يفكر يومًا بالانتقام ممن ظلمه، بل قابل صلف قريش بالتسامح.

حمى قوافلها، وسمح لمواطنيه باستقبال طواغيتها، الذين اضطهدوه، واضطهدوا أصحابه: كأمية بن خلف، وأبي جهل، الذي دخل المدينة فلم يمس أحد منه شعرة، بل لبى ﷺ طلبه، وحصل على مراده، ورجع لمكة آمنًا.

جن جنون قريش، فحاولت إفساد هذا الإنجاز الحضاري في المدينة.. قرر طواغيت مكة خلق جيوب خيانية، وخلايا إرهابية وثنية، داخل جسد دولة النبي ﷺ.. أرسلوا رسالة سرية لزعيم الأقلية الوثنية، ويدعى (عبدالله ابن سلول) يهددونه فيها أنه إن لم يطرد محمدًا وصحبه فستغزوهم قريش بجيش لا قدرة لهم على صده، فجهز ابن سلول كتيبته، وتسلحوا واستعدوا، لكن تلك الرسالة والتحركات وصلت لقائد الدولة ﷺ.





إبداع النبي ﷺ لمفهوم (المواطنة)

حين تكون القيادة عادلة وحكيمة، يصبح الشعب عيونًا للوطن.. علم النبي ﷺ برسالة طواغيت قريش الوثنيين التحريضية، واستجابة الشريحة الوثنية من شعبه لها، وعزمهم على الخيانة والتمرد، فلم يستبشر بما حدث، ويستغله لتصفية ابن سلول وبقايا الوثنيين.

كان أرقى من ذلك بكثير، لدرجة أن ابن زعيم الوثنيين عبد الله ابن سلول جاء غاضبًا لله ورسوله ﷺ وعارضًا قتل أبيه المشرك، والتخلص منه، نظرًا لخياناته، وقائلًا: (يا رسول الله، والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه؟).

وإذ بالنبي محمد ﷺ يكشف عظمة القيادة ورحمة النبوة.. لم يفرح بتلك الكلمات، للتخلص من رأس الخيانة، بل حول حياة ذلك المنافق إلى ربيع داخل دولة القرآن.. حين هدأ ابنه المؤمن، وقال له: «**لا، ولكن بر أباك، وأحسن صحبته**»[1]، ثم توجه ﷺ إلى ابن سلول وكتيبته الخيانية، فخاطبهم من منطلق المواطنة الراقية، وقال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)[2].

فشلت محاولة طواغيت قريش الوثنيين، فانتقلوا للخطة البديلة وهي تحريض القبائل اليهودية، وأرسلوا لهم رسائل تهديد، قالوا فيها: (إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء)[3]، فعلم ﷺ بوصول تلك الرسالة، وترحيب اليهود بها.

هنا اختلف موقف القائد ﷺ، فاليهود ليسوا أهل البلد، بل هم ضيوف لاجئون، ومع ذلك لم يستغل الفرصة لطردهم، أو اضطهادهم كما فعلت بهم الأمم التي لجأوا إليها على مدار التاريخ، بل تعامل ﷺ معهم كما تتعامل الدول الراقية مع اللاجئين، بل وأرقى.

توجه إليهم قبيلة قبيلة، ولم يتركهم حتى وقع معهم وثيقة مواطنة تكفل

---

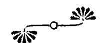
(١) سنده قوي رواه البزار (٧٩٧٨): حدثنا محمد بن بشار وأبو موسى حدثنا عمرو بن خليفة حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وابن عمرو بن علقمة حسن الحديث من رجال الشيخين وابن خليفة قال عنه البزار ثقة، والبقية ثقات.

(٢) صحح إسناده الإمام الألباني في كتابه صحيح سنن أبي داود (٢/ ٥٨٢ رقم ٣٠٠٤)، فقد قال: صحيح الإسناد. ولمزيد من التفصيل راجع كتابي الصحيح من أحاديث السيرة.

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

كافة حقوقهم وتحافظ في الوقت نفسه على سيادة الدولة التي يقيمون فيها.. وثيقة ملزمة للطرفين.

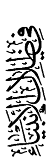
هكذا أفشل النبي القائد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل خطط الوثنيين لشق اللحمة الوطنية، فلم يبق أمام طواغيت قريش سوى محاولة كالانتحار.

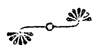


أكبر جريمة لقريش بعد الشرك

جريمة لم يجرؤ عليها أحد قبلهم، وذلك حين أصدر أبو جهل قرارًا بمنع أهل المدينة وأي مسلم من حقهم، وحق كل إنسان على الأرض منذ إنشاء مكة.. هذا الحق هو أداء الحج والعمرة.. هنا ارتكبت قريش أكبر جريمة بعد الشرك، وهي الصد عن المسجد الحرام، فأصبح السكوت عن ممارسات الوثنيين مستحيلًا عند أهل المدينة، لذا أصدر أحد الوزراء النافذين، وهو سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قرارًا مماثلًا.

أصدره وهو في مكة، حيث منعه الطاغوت الوثني أبو جهل من أداء العمرة، فأصدر قرارًا بمنع قوافل قريش من المرور نحو الشام، فأقره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب المعاملة بالمثل.. هنا شعر الوثنيون بالفشل، فقرروا شن الحرب.





نبي يصنع دولة قوانين ووثنيون يؤججون الحروب

فشلت كل محاولات طواغيت قريش الوثنيين في إشعال حرب أهلية، وفتنة طائفية داخل دولة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لذا قرروا غزو المدينة، وقد حدث ذلك في أشهر وأهم معركة، وهي (بدر)، ففشلوا فشلًا ذريعًا، وخسرت قريش أهم طواغيتها جملة واحدة.

عـاد بعدهـا النبي القائد محمد ﷺ لاسـتئناف بناء دولته وشـعبه، حيث نزلـت عليـه أحـكام الـزكاة، ليتكافـل المجتمـع، ويحنو الغنـي على الفقيـر، ولو كان الفقيـر يهوديًّا أو مسـيحيًّا أو مشـركًا، ثم شـرع الصيام تلك العبادة التي تشـع روحانيـة وصحـة وتكاتفًـا بينهم، ثـم نزلت أحـكام القضاء، وحـق الترافع لحفظ الحقـوق فـي نظـام قضائـي راق، طبقـه النبـي ﷺ علـى نفسـه، وهـو قائـد الدولـة، وكان خصمـه في ذلـك أعرابـي وثني غريـب، لا ناصر له.

فـذات يـوم دخل هـذا الأعرابي سـوق عاصمة دولـة القرآن (المدينـة)، ومعه فـرس يريـد بيعهـا.. كان قائـد الدولـة محمـد ﷺ حينهـا فـي السـوق بين شـعبه، فـرأى الفـرس فأعجبتـه، فاقترب مـن صاحبها وسـامها.

وافـق الوثنـي وتمـت الصفقـة، فطلـب قائـد الدولـة ﷺ مـن الأعرابي أن يلحـق بـه ليعطيـه الثمـن، لكـن نظـرات رجـال جـاءوا متأخريـن، حاصـرت الوثنـي وفرسـه، فصـاروا يسـومون الفرس، فطمـع الوثني، وأبطأ الخُطـى، فلما زادوا السـوم ازداد طمعـه، فصـاح بالنبي ﷺ: (إن كنـت مبتاعًا هذا الفرس فابتعـه، وإلا بعته)؟

اسـتغرب قائـد الدولة وقاضيها ﷺ تلـك الكلمات، فالصـدق والأمانة أبـرز صفاتِـه، حتـى قبـل أن يكـون نبيًّا، لـذا عاد نحـو ذلـك الوثني، مستفسـرًا.. لا مهـددًا ومتوعـدًا، فقال: «**أو ليس قد ابتعته منك؟**» فأنكـر الوثني، وحلف كذبًا، وقـال: (لا والله، ما بعتـك) فقـال النبـي ﷺ: «**بلى، قـد ابتعته منك**».

هنـا تداعـى المواطنون حول قائدهـم، غاضبين من وقاحة هـذا الغريب، لكن الغريـب لم يخـف، ولـم يأبـه بمشـاعرهم، لأنـه أدرك لأول مـرة أنـه لا يتواجـد داخـل قبيلة أو عشـيرة قد تنحاز لشيوخها، بـل داخل دولة يحكمها نظام يسـري علـى الجميـع.. نظـام يحتكم لـه حتى قائدهـا، لذا طلـب الوثني من قائـد الدولة

محمد ﷺ إثباتًا قائلًا: (هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك؟)[1] عندها أكد النبي القائد ﷺ لشعبه مبدأ استقلال القضاء في الإسلام.

فامتثل للنظام وهو نبي الله، وامتثل وهو قائد الدولة، وهو القاضي أيضًا، فصار يبحث عن شاهد عيان، أما المواطنون فتفاقم غضبهم من هذا البائع الذي بلغت به الوقاحة تكذيب نبيهم ﷺ، وبخسه حقه داخل دولته، لكنهم لم يمسوه بسوء، لأن لدولتهم قانونًا يكفل حماية حقوق المواطن وغير المواطن.

مواصلة التحضر الإسلامي وتواصل الحقد الوثني

نزلت أيضًا على النبي ﷺ أحكام جنائية، لضبط الأمن، والحفاظ على الأرواح والممتلكات، جعلت الأمن يسود في دولة القرآن.. أمن أثار جنون قريش مرة أخرى، فكررت الاعتداء في غزوة أحد، ففشلت، أيضًا رغم تحقيقها لنصر معنوي، جراء استشهاد بعض المسلمين العظماء، أمثال حمزة عم النبي ﷺ.



كانت بدر وأحد بالنسبة للمسلمين دفاعيتين.. لم يسعوا لهما، ولم يبدأوهما، أما الغزوة الثالثة (الخندق)، فكانت أشنع غزوة وثنية على دولة القرآن، لكن المحير أن الذي خطط لهذه الغزوة بالغة الخطورة لم يكن طواغيت قريش، فقد تعبوا وملوا من الفشل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٤٠ رقم ٣٦٠٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٢٧)، سنده صحيح رواه أحمد (رقم٢١٨٨٣)، وغيره من طرق عن شعيب بن أبي حمزة عن الزهري، قال: حدثني عمارة بن خزيمة الأنصاري: أن عمه، حدثه وهو من أصحاب النبي. وشعيب من أثبت تلاميذ الإمام الثقة الزهري. وشيخ الزهري ثقة، وثقه ابن سعد والزهري.

كانت هذه الغزوة المرعبة للأسف من تخطيط مواطنين ينتمون لأقلية من دولة النبي ﷺ هم قبيلة بني النضير اليهودية، فهذه القبيلة قررت ذات يوم اغتيال النبي ﷺ، وذلك عن طريق استدراجه لمناظرة مع حاخاماتها، ثم قتله في أثناء الحوار، لكن مواطنة يهودية أمينة، سربت الخبر لقائدها ﷺ وهو في طريقه للمناظرة، فرجع هو والوفد المرافق له للمدينة مباشرة، ثم حشد كتيبة، وتوجه بها نحو الخونة لا ليبيدهم، ولكن ليلزمهم بتوقيع اتفاقية ووثيقة مواطنة أخرى، لا خيانة فيها ولا تآمر.

اتفاقية ملزمة للجميع، وتضمن أمن الجميع، لكن بني النضير رفضوا المواطنة، وفضلوا الجلاء إلى مدينة خيبر، فوافق النبي ﷺ، ولم يعاملهم حسب شريعتهم، التي تحكم على المدن الخائنة بقتل شيوخها وشبابها ونسائها وأطفالها، كما تأمر بتنجيس بيوتها.

سمح النبي القائد ﷺ لهم بالمغادرة بسلام إلى خيبر، حتى إن بعضهم صار يقتلع أبواب بيته ويأخذها، خشية أن يستفيد المسلمون منها، ولما وصلوا خيبر بدأ زعيمهم حيي بن أخطب يخطط لحشد أكبر جيش عرفته الجزيرة العربية، لسحق دولة القرآن.. تم تشكيله من معظم القبائل العربية الوثنية، وقد أقنعهم هذا الحاخام بشن هجوم خاطف على المدينة، والقضاء على النبي والإسلام، ودولته في ساعات قليلة.

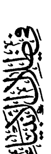
كانت المعركة سهلة على الخريطة، وكانت أعظم خطر مر على المسلمين ودولتهم، حيث ضاقت بهم الأرض، وهم يرون الآلاف تصطك حولهم، لا سيما والتوقيت كان في الشتاء، حيث يشتد البرد، ويقل الطعام، لكن دهاء النبي القائد ﷺ العسكري أفشل غزوة الأحزاب تلك، فقد كانت المدينة محصنة بالجبال من ثلاث جهات، لذا أمر ﷺ بحفر خندق في الجهة المكشوفة، التي لا جبال فيها، فلما وصلت الجيوش الوثنية، صعقت

بالخندق، وتلاشت أحلامها، لكنهم رابطوا لأسابيع، انهارت بعدها عزائمهم، جراء الانتظار والملل والبرد، وعدم القدرة على الاقتحام، ثم أكملت الريح المعجزة المهمة، فاقتلعت خيامهم، ونثرت طعامهم.. بعدها أصبح وثنيو قريش في حالة ضعف لا أمل معه.

دولة القرآن موجهة للإنسان والسلم والبناء

انسحبت جيوش الأحزاب الوثنية تجرجر أذيال الفشل، بينما واصل النبي ﷺ نشر الوعي والثقافة، فأدرك الكثير من الوثنيين أن محمدًا نبي، بعد أن رأوا المعجزات وسلمية التعامل.

كثر المتأثرون بحسن خلقه ﷺ وإدارته وتعامله مع الضعفاء والفقراء والعبيد من شعبه ومن غير شعبه، لدرجة أنه كان يومًا بين رجال دولته، وإذ بطيف امرأة من شعبه في عقلها شيء.. تقبل من بعيد نحوهم، فيخفق قلبها له وحده، وتناديه من بينهم، فيقبل رأس الدولة وسيد حقوق المرأة.. تاركًا عظماء الرجال نحو مواطنة مسكينة، ولما اقترب منها، قالت: (يا رسول الله، إن لي إليك حاجة؟).



فبشرها أن كل الشوارع تؤدي لقلبه، وأن كل الدروب في خدمتها، قائلًا: «**يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك**»[1]، فأخذته كما شاءت، ثم نحتت في مسامعه حاجتها، ولم تنصرف حتى حصلت عليها.

النبي محمد ﷺ الذي يصفه أعداؤه بقاطع الطريق.. يشاهد يومًا مجموعة من الوثنيين الجياع الحفاة، ليسوا من شعبه.. كانوا شبه عراة من

(١) صحيح مسلم (٢٣٢٦).

شـدة الفقـر.. يدخلـون عاصمة دولتـه، فلم يشـتمهم، أو يهنهم، أو يشـمت بهم، بـل تغير وجهـه حزنًا ورحمة وشـفقة بهم، لأنهم بشـر، ثم فز من مكانـه، وانطلق نحـو بيتـه.. يبحـث عما يسـد جوعهم، ويكسـوهم، ويخفـف ما بهـم، فلم يجد، فانطلـق ﷺ نحـو مركـز التثقيـف والتنوير والشـعور بالآخر.

انطلـق نحـو المسـجد، فرقى منبره وخاطب شـعبه، وقـال ملغيًـا كل الفوارق الدنيويـة بيـن الشـعوب بآيـة مـن القـرآن، تفيـض رقيًـا، وقـرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ثـم حثهم علـى الصدقة فقال ﷺ: «**تصـدق رجـل من دينـاره، مـن درهمه، من ثوبـه، من صـاع بره، من صـاع تمره، حتى قـال: ولو بشـق تمرة**».

وإذ بالمشـهد داخـل المسـجد يتـلألأ رحمة، حتى قـال أحد الحضـور: فجاء رجـل مـن الأنصـار بصـرة، كادت كفـه تعجـز عنهـا، بـل قد عجـزت، ثـم تتابع النـاس، حتـى رأيت كوميـن من طعام وثيـاب. ثم يصف مشـاعر النبي ﷺ وتأثره وسـروره بهذا المشـهد الإنسـاني فيقول: رأيت وجه رسـول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسـول الله ﷺ: «**من سـن في الإسـلام سنة حسنة، فلـه أجرهـا، وأجر من عمل بها بعـده، من غير أن ينقص من أجورهم شـيء، ومن سـن في الإسـلام سـنة سـيئة، كان عليه وزرهـا ووزر من عمـل بها مـن بعده، من غيـر أن ينقص من أوزارهم شـيء**»[1].

تهلـل وجـه النبي محمد ﷺ لأنه كسـا وأشـبع وثنيًّا فقيـرًا مُعدمًا غريبًا، ليـس مـن مواطنيـه، وليس علـى دينه.. أشـرق وجهه ﷺ لأنه كسـا إنسـانًا فقيـرًا، وطيـب خاطـره، ولـم يسـأله قبـل أن يطعمه عن دينـه، ولا عـن ولائه، بل قـرأ فيه إنسـانًا كرمه الله، وأمـر برحمته.

---

(١) صحيح مسلم (١٠١٧)، والنسائي الصحيح (٢- ٥٣٩).

لـم يأمـر أرحـم الراحميـن جَلَّوَعَلَا نبيـه محمـدًا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بـأن يكـون رحمـة للعالميـن فقط، بل جعله رحمـة لهذا الكوكب ومن عليه، ومـا عليه.. كان محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يرقـق قلـوب أتباعـه علـى الحيـوان، بـل يخيفهـم مـن أذيتـه، فيقول: «دخلـت امـرأة النار فـي هرة ربطتهـا، فلا هـي أطعمتهـا، ولا هي أرسـلتها تأكل مـن خشـاش الأرض، حتـى ماتـت هـزلًا»[1]، دخلت النـار رغم عباداتها بسـبب ظلمهـا لهـرة، بينمـا «غُفر لامرأة مومسـة، مـرت بكلـب على رأس ركـي يلهث، كاد يقتلـه العطـش، فنزعت خفهـا، فأوثقته بخمارهـا، فنزعت له مـن الماء، فغفر لهـا بذلك»[2].

كان النبـي محمـد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جنّـة مـن المشـاعر.. ينعـم بهـا الشـعب، حتـى ضعـاف العقـول.. حتى العصافيـر والطيور.. كان صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جدول حب يشـرب منـه الجميـع فيرتـوون.. يشـاهد طيـرًا مفجوعًـا فيخفـق قلبـه رأفـة بـه، فيهتـف بأصحابه في مشـهد رآه، ورواه أحد الشـباب، فقال: كنّا مع رسـول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فـي سـفر، فانطلـق لحاجته، فرأينـا حمَّرة معها فرخـان، فأخذنا فرخيهـا، فجاءت الحمـرة، فجعلـت تفرش. فجـاء النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقـال: «**من فجع هـذه بولدها؟ ردوا ولدهـا إليها**»[3].



ومـن رحمته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قام بغـرس وكبس ثلاث مئة نخلة لوحده، وبيديه.. فعل ذلك من أجل تحرير عبد اسـمه سـلمان الفارسـي من سـيده اليهودي، الذي

(١) صحيح مسلم (٢٦١٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٣٢١).

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود (٢٦٧٥) وغيره من طرق عن أبي إسحاق الشيباني عن الحسن بن سعد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه.. الشيباني ثقة وكذلك شيخه وشيخ شيخه، وقد روي مفرقا على قصتين بالسند نفسه.

اشترط عليه ذلك، ولو كان ﷺ يظلم اليهود، كما يتهمه أعداؤه لحرر العبد، واسترق اليهودي، فهل تعرف الدنيا قائدًا يلطخ يديه بالطين والسماد كرامة لعبد.

إنه نبي الرحمة محمد ﷺ.. يفعل ذلك بعد غزوة الأحزاب، التي مرت بسلام، فأصبحت دولة القرآن مهابة، ولا أحد يستطيع منع شعبها من التوجه لمكة لأداء العمرة.

لذا أمر ﷺ أصحابه بالاستعداد لذلك، فأوقفته قريش، وهي في حالة لا تستطيع منعه، لكنها رجته أن لا يدخلها هذا العام، لحفظ كرامتها بين العرب، فوافق ﷺ.

ولأنه بنى دولته على المواثيق، فإنه لم يرجع إلا بوثيقة موقعة تضمن حق شعبه في زيارة مكة بعد عام، متى شاءوا مثلهم مثل غيرهم، وبعد نقاش وحوار في مكان يسمى (الحديبية)، قدم القائد ﷺ تنازلات، وأبدى مرونة كبيرة، لدرجة أنه سمح لمن أراد أن ينضم لمعسكر الشرك من شعبه أن يفعل.

بل وقع على شرط مرير، وهو أن يلتزم برد أي مسلم أو مشرك من مكة، يريد الالتحاق بدولته، كما كفلت الوثيقة السماح لأي قبيلة بالدخول في حلف مع دولة الإسلام، أو حلف مع معسكر الشرك القرشي، وأن تتوقف المعارك بين الطرفين لمدة عشر سنوات.

شروط كشفت مدى التسامح الإسلامي أمام الصلف الوثني، مما دعا بعض القبائل الوثنية للدخول في حلف مع دولة القرآن، أو التخلي عن الوثنية، والدخول في الإسلام، واعتناق التوحيد، لكن رغم ذلك.. قامت قريش بخرق المعاهدة بعد عامين، فدفعت الثمن غاليًا.

خرقت قريش معاهدة الحديبية رغم أنها مجحفة بحق دولة الإسلام وشعبها، وهنا طفح الكيل، فالصبر على هذا العبث الوثني غير مجد.

فقد حدث ذلك حين غزا الوثنيون قبيلة (خزاعة)، التي دخلت في حلف مع دولة القرآن، فطالبت قبيلة (خزاعة) نبي الله ﷺ بتفعيل الاتفاقية الموقعة بينهما، مما نتج عنه فتح مكة، وزوال سلطة الوثنية للأبد.

المدهش هنا أن فتح مكة كان دون قتال! كما أنه لم يكن جهاد طلب ولا جهاد دفاع. كان قمة في التحضر، لأنه يعرب عن مدى رقي دولة الإسلام حين استجابت. ملتزمة بمعاهدتها لقبيلة وثنية مظلومة. تمت خيانتها والاعتداء عليها، من قبل طواغيت قريش الوثنيين.

تم فتح مكة، فاستسلمت زعامات مكة الوثنية كلها وهي صاغرة، أما المبهر هنا، فهو أن النبي القائد ﷺ لم ينتقم منهم، ولم يذكرهم بجرائمهم بحقه، واضطهادهم له ولأصحابه، وقمعهم له لأكثر من عشرين عامًا، بل تهادى نحو الكعبة، ولما أصبح أمامها صلى، ولما فرغ من صلاته نهض ليلقي خطاب النصر. في وقت كان الطواغيت يرتجفون داخل بيوتهم، وبعضهم دخل الكعبة خوفًا من سيف الفاتح العظيم.



كان المسجد مزدحمًا، لأنه قد أعلن أنه من دخل المسجد فهو آمن.

انحشر الوثنيون داخل المسجد ورائحة عرقهم وخوفهم تزكم الأنوف، والقلوب ترتجف. خيم السكون بانتظار بيان النصر الأول، ورفعت الرؤوس المنكسرة، نحو هذا القائد المنتصر عليها، وهو يمسك بخشبتي باب الكعبة، فإذ به عالم مهيب من التواضع والخضوع لربه سبحانه، الذي فضله واختاره لرسالته.

بدأ النبي القائد محمد بن عبد الله بحمد الله الواحد الأحد لا شريك له.

أثنى عليه سبحانه، ثم جال بطرفه، ونظر للجموع الوثنية التي كانت تقلب اسمه محمدًا، فتسميه بعد بعثته: (مذممًا)، وتصفه بالساحر، والكاذب. جال بطرفه نحو قوم اضطهدوه وقتلوا أحبابه وطردوه من مدينته، وقاتلوه وحرضوا عليه ومنعوه من بيت ربه لأكثر من عشرين عامًا. نظر للجموع الوثنية ثم هتف بها وهو يمسك بعضادتي الباب، ثم قال:

«يا معشر قريش ما تقولون؟».

وإذ بالطغيان يتلاشى وهم يردون بكل أدب ويقولون: نقول ابن أخ، وابن عم رحيم كريم. ثم كرر سؤاله: «**يا معشر قريش ما تقولون؟**». قالوا: نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم. ثم قال: «**يا معشر قريش. ما تقولون؟**». قالوا نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم.

هنا تفجرت شلالات الرحمة. تطهرهم من دنس الحقد الجاهلي، والغل الوثني. هنا تألق محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالبدر. في سماء الوثنية المعتمة، ليزيل سوادها ويلهج بكلمة كادت تقتلهم فرحًا، حين هتف بهم فقال: «**فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**»[1].

بعد هذا الخطاب المحلق في سماء الرحمة والتسامح. امتلأ المسجد بصراخ الفرح والابتهاج والتهاني، ليحتل هذا القائد القلوب، لدرجة أن دخلت قبائل الجزيرة العربية كلها في الإسلام دون قتال، وانضمت لدولة القرآن. بعد هذا الخطاب المتسامح للغاية. هذا يعني شيئًا واحدًا. هو أن الحلف الوثني

---

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى (١١٢٣٤)، وغيره من طريق الثقة سلام بن مسكين عن شيخه الثبت ثابت البناني، عن عبد الله بن رباح وثقه ابن سعد والنسائي، عن أبي هريرة. وله شواهد قوية عن ابن السني وغيره.

كان حلفًا هشًّا. كان حلفًا عاطفيًّا لا عقل له. كان حلفًا غير مقنع على الإطلاق. حلف عصبية يقوده طواغيت وثنيون.

لم تكن لديهم قضية أو قناعات. مجرد عصبية جاهلية عمياء.

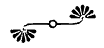
بعد دخول القبائل العربية في الإسلام. انتهى الخطر الوثني العربي، وبرز خطر أكبر منه. ظهر الخطر العالمي على دولة النبي ﷺ.

بدأت إمبراطوريتا الروم وفارس بالتوجس من هذه الدولة الناشئة، لذا بدأتا التحرش، من خلال بث الجواسيس، وحشد الجيوش، بل والاعتداء على دولة الإسلام، فقد شنتا حربين على دولة الإسلام. هما: (ذات السلاسل) و(مؤتة). بل وصلت النبي القائد عليه السلام أنباء عن تحركات إمبراطورية الروم باتجاه دولة القرآن.

هنا حشد النبي ﷺ جيشًا هائلًا بعد أن وصلته الأخبار بأن الروم سيغزون دولته. سار بجيشه وسار حتى وصل منطقة تبوك ثم عسكر هناك، ليبقى في تبوك قرابة الشهر.

ترى لو كان هدفه التوسع في المناطق المجاورة، والاعتداء على دولها. هل يتوقف، ثم يعود للمدينة؟

بعد تلك الغزوة أصبحت الجزيرة العربية آمنة برسالتي الأنبياء (التوحيد والعدل)، ولما حان موعد الحج. أدى النبي القائد ﷺ الحج. هو والمسلمون في حجة تسمى (حجة الوداع).



الختام..

وبعد الفراغ من الحج عاد النبي ﷺ للمدينة، وبعد أشهر أصابه مرض ألزمه الفراش. بعدها ضعف الحبيب عليه السلام ضعف الموت، ثم رحل عن الدنيا، بعد أن أخذ معه القلوب والذكريات والأشواق.

أهالوا عليه التراب والحب والدموع ﷺ، وبكاه من في المسجد، ومن في الطرقات والمنازل. بكت أمهات المؤمنين، وبكت النساء، وبكى الرجال والأطفال، وبكته المدينة.

احترقت القلوب على ساكن القلوب. بكى الشعب ذلك النبي، الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.

بكوا محمدًا الذي هداهم الله به، ووحدهم به، وبنى لهم دولة مهيبة، ومجدًا شاهقًا، لكنه لم يبن لنفسه قصرًا، ولا لشعبه سجنًا.

مات الحبيب دون أن يترك في منزله دينارًا أو درهمًا، أو يترك بعده عبدًا أو أمة، فقد كان ﷺ لا يدخر شيئًا لغد، فكل ما يأتيه يقسمه بين شعبه، ولذا كانت مصيبة موته تخفف كل المصائب، التي تمر بهم.

فارق محمد ﷺ الحياة جسدًا، لكنه بقي سنةً ومنهجًا، فنهض الصحابة من عند قبره مثقلين بالحزن واللوعة. محملين بسنته وقرآن ربه وربهم.

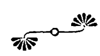
نهض الصحابة بعد أن دفنوه في غرفة زوجته عائشة رضي الله عنها، فلم يعكفوا عند قبره، أو يبنوا على قبره قبابًا، أو مباني، أو حتى يكتبوا عليه شيئًا.

لم يحولوا ذلك القبر الكريم إلى بناء مرصع بالجواهر، أو مطلي بالذهب، بل إن عائشة استمرت في السكن في بيتها، ولم تفارقه. أما الصحابة فلم

يمضـوا أوقاتهـم عند قبـره بتـلاوة الأشـعار والمدائـح والبكائيات، بـل ولا حتى بقـراءة القرآن.

لقد علمهم محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كيف يصنعون الحياة. كيف يشـرقون كالشـمس فـي عروق المسـتقبل والأجيال. نهضـوا من عند قبـره، فحملوا رسـالته (التوحيد والعـدل) إلـى العالـم؛ لينقـذوه بها، كمـا أنقدهم هـو قبل ذلـك بها. فـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عـدد خلقـه، ورضا نفسـه، وزنة عرشـه، ومـداد كلماته، وجـزاه عنا خيـر ما جزى نبيًّـا عن أمته، وجمعنـا به وبأنبيائـه في جناته فـي الفردوس[1].

◄ محمد الصوياني





(١) للمزيد من التفاصيل الصحيحة حول سيرنه عليه السلام، راجع (كتاب السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة)، ومختصره (مختصر السيرة)، وهما للمؤلف.

المحتويات

